د. سامي كليب

البراغماتية (القولفعلية) في تحليل أفعال الخطاب السياسي

خطابا ترامب والملك سلمان نموذجاً





البراغماتية (القولفعلية)
في تحليل الخطاب السياسي
خطابا ترامب والملك سلمان نموذجًا

د. سامي كليب

البراغماتية (القولفعلية) في تحليل الخطاب السياسي

خطابا ترامب والملك سلمان نموذجًا

دار الفارابي

الكتاب: البراغماتية (القولفعلية) في تحليل الخطاب السياسي
خطابا ترامب والملك سلمان نموذجًا

المؤلف: د. سامي كليب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آب ٢٠١٧

ISBN: 978-614-432-775-3

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.



المحتويات

الفصل الثاني: البراغماتية
«تعريفها وأسباب ظهورها وأفعال الكلام فيها»

القسم الأول: تعريف البراغماتية، أسباب ظهورها

القسم الثاني: البراغماتية عند العرب: خبر وإنشاء

إهداء

إلى كل من يبحث عن تحليل الخطاب السياسي أو الإعلامي في وطننا العربي بعيدًا عن الأهواء والمشاعر الشخصية.

إلى كل من يواجه الجهل والفتن والتطرف والإرهاب، بالوعي والعلم والحقيقة والموضوعية.

إلى روحَيْ أمي وأبي المرافقين دائمًا لي في كل خطوة في حياتي رغم قسوة الغياب.

إلى أستاذي الذي فتح عينيَّ على أهمية البراغماتية في تحليل الخطاب السياسي، البروفسور والفيلسوف الفرنسي فرانسيس جاك الذي كان لي شرف التتلمذ على يديه في جامعة السوربون، فأحاطني بعقله ومحبته.

شكر

- إلى كل أعضاء اللجنة العلمية الذين تفضلوا بمناقشة أطروحتي حول «التحليل البراغماتي للخطاب السياسي في زمن الحرب»، وكرّموني بمنحي درجة مشرّف وتهنئة من اللجنة. فهذا الكتاب هو جزء من الأطروحة مع بعض الإضافات.
- أعضاء اللجنة هم: العميد طوني عطاالله. العميد جورج كلّاس. والدكاترة: نهوند القادري، جمانة الرشيد، عادل خليفة (مشرف).
- إلى د. إيمان خليل التي تفضلت بالنصح الأكاديمي ورافقتنا، الدكتور عادل وأنا، بآرائها القيمة وصحبتها لإنجاز هذا العمل.
- إلى العميدين محمد محسن وطلال عتريسي ود. وليد عربيد وكل إدارة وأعضاء المعهد العالي للدكتوراه للتفضّل بتسهيل جميع الإجراءات بمحبة وتفانٍ.

مقدمة

لا توجد سياسة بلا خطاب حامل لها، ولا يوجد خطاب بلا أهداف ظاهرة ودفينة. فكيف السبيل لمعرفة المقاصد الفعلية للخطيب وخطابه، دون الغرق في الأهواء الشخصية والمؤثرات الإيديولوجية أو الاجتماعية أو النفسية أو الشخصية التي تجعل المحلل أو الباحث ينظر إلى الخطاب من منظوره الشخصي لا من الناحية العلمية المجردة؟

في كتابنا هذا، نقدم منهجًا جديدًا لا يزال نادر الوجود والتطبيق في جامعاتنا العربية وخصوصًا المشرقية منها، وذلك بغية تحليل الخطاب ليس من زاوية عدد مفرداته (كما كان شأن التحليل الكمي) ولا من منطلق القيم التي يتضمنها (التحليل النوعي)، وإنما من خلال الأفعال التي يرغب الخطيب من الذين يوجّه إليهم خطابه أن يقوموا بها أو يحجموا عنها.

إنه المنهج «البراغماتي» اللساني الذي ترجمه بعض العرب بـ«التداولي»، ونقترح له تعريبًا آخر هو «القولفعلية» ذلك أنه يستند إلى مبدأ أن لكل قول فعلًا، وأن هذا الفعل قد يكون وعدًا، أو وعيدًا أو ترغيبًا أو ترهيبًا أو إقناعًا أو إرغامًا. وقد اخترنا لتطبيقه

حدثًا سياسيًا عربيًا يرتبط بالعلاقات الأميركية السعودية، وما تخلّلها من خطاب سياسي لكل من الرئيس الأميركي دونالد ترامب والعاهل السعودي الملك سلمان بن عبد العزيز.

إن هذا المنهج البراغماتي اللساني الذي يختلف عن الفلسفة البراغماتية الذرائعية يعود إلى فلاسفة إنكلوساكسونيين، لكنه انتشر منذ منتصف القرن الماضي في مجمل أوروبا، وكانت لنا فرصة دراسته والتعمق فيه أثناء دراساتنا العليا في فرنسا على أهم منظّريه الفرنسيين البروفسور والفيلسوف فرانسيس جاك.

إنّ إدخال نظرية تحليل حديثة نسبيًا على طريقة فهم الخطاب السّياسي في الوطن العربي وتفكيكه إلى أفعال وتحليله، أي «البراغماتية»، لربما كانت هي المنهج العلمي الأنجع، لتحليل أي خطاب رئاسي أو غير رئاسي عربي أو أجنبي في زمنَيْ السلم والحرب. ذلك أنّ البراغماتية تسعى إلى تفكيك الخطاب ليس إلى جملِه ومفرداته وإنّما إلى ملفوظاته أو منطوقاته وأفعال الكلام فيه. هي تتمحور أيضًا حول ربط الخطاب بالسّياق العام والبيئة المحيطة بإنتاجه، وهذا ما يسمح لنا بالذهاب إلى ما فوق الجمل وما يتخطى النص، ويحلل أيضًا المسكوت عنه في هذا النص والأفعال غير المباشرة.

نشير بداية إلى فرق جوهري بين «البراغماتية» (la pragmatique) (التي فسرها بعض الباحثين العرب بالتداولية)، وهي منهج لساني فلسفي يحلل علاقة الإشارات بمستخدميها،

والكلام بسياقه، والقول بالفعل، طوَّره فلاسفة لسانيون مثل جون أوستن (John Austin) وجون سيرل (John Searle) وغرايس أوبير (Grice Hubert) وغيرهم (ممن سنتطرق إليهم بالتفصيل في هذه الأطروحة)... وبين «le pragmatisme» المعروفة عربيًا باسم «النفعية» أو «الذرائعية» والتي من أهم روادها الأساسيين جون ديوي (John Dewey) وشارل بيرس (Charles Peirce) وجيمس وليم (James William) وغيرهم. فهذه الأخيرة وإن كانت تجد أصل اسمها تمامًا كالبراغماتية في مفردة Pragma اليونانية التي تعني الفعل أو العمل، إلّا أنّها منهج فلسفي مفاده، وفق ديوي، أنّ التفكير الذي تثيره مشاكل الواقع إنّما هو الوسيلة الوحيدة لفهم الوجود، أي إنَّ ديوي راح يرى الحقائق كمسارات والأفكار كتجارب. كانت التجربة بالنسبة إلى هذا الفيلسوف البيداغوجي والاجتماعي والتربوي: هي التي تؤثِّر في علاقاتنا وفي بيئتنا ومحيطنا الإنساني والبيولوجي والعائلي والاجتماعي. وهو إذ نقد، بقسوة، بعض الفلسفات الأوروبية والتقليد الفلسفي، فذلك لاعتباره أنَّ الحقيقة هي الفكرة النافعة فقط، أي تلك التي تحلّ مشكلة الإنسان وتجيب عن تساؤلاته. كما شجب ديوي مرارًا الفلسفة التقليدية، لأنّها برأيه، قد ضلَّت الطريق حين تمَّ فصل الفكر فيها عن التجربة العملية، ولأنَّ كل شيء بالنسبة إليه يجب أن يخضع للاختبار، بما في ذلك الأخلاق قبل وضع التصورات عنها، نجد المقاربة نفسها تقريبًا عند وليم جيمس الذي يقول: «إن الطريقة البراغماتية هي بشكل رئيس

طريقة لتسوية نزاعات ميتافيزيقية قد تكون بخلاف ذلك نزاعًا طويلًا لا نهاية له. هل العالم واحد أم متعدد؟ هل مقدّر أم حر؟ مادي أم روحاني؟ هذه كلها أفكار قد يصدق بعضها بخصوص العالم وقد لا يصدق، والنزاعات حولها تكاد لا تنتهي. إن الطريقة البراغماتية في مثل هذه المسائل تقضي بمحاولة تفسير كل من هذه الأفكار من خلال تتبع النتائج العملية لكل منها»[1].

تلك البراغماتية النفعية ميزت بين الفلاسفة والمفكرين الأميركيين ونظرائهم الأوروبيين، غير أن عددًا من الفلاسفة في أوروبا ساروا في ركبها، ومنهم مثلًا البريطاني ف.ك.س.شيللر (F.K.S Schiller)، أو الإيطالي جيوفاني پاپيني (Giovanni Papini).

أمّا البراغماتية اللسانية، التي نعتمد عليها نحن في هذه الأطروحة، فقد جاءت أيضًا لتنقد وتنقض فلسفات لسانية كثيرة قبلها. فهي ما عادت تسأل هل الجمل صحيحة أم خاطئة؟ كما فعلت فلسفات كثيرة قبلها، وإنّما راحت تبحث عن الفعل الذي ينتجه الكلام، وعن بيئة إنتاج هذا الفعل وما يؤثر فيه، وكيف يؤثر هو في متلقّيه. لذلك سنعتمد في بحثنا على البراغماتية اللسانية المبنية على أفعال الكلام أو أفعال الخطاب. وهو ما اختصره أوستن بعبارة

(١) جيمس وليم، البراغماتية، نقله إلى العربية وليد شحادة، دار الفرقد، دمشق، ٢٠١٤. ص٥٢ و٥٣.

«القول هو الفعل». هذا المنهج التحليلي يستطيع أن يفكك الخطاب السّياسي (مثلًا خطاب ترامب والملك سلمان) إلى الأفعال المباشرة أو غير المباشرة التي ينشدها الخطيب، ويستخرج أبرز أفعال التأثير والتوجيه والتهديد والوعد والوعيد وغيرها من التي يمارسها رجل السّياسة على جمهوره. وجد هذا المنهج بذوره الأولى عند الفلاسفة البريطانيين والأميركيين، لكنه دخل بقوة إلى المدارس الفرنسية. لا بل إنّ فرنسا قد شهدت قيام المدارس، الخاصة بتحليل الخطاب، في منتصف القرن الماضي وحيث كان من أشهرها «المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب»، وهي مدرسة أشرف عليها ميشال بيشو (Michel Pêcheux) في محاولة منه لدراسة علاقة الأيديولوجيا الماركسية بالخطاب. بالتّالي، وكما أنّ العالم العربي يعيش اليوم تحولات إستراتيجية مفصلية كنتيجة مباشرة أو متوسطة وبعيدة المدى لما عُرف بـ«الربيع العربي»، كذلك هي حال المجتمعات الأوروبية، التي عاشت في منتصف القرن الماضي تحولات كبيرة ارتبطت بتمدد الفكر الماركسي والاشتراكي وبسعي الفلاسفة إلى تحليل ظواهر ما يحدث.

الأفعال المنشودة من خلال بحث الملفوظات، هي التي لخّصت مقاصدها الباحثة الفرنسية المتخصصة بنظرية البراغماتية فرنسواز ارمانغو (Françoise Armengaud) بقولها إنها «محاولة للإجابة عن أسئلة من نوع: ماذا نفعل حين نتحدث؟ وماذا نقول بالضبط حين نتحدث؟ من يتحدث إلى من؟ من يتحدث مع من؟

من يتحدث ولماذا...؟». ونحن في سياق كتابنا نضيف أسئلة كثيرة، ومنها: ما هي هذه «الأفعال» التي يريدها الرجل السّياسي لحثّ جمهوره على تنفيذها؟

إذًا، إنَّ اعتمادنا البراغماتية منهجًا عمليًا لتحليل خطابي ترامب وسلمان، وأيضًا الظروف المحيطة بإنتاج هذا الخطاب... ينطلق من رغبتنا في الذهاب أبعد مما ذهبت إليه المناهج الأخرى.

سعينا في السنوات الثلاث لبحثنا إلى الاطلاع على أكبر قدر ممكن من الأبحاث الجامعية التي قد تكون مشابهة أو قريبة ولكن كانت مفاجأتنا أن لا الجامعة اللبنانية ولا الجامعات الأجنبية والعربية في لبنان قد تطرقت من قريب أو بعيد إلى المنهج البراغماتي وتطبيقه على تحليل الخطاب السّياسي.

في المقابل وجدنا في بعض الدول العربية، ومنها المملكة المغربية والجزائر ومصر واليمن، بعض الكتب أو الأطروحات التي تشرح مفهوم البراغماتية أو مفهوم الخطاب السّياسي... لكنّنا لم نجد منها إلّا ما ندر من حيث تطبيق المنهج البراغماتي على الخطاب وفقًا للنحو الذي نعالجه في هذه الأطروحة لكي نشير إليه كمثال يحتذى. ففي الجزائر مثلًا وجدنا أطروحة قيد المناقشة بعنوان «الأفعال الكلامية في القرآن الكريم»، وفي الجزائر أيضًا بحثًا مهمًا بعنوان: «أفعال الكلام في قصة كليم الرحمن موسى عليه السلام»، ورسالة لنيل الماجستير في جامعة منتوري بقسنطينة الجزائرية تحت عنوان «الأفعال الكلامية في سورة الكهف، دراسة

تداولية»، وفي جامعة غرداية الجزائرية عثرنا على بحث في مجلة الواحات للبحوث والدراسات بعنوان «نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة. دراسة تداولية»، وفي الكويت طالعنا بحث معمّق بعنوان: «نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللّغة المعاصرين والبلاغيين العرب»، كما وجدنا في المغرب واليمن ومصر بعض المؤلفات التي سنتطرق إليها في هذا الكتاب ونقتبس من بعضها. أمّا غربيًا فهناك بعض الأطروحات الحديثة لتطبيق البراغماتية على الخطاب السّياسي للرئيس باراك أوباما أو لِنيكولا ساركوزي. لكننا لا ندَّعي الاطلاع على كلّ ما في الجامعات الغربية، وإنّما استندنا إلى كتب غربية كثيرة تناولت مواضيع مشابهة لموضوعنا في الخطاب السّياسي أو البراغماتية أو أفعال الكلام... لكنها مختلفة عنه في جمع كل ذلك ضمن أطروحة واحدة وحول خطاب رئاسي بعينه.

نلاحظ من خلال البحث عن أطروحات وكتب مشابهة، أنّ منطقة المغرب العربي، وخصوصًا الجزائر والمملكة المغربية وتونس... هي أكثر اهتمامًا بالبراغماتية وأفعال الكلام من دول المشرق العربي، ربما بفعل القرب الجغرافي والتأثر اللغوي. لكنّ هذه الدول التي بقيت خاضعة لأنظمة سياسية متشدِّدة (فترات طويلة لم تقارب كثيرًا الخطاب السّياسي... وربما كان الأمر خشية المساءلة.

***

في مستهل الحديث عن البراغماتية نعود في القسم الأول من هذا الكتاب إلى مناهج تحليل الخطاب عالميًا وعربيًا، ثم نقدم صورة مفصلة عن نشأة البراغماتية اللسانية وأسباب ظهورها وتقاطعها أو تناقضها مع الفلسفات الأخرى، ومع مدارس تحليل الخطاب وصولًا إلى أفعال الكلام أو أفعال الخطاب.

أملنا في أن يقدم هذا المنهج، سبيلًا علميًا لتحليل الخطاب السياسي أو الإعلامي أو أي خطاب آخر ديني أو عسكري أو قضائي.. الخ، على نحو موضوعي بقدر ما تسمح العلوم الإنسانية بالموضوعية الفعلية. أملنا كذلك أن يكون في هذا البحث التفصيلي لنشأة البراغماتية وتطورها وتطبيقها على الخطاب، مدخل لمنهج جديد في الجامعات العربية خصوصًا وأننا وجدنا في خلال بحثنا أن ثمة أصولًا عربية للبراغماتية تجاهلها الغربيون، عن قصد أو دون دراية.

أملنا ثالثًا أن نستطيع من خلال هذا المنهج البراغماتي تفكيك وتحليل خطابي الملك سلمان والرئيس ترامب.

الفصل الأول

مناهج تحليل الخطاب السياسي

القسم الأول

فهم الخطاب السياسي
عبر مناهج التحليل
تاريخيًا وحاضرًا

١. لمحة تاريخية عن مناهج تحليل الخطاب السياسي

لم يتفق علماء الاجتماع واللسانيات والفلسفة والمنطق وغير ذلك من العلوم، على منهج واحد وثابت وعلمي لتحليل الخطاب. هذا طبيعي ومنطقي لأنّ الأمر يتعلق بعلوم متحركة وقابلة للتطوير والتعديل، ويتعلق أيضًا بخطاب لا يزال حتى اليوم خاضعًا لتعريفات وتوصيفات ودراسات متنوعة ومتناقضة. ثم إنّ اللّغة نفسها المُستند إليها في التّحليل قد خضعت، هي الأخرى، لمئات الدراسات والعلوم التي لم تستقر حتى يومنا هذا. لعل الباحث اللساني التونسي د. حاتم عبيد محقٌّ إذًا بقوله: «نحن نعدِم لحظة تأسيسية بعينها استوى فيها تحليل الخطاب اختصاصًا قائمًا بذاته على يدي مؤسس معروف، بل هو فضاء تشكَّل على التدريج، عندما التقت في السنوات الستين من القرن الماضي مجموعة من التيارات الحديثة المنحدرة من أوساط علمية مختلفة كالتاريخ واللسانيات والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس التحليلي»[(١)].

---

(١) عبيد حاتم، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر، عمان، ٢٠١٣، ص ٨.

الملاحظة الأولى: في البحث عن مناهج تحليل الخطاب السّياسي، يبرز العديد من الملاحظات: هي أنّ العرب الذين عرفوا الخطابة وأجادوها (واستمروا في ذلك خصوصًا في المرجعيات والحوزات والجامعات الدينية والفقهية)، لم يضعوا قديمًا طريقة لتحليل الخطاب السّياسي، ولا يبدو أنهم اهتموا به إلّا في فترات لاحقة؛ وهم حين بدأوا الاهتمام به، خصوصًا في منطقة المغرب العربي الأكثر قربًا وتأثرًا بأوروبا الغربية، فإنّما استندوا إلى مناهج ومدارس وطرائق التحليل الغربية، خلافًا لما كان الشأن عليه، مثلًا، بالنسبة إلى التحليل الأدبي أو الشعري وغيرهما. نعتقد أنّ ثمة أسبابًا منطقية وقفت خلف ضعف الاهتمام بتحليل الخطاب السّياسي عند العرب. أولًا لأنَّ تحليل الخطاب لم يكن بين العلوم الإنسانية والفلسفية واللسانية الشائعة عندهم؛ وثانيًا لأنَّ تحليل الخطاب السّياسي يعني الدخول في متاهات خطيرة مع مُنتج أو ملقي الخطاب، والذي هو، في معظم الأوقات، رجل السلطة، أو رجل الأحزاب السّياسية القريبة أو البعيدة عن السلطة. فالتحليل قد يُفضي إلى كشف ما لا يريد السّياسي كشفه. لذلك ربما كان الابتعاد عن هذا العلم هو الأفضل. فرئيس الدولة أو الملك أو الأمير في الكثير من الدول العربية تاريخيًا وحاضرًا يكاد يقارب المقدَّس في بعض الدول، وهو مقدَّس علنًا في دول أخرى (الملك يسمى أمير المؤمنين في المملكة المغربية، وخادم الحرمين الشريفين في السعودية، وسليل آل البيت الهاشمي في الأردن... الخ).

الملاحظة الثانية: هي أن مدارس تحليل الخطاب، بشكل عام، كانت كثيرة ومتعددة فتناقض بعضها مع بعض حينًا، وتكاملت أحيانًا، مع مرور السنين وتغيُّر الأساليب. ووصل الأمر في بعض المرات إلى حدّ التصادم، مثلًا ما بين المدرستين الإنكلوساكسونية والفرنسية في تعريفهما لتحليل الخطاب بشكل عام. يقول جورج مونان (Mounin Georges) إنَّ: «كلّ تقنية تطمح إلى البناء العام والشكلي للرّوابط الموجودة بين الوحدات اللّغوية للخطاب المنطوق أو المكتوب، في ما يتخطى الجملة»[1] (أو في مستوى أعلى من الجملة) وهو ما يمكن وصفه بال«ما فوق الجملة».

مع دخول التحليل إلى مرحلة دراسة «ما فوق الجملة» أو ما يتخطى العبارة المكتوبة أو المنطوقة... انفتح تعريف التحليل على الكثير من المجالات والعلوم، ذلك أنّه ما عاد مقتصرًا على النّص، وإنّما ذهب إلى معرفة المقاصد من هذا النّص، أي ما نفعله حين نتحدث، ذلك أنّه لا كلام بلا فعل، وهو ما سنراه لاحقًا في «أفعال الخطاب».

الملاحظة الثالثة: إنّ التأريخ الفعلي لتحليل الخطاب ليس دقيقًا، ولم يتوافر حتى اليوم بحثٌ شامل حول الأمر، ذلك أنّ المدرستين الفرنسية والإنغلوساكسونية احتكرتا تقريبًا هذا المجال، من دون معرفة ما إذا كان مثل هذا التحليل موجودًا مثلًا في الصين أو اليابان أو

(1) Mounin Georges, *Dictionnaire de la linguistique,* PUF, Paris, 1974, P. 26.

الهند أو عند العرب واليونان وغيرهم من دول وشعوب العالم النامي أو البعيد عن الحضارة الغربية. وقد أسلفنا أنّ الخطاب ومفاهيمه كان موجودًا ولو بنسب متواضعة منذ أيام أرسطو، وأنّ العرب والمسلمين والمسيحيين قد عرفوا أيضًا الفلسفات القديمة بشكل ما.

اتفق معظم الباحثين على أنّ عالِم اللسانيات الأميركي الأوكراني المولد زيليغ سابيتاي هاريس (Zellig Sabbetai Harris) هو مخترع عبارة «تحليل الخطاب» في الغرب، وذلك عبر نشره في مجلة «Language» الأميركية مقالًا بهذا العنوان عام ١٩٥٢؛ وهو أول من اعتبر الخطاب وحدات تفوق الجملة، ودعا إلى «تفكيك» الخطاب لفهمه. ومنذ منتصف القرن العشرين، بدأت المدارس تتعدَّد وتتشعب في تحليل الخطاب.

إنَّ نشر مجلة «languages» الفرنسية عام ١٩٦٩ عددًا خاصًا بعنوان «تحليل الخطاب»[1] بإشراف اثنين من أوائل مستخدمِي هذه العبارة هما جان دوبوا (jean Dubois) وجوزف زومف (Joseph Sumpf)، ثم ظهور كتاب «التحليل الآلي للخطاب» بقلم ميشال بيشو، له الوقع الكبير في فتح آفاق واسعة لتحليل الخطاب بشكل عام والخطاب السّياسي، على الخصوص، من خلال البنيوية والتحليل النفسي. كان العالم يشهد في تلك الفترة تحولات كبيرة، سياسية واجتماعية، بعد الثورة الطلابية الفرنسية ١٩٦٨ وغزو أفكار اليسار والشيوعية.

---

(1) L'analyse du discours, sous la direction de Jean Dubois et Joseph Sumpf. Languages, 4ème année, n°.13, 1969.

آنذاك صدر أيضًا كتاب ميشال فوكو الشهير «L'Archéologie du savoir» (آركيولوجية المعرفة أو البحث الأثري عن المعرفة أو حفريات المعرفة كما يحلو للبعض ترجمته) الذي فتح آفاقًا واسعة في مجال تحليل الخطاب.

ذلك أنّ «فوكو»، وِفْق الدكتور الزواوي بعوره الذي وضع دراسة مهمة حول فلسفته بشأن الخطاب، قد قام «بعملية الانتقال من اللّغة بوصفها إمكانية للاختراق والمقاومة، إلى الخطاب بوصفه سلطة تحكمها آليات المنع، والقسمة، والرفض، وإرادة المعرفة، وترتبط بالممارسات الخطابية وغير الخطابية في التّاريخ وذلك بقصد تشخيص الحاضر تشخيصًا نقديًا»[1].

ناقض «فوكو»، في الكثير من جوانب فلسفته حول الخطاب، البعد اللساني عند «دوبوا وبيشو» في التحليل. فهذا الأخير مثلًا، الذي اعتُبر أحد أهم رواد تحليل النّص في النّصف الثاني من القرن الماضي، نشد في «التحليل الآلي للخطاب» ما يصفه بـ «وصف آلية عمل الأيديولوجيات بشكل عام، والعقبات التي تطرحها هذه الآلية في سياق علم الاجتماع الفعلي»[2].

رأى «فوكو» أنّ تحليل الخطاب يعني «السيطرة على العبارة المنطوقة في السّياق الضيق والفريد لحدوثها، وتحديد شروط

---

(١) الزواوي بعوره، الخطاب، بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو، كراسة ومعجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠١٥، ص ٧.

(2) Niels Helsloot, Tony Hak, la contribution de Michel Pêcheux à l'analyse de discours, Langage et société 2000/1, N°. 91.

وجودها، وتثبيت الحدود، وترابطها مع العبارات المنطوقة الأخرى»، وقد كان للعالِم اللساني الروسي الأصل رومان جاكوبسون (Roman Jacobson)، الذي اعتُبر من أهم منظري التحليل البنيوي للكلام والشعر والفن في أميركا... الفضل الأول في وضع منهج التحليل «التبليغي» للخطاب، حيث وزّع وظيفة التبليغ هذه على ستة عناصر هي «الوظيفة التعبيرية للمرسِل، والوظيفة التبليغية للمتلقي، والوظيفة الاصطلاحية للوضع، والوظيفة السّياقية للمرجع، والوظيفة الاتصالية للقناة، والوظيفة الإصلاحية للخطاب».

إذًا، لقد مرَّ تحليل الخطاب في مراحل كثيرة ومتناقضة عبر تاريخه الحديث. إذ كان من الطبيعي أن يبدأ بالبحث في الجملة نفسها عبر تفكيك الخطاب إلى جمل وعبارات مكتوبة أو ملفوظة؛ ثمّ توجّه لاحقًا نحو الفعل الذي تنتجه الملفوظات وإلى الصّمت الذي لا يظهر في الجمل ولا الملفوظات وصولًا إلى السّياق والمؤثرات النفسية والاجتماعية والتربوية وغيرها. تبين، بالتالي، أنّ حصر التحليل في علم واحد لن يؤدِّي مبتغاه. لذلك رأينا أنّ تحليل الخطاب بشكل عام والخطاب السّياسي على نحو خاص: قد شكّلا ساحة تلتقي عليها العلوم الفلسفية واللسانية والاجتماعية والنفسية والتاريخية وغيرها.

هذا ما قصده شارودو ومينيونو (P. Charaudeau, D. Maingueneau) بقولهما إنّه: «بين علوم الكلام، لم يظهر تحليل الخطاب من فعل مؤسِس، وإنّما نتج من تداخل تطوري من الحركات إلى الفرضيات المختلفة التي ظهرت خلال ستينيات

(القرن العشرين) في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، وكانت تدور حول دراسة إنتاجات ما فوق الجمل، الشفوية أو المكتوبة، والتي كان البحث جاريًا لفهم مغازيها الاجتماعية»[١].

فعبْر عرضهما الشامل لتاريخ التحليل السّياسي في فرنسا، قدَّم الباحثان الفرنسيان معلومات تاريخية وافرة تتعلق بالمدارس التي قامت منذ ستينيات القرن الماضي.

يشرح الكاتبان كيف أنّ الدراسات الأولى للخطاب السّياسي قد «قام بها باحثون لسانيون ومؤرخون عبر منهجية تجمع اللسانية البنيوية مع النظرية الأيديولوجية التي استندت إلى قراءة كتاب كارل ماركس من قِبل الفيلسوف لويس آلتوسر (Altusser L). (من أجل ماركس)، وكذلك من خلال التحليل النفسي لجاك لاكان. وكان الهدف هو بحث العلاقة ما بين الأيديولوجي واللساني، وتفادي حصر الخطاب بتحليل اللّغة وإذابة الخطاب بالإيديولوجي»[٢].

أيضًا نجد شرحًا مفصلًا للمدارس الأوروبية لتحليل الخطاب السّياسي والتأثيرات الأميركية والإنغلوساكسونية فيها، في مقالة للباحث الألماني جوهانس أنغرموللير (Johannes Angermuller) تحت عنوان «تحليل الخطاب في أوروبا[٣]»، وهو إذ يشير تمامًا كما

(1) Maingueneau, D. Présentation, Langages, 1995, n°.117, P. 5.

(2) Charaudeau, P. Maingueneau, D., *Dictionnaire d'analyse du discours,* le seuil, Paris, 2002, P. 201-202

(3) Angermuller Johannes, «L'analyse du discours en Europe», in Bonnafous S. & Temmar M. (éds), *L'analyse du discours en sciences humaines,* Paris, Ophrys, 2007, P.4.

مجمل الدراسات الغربية إلى أنّ مدرسة تحليل الخطاب السّياسي ظهرت في فرنسا - أواسط الستينيات، فإنّما يؤكِّد أيضًا التأثر الكبير والناتج من نظريات «أفعال الكلام» التي أسَّس لها جون أوستن عام ١٩٥٥ في جامعة هارفرد وطورها جون سيرل. وهي النظريات التي نجد صداها عند المنظِّر والفيلسوف الألماني جورغن هابرماس مع «الفعل التواصلي» الذي سعى للجمع ما بين المادية التاريخية لماركس والبراغماتية الأميركية.

أخضعت الدول الغربية دراسة الخطاب السياسي لمدارسَ تكاد تشبه المختبرات العلمية الكبيرة منذ مطلع القرن الماضي، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الجمعية الأميركية للعلوم السياسية (APSA) (١٩٠٣)، والجمعية الدولية للعلوم السّياسية (ISPA) ١٩٤٩، والمدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب السّياسي التي عُرفت اختصارًا بـ AD والتي قامت في أواسط ستينيات القرن العشرين، والمجمع الأوروبي للأبحاث السّياسية (ECPR).

واضح أنّ الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ثمَّ تلك التي شهدت انتشار الأفكار اليسارية والشيوعية منذ منتصف الستينيات ثم الثورة الطلابية في فرنسا والتظاهرات العمالية في العالم والإضرابات وغيرها، هي التي عزّزت الاتجاهات التحليلية عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع. فقد اكتسب الخطاب السّياسي أهمية كبرى في تغيير مسارات أحزاب ودول وشخصيات، كما أنّ الفكر الأدبي تأثر كثيرًا بالفكر السّياسي والعكس صحيح. وصار

الأدباء والفلاسفة والسّياسيون يناقشون أفكارًا سياسية تنتشر في العالم المنقسم ما بين نهجين اثنين: رأسمالي واشتراكي.

راحت مناهج التحليل المختلفة تسعى إلى معرفة التأثير المباشر أو بعيد المدى للخطاب السّياسي في الناس والمجتمع، وفي طرائق التفكير والاتجاهات العامة لسياسات الدول، وتبين أنّ الاكتفاء بتحليل الجمل أو تفكيك النّصوص دون الأخذ في الاعتبار مختلف العوامل الأخرى في التحليل مثل بيئة الخطاب وأهدافه ومكانه وزمانه لا يؤدِّي الغرض المنشود من التحليل.

يقول نورمان فاركلوف (Varklov Norman)، أستاذ اللغة في جامعة لانكاستر البريطانية: «إنّ تحليل النّص هو جزء أساسي من تحليل الخطاب، لكنّ تحليل الخطاب لا يقتصر على التحليل اللساني للنصوص، أرى أنّ تحليل الخطاب يترجّح ما بين التركيز على نصوص معينة والتركيز على ما أسميه نطاق الخطاب (Ordre of Discourse) أي البناء الثابت نسبيًا للغة، والذي يشكِّل مكونًا في بناء الممارسات الاجتماعية والشبكة التي تؤلفها، الثابتين نسبيًا أيضًا؛ ويهتم التحليل النقدي للخطاب بالاستمرارية والتغيير على هذا المستوى الأكثر تجريدًا وبنائية من مستوى النّصوص»[١].

ما يقوله «فاركلوف» يشير بوضوح إلى ميل بعض اللسانيين وعلماء اللّغة إلى اعتبار النّص جزءًا من الخطاب، أي إنّ الخطاب

---

(١) فاركلوف نورمان، تحليل الخطاب، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٩، ص ٣١.

هو أوسع وأشمل وأهم من النّص في ذاته. هذا الجدل حول علاقة النّص والخطاب استمر عقودًا طويلةً بين مدارس مختلفة، اعتبر بعضها النّص أنه هو الأساس ورأى بعضها الآخر أنّ الخطاب هو الأهم. يقول د. عبد النبي هماني، الباحث في اللغويات وتحليل الخطاب: «لقد اختلفت أهداف النظريات النقدية تنظيرًا وممارسة سواء على مستوى الاهتمام بالمعطى التاريخي وسياقاته، أو بالشخصية بكل معطياتها الثقافية والنفسية، أو بالخطاب بمستوياته اللسانية وبنياته الدالة، أو بالمتلقي في علاقته بهذا الخطاب... فمهما كان الاختلاف، يبقى الخطاب في نظري قطب الرحى في كلّ هذه النظريات دون استثناء. فالخطاب كتلة من المستويات اللسانية التي تعكس الفكر والمشاعر والتي تقدم صورة عن ملامح الإبداع وأسراره الباطنة والظاهرة»[1].

هذه الملامح للإبداع والأسرار الباطنة والظاهرة ومقاصد الخطاب هي جوهر تفكيك الخطاب لتحليله. لذلك لم يكن كافيًا الاعتماد على ما تقوله الجمل، أو ما يعكسه النّص بشكله الظاهر؛ فكان لا بدّ من الغوص في ما هو أبعد من النّص، أي ما يتعلق بسياق الخطاب ومكانه وزمانه وعلاقة الملقي بالمتلقّي والمؤثرات الخارجية في النّص المكتوب أو الملفوظ. هذا هو هدف التحليل الذي جعل المدارس تتقارب أو تتنافر حيال الخطاب.

---

(١) هماني عبد النبي، جمالية تحليل الخطاب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٣. ص ٥.

في إحدى محاضراته يقول الباحث والبروفسور اللساني الفرنسي المتخصص بتحليل النّص السّياسي جوليان لونغي: «خلافًا للمجالات الأخرى كالصحافة مثلًا التي تحلل الخطاب السّياسي من خلال مضمونه، فإنّ علوم الكلام تقارب الخطاب من خلال أشكاله اللسانية المستخدمة، أي من خلال معانيه وطبيعة عمله، وتقترح دراسة كيف أنّ الكلمات تستطيع مثلًا أن تمحو أو تضخم حقيقة ما»[١].

لا شكّ في أنّ الفلاسفة والبنيويين واللسانيين وعلماء الاجتماع الفرنسيين قد تركوا أثرًا كبيرًا في تحليل الخطاب من رولان بارت (Roland Barthes) إلى ميشال فوكو (Michel Foucault) إلى كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss) إلى جاك لاكان (Jacques Lacan) إلى مينيونو؛ ودار النقاش الكبير في تلك الفترة حول الخطاب واللّغة والخطاب والنّص والمكتوب والمنطوق، والمنطوق والمسكوت عنه والخطاب والبيئة التي يتحرك فيها، وعلاقة المرسِل بالمتلقّي، وبذاتية التحليل وموضوعيته، والخطاب والإيديولوجيا، والخطاب والسلطة. ركز «فوكو» مثلًا على العلاقة ما بين الخطاب والسلطة، كما رأينا سابقًا، واعتبر أن السلطة هي التي تصنع الخطاب لأنّها توجه العلوم وطرائق التدريس باتجاه يسمح لها بأن تخدم خطابها. فهو إذًا يحدّد العلاقة المعقدة ما بين الخطاب

(1) Longhi Julien http://universiteouverte.u-cergy.fr.analyse-du-discours-politique-au-dela-de-la- langue-deb.

والسلطة فيقول: «إنَّ الخطاب ينقل السلطة وينتجها، يقويها، ولكنه أيضًا يلغمها، يفجّرها، يجعلها هزيلة، ويسمح بإلغائها»[1].

إنّ تحليل الخطاب من منطلق علاقته بالسلطة، يفترض تقاطع علوم كثيرة سياسية واجتماعية ولغوية وثقافية ونفسية وبلاغية ولسانية. هذا في ذاته يعطي أولًا فكرة عن مدى التعقيد في التفكيك والتحليل والوصول إلى نتائج حاسمة أو شبه حاسمة؛ ويعطي ثانيًا مؤشرًا مهمًا على أنّ الخطاب يمكنه التأثير في السّلطة بقدر تأثيرها في الجمهور المستهدف بالخطاب. هذا هو المقصود بالقول إنّ الخطاب قد يحمل في مضمونه عامل تفجيره وانقلابه على السلطة المنتجة له. لنفترض أنّ سياسيًا ألقى خطابًا في لحظة تظاهر وغضب في الشارع، فإنَّ الخطاب قد يساهم في تهدئة الغضب، أو قد يؤدِّي بالغاضبين إلى رفع مستوى التحدي ومهاجمة القصر الرئاسي أو مقر السّياسي وإسقاطه بفعل الشارع. هنا يصبح الخطاب مناهضًا لمنتجه لا بل وعازلًا أو حتى قاتلًا له.

كيف يمكن إذًا معرفة، ليس مقاصد الخطاب فقط وإنّما أيضًا تلك المخاطر التي يمكن أن تترتَّب عليه ضد ملقيه أو ضد جمهور مستقبليه؟ ما الذي يجعل الخطاب ناجحًا أو فاشلًا، وكيف يمكن رصد كلّ مقاصده المعلنة والمضمرة من خلال المنطوق أو المسكوت عنه؟

---

(1) Foucault Michel, *La volonté de savoir,* Gallimard, Paris, 1976, P. 133.

إلى مثل هذه الأسئلة استندت مناهج تحليل الخطاب حين تخطت المنهج اللساني المُقتصِر، في مراحله الأولى، على تفكيك الجمل والعبارات لتصل إلى ما يتخطى تلك الجمل. ولهذه الغاية تأسست في فرنسا مدرسة تحليل الخطاب. كان تأثرها واضحًا آنذاك لدى التيارات التحليلية الأميركية التي تريد تخطّي النّصوص والجمل والانتقال إلى مستوى أعلى من مستوى الجملة.

تزامن الانتشار الواسع والاهتمام الكبير لتحليل الخطاب في فرنسا، مع انتشار إنكلوساكسوني للخطاب في الولايات المتحدة وبريطانيا تحت عنوان «discourse analysis». تم التركيز خصوصًا على مبدأ «التفاعلية» داخل الخطاب الواحد، وكيفية استخدام الخطيب أو المرسِل لهذه التفاعلية بغية التأثير في المتلقّي. ظهرت تيارات مختلفة اجتماعية ولسانية واجتماعية-لسانية خصوصًا مع عالم اللسانيات الأميركي وليم لابوف (William Labov) و«التحليل التحادثي» مع عالم الاجتماع الكندي الأميركي إيرفنغ غوفمان (Erving Goffman) وهارفي سكس (Harvey Sacks) أحد أبرز مؤسسي المدرسة التحادثية التي كانت عنوان أطروحته في جامعة كاليفورنيا عام ١٩٦٦... وغيرهم.

الملاحظ أنّه مع دخول الأفكار الفلسفية واللسانية الإنكلوساكسونية إلى الأوساط الفرنسية، تسارعت خطوات تحليل الخطاب السّياسي باتجاه البحث في المؤثرات الاجتماعية والنفسية والتربوية والبيئية والمعرفية التي تنسج العلاقة الخطابية ما بين الخطيب وجمهوره.

تبين أنّ الجمل في ذاتها تختلف من بيئة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر ومن مناسبة إلى أخرى، وأنّ العوامل الخارجية تؤثر بشكل عضوي في بنية الخطاب نفسه ربما بأكثر ممّا يؤثر الخطاب في محيطه؛ ذلك أنّ المجتمعات غالبًا ما تكون مستندة إلى سُلَّم من القيم والتقاليد والأعراف التي يصعب تغييرها وتعديلها، ويُفضّل الانطلاق منها لإنجاح خطاب وإحداث التأثير المطلوب.

يقول د. محمد شومان: «إنّ النقلة الألسنية الكبيرة في مسائل الخطاب جاءت على يد إميل بنيفنيست (Emile Beneveniste) ١٩٠٢-١٩٦٧... وقد دفعت نظرية الخطاب الباحثين إلى إعادة التفكير في العلاقة ما بين المعنى والبنية الاجتماعية، من خلال التركيز على السلطة من داخل نظام المعنى وليس من خارجه، فنُظم المعنى نفسها تُعتبر سلطة، وهي لا تظهر بسهولة كنُظم مثل بنية اللّغة، بل من خلال ممارسات ذات دلالة»[١].

في الانتقال من التحليل التقليدي للخطاب المستند إلى الجمل وتراكيبها والإشارات وعلاقتها بالنّص، باتجاه تحليل ما يفوق النّص، ظهرت أولى بوادر «أفعال الكلام» أو «أفعال الخطاب» وتطورت بسرعة لافتة. وأثبتت المناهج الجديدة أن لا خطاب بلا أفعال، وأنَّ تحليل الجمل وحدها دون دراسة المؤثرات الخارجية في الخطيب وجمهوره لا يفي مطلقًا حقّ رصد الأفعال التي يريدها الخطيب من جمهوره.

---

(١) شومان محمد، إشكاليات تحليل الخطاب الإعلامي، الحياة، ٢٨/ ٠٥/ ٢٠٠٧، العدد ١٦١٢٤.

٢. أنواع التحليل قبل ظهور أفعال الكلام

كان أول اهتمام غربي بـ«أفعال الكلام» قد ظهر من خلال سلسلة محاضرات قدَّمها الفيلسوف البريطاني جون أوستن (John Austin) في جامعة هارفرد عام ١٩٥٥ تحت عنوان «How to do things with words»[١] بمعنى «ماذا نفعل حين نتكلم». وقد نجح هذا البروفسور الجامعي، الذي خدم أيضًا مع الاستخبارات البريطانية في خلال الحرب العالمية الثانية، نجاحًا باهرًا تخطّى حدود بلاده وأحدث ضجة كبيرة في فرنسا حين نُشرت محاضراته ضمن كتاب أثار جدلًا واسعًا في أوساط اللسانيين والفلاسفة وعلماء الاجتماع في أوروبا بعنوان «حين نتكلم نفعل»[٢]. وقد طوَّر نظريته هذه التي عُرفت لاحقًا باسم أفعال الكلام (Speech Acts)، فصارت «الملفوظات» هي الأجدر بالتحليل، تمامًا كما صار للسّياق والأبعاد النفسية والاجتماعية والأنثروبولوجية وغيرها الأثر الكبير.

ظهرت لاحقًا مناهج تحليلية أخرى أسس لها في سويسرا العالم اللساني إدي روليه (Eddy Roulet) في جامعة نوشاتيل ابتداء من عام ١٩٧١ ثم في جامعة جنيف؛ وقد سعى روليه لتفكيك العلاقة ما بين الخطاب وتموضع المرسِل، وعلاقة المرسِل بالمتلقّي، والأهم هو «إدارة الكلام ما بين المتخاطبين».

---

(1) Searle John, Speech Acts, *An Essay in the philosophy of language.* Cambridge University Press, 1969. P78.

(2) Austin John langshaw, *Quand dire c'est faire,* 1962, trad. fr. réed, Seuil, coll, «points essais», Paris, 1991.

هناك أنواع أخرى أقل شيوعًا ومنها مثلًا: **التحليل المنطقي الجمالي** الذي يبحث في بنية الخطاب والجمل والعبارات وعلاقتها بمؤثرات المعنى وأشكال التواصل التي من خلالها يمكن التعرف أكثر إلى شخصية الخطيب وأهدافه الأيديولوجية. أو **التحليل السيميائي البنيوي** بحيث يتمّ التركيز على الكلمات المستخدمة وأفكار الخطاب وغيرها وما تخفيه خلف العبارات.

لعلَّ المنهجين الأكثر شيوعًا عند محللي الخطاب السِّياسي، هما: الكمي والنوعي. انتشر التحليل الكمي على نحو واسع بفضل مقال لبرنار بيريلسون (Bernard Berelson) الشهير[1]، الذي نشره عام ١٩٥٢ بعنوان «التحليل الكمي للمحتوى في أبحاث الاتصال». وبما أنّ هذا النوع من مناهج التحليل اعتمد على الإحصائيات والأعداد والأرقام في رصد تكرار عدد الكلمات أو العبارات ضمن الخطاب والانتقال إلى معرفة القيم التي تحملها الجمل، فإنّ تطور وسائل الاتصال الحديثة والثورة المعلوماتية التي شهدها العالم ابتداء من العقد الأخير من القرن العشرين، قد أضافا إلى التحليل الكمي أبعادًا أكثر دقة، وصارت احتمالات الخطأ أقل. وراح التحليل الكمي يقدم مادة أكثر وضوحًا ودقة **للتحليل النوعي** الذي يحلِّل هذه المعطيات والإحصائيات لرصد التوجهات العامة وأهداف الخطاب. وانتشرت عشرات البرامج المعلوماتية الحديثة التي أسست لمدرسة مهمة من التحليل الكمي والنوعي.

---

(١) برنار بيريلسون (١٩١٢-١٩٧٩) باحث أميركي اشتهر بأبحاثه ودراساته حول تحليل الخطاب الإعلامي.

ومع ذلك، بقي هذان النوعان من التحليل قاصرين عن تقديم رصد علمي للخطاب بلا أخطاء؛ فمثلًا لو أنّ الخطيب اعتمد الصّمت في خطابه، فإنّ الآلة أي البرنامج المعلوماتي عبر الحاسوب، لا تستطيع رصد ذلك، وبالتالي فإنّ الاعتماد على أرقامها لا يفي بالغرض. من هنا ظهرت اتجاهات عامة في مناهج الخطاب تقول بضرورة جمع عدد من العلوم والمناهج، وليس حصرها بمنهج أو علم واحد، بغية تقديم تحليل أدق للخطاب من جوانبه الداخلية والخارجية كافة.

اعتبر بيريلسون، حسبما نقلت عنه مادليني غرافيتر (Madeleine Grawitz) أنّ تحليل الخطاب هو: «تقنية بحث لوصف موضوعي ومنظم وكمي لمضمون ظاهر لمحادثات تواصلية يكون هدفه تفسيرها»[1].

استنادًا إلى مساهمات «بيريلسون» وآخرين: سادت تقاليد التحليل الكمي، وأصبحت جزءًا من التقاليد البحثية في حقل الدراسات الإعلامية، بينما اختفت أو غُيبت الدراسات الكيفية واتهمت بالتحيز والبعد عن الموضوعية...

في التعريفات المختصرة يمكن القول إنّ **التحليل الكمي**: هو النظر إلى «المرات التي تتكرر فيها خصائص المضمون والعلاقات بعضها مع بعض»[2].

---

(1) Grawitz Madeleine, *Méthodes des sciences sociales,* Dalloz, paris, 1996, P. 551.

(2) Quivy Raymond et Campenhoudt Luc Van, *Manuel de recherche en sciences sociales,* Dunod, Paris, 1997, P. 231

وهنا الخصائص قد تعني الكلمات والعبارات والاستطرادات والأدوات اللغوية المؤكِّدة أو النافية والأفعال والأسماء وغيرها ممَّا يتضمَّنه النّص الخطابي. مثلًا أن نحصي كم مرَّة استخدم الأسد كلمة «الجيش» خلال شرحه للمعركة المقبلة، وكم مرة استخدم كلمة «إصلاحات» أو «مفاوضات» أو «حوار» لنكتشف هل هو يميل إلى الحسم العسكري أم إلى الحلول السّياسية.

أمّا التحليل النوعي: فهو يرصد الاتجاهات العامة والمقاصد والقيم الظاهرة أو الباطنة للخطاب من خلال العبارات والكلمات وغيرها كما أنّه يستند إلى «وجود أو غياب خصائص معينة أو الطريقة التي ترتبط فيها عناصر الخطاب بعضها ببعض»[1].

على أنّ سيادة مناهج وأدوات التحليل الكمي وهيمنتها لم تمنع ظهور كثير من الانتقادات التي انصبّت على شكلية وعدم موضوعية فئات تحليل المضمون الكمي، التي تدّعي، بدون أساس علمي، الدقة والموضوعية، وتنزع إلى تفتيت النّص، وتحويله إلى مجرد أرقام وبيانات إحصائية لا تكشف عن معناه أو المعاني التي يحملها. إنّ التحليل الكمي خلافًا للتحليل الكيفي يهمل سياق النّص وعلاقات القوى داخله ومنظور الفاعل، فضلًا عن عدم الاكتراث للمعاني الضمنية أو غير الظاهرة.

نلاحظ أنَّ من نظّر أصلًا إلى التحليل الكمي، عاد هو نفسه ليشرح بعض جوانب قصوره عن توفير نتائج موضوعية لمضمون الخطاب السّياسي؛ فهذا مثلًا الباحث الفرنسي روجيه موتشيللي

(1) Ibid.

يقول: «إنّ التحليل الكمي الذي ينبغي أن يُفضي إلى حسابات إحصائية وقياسات وتقييمات دقيقة إلى حدّ كبير، لا يشكل في ذاته غاية أو نتيجة وإنّما هو مرحلة للوصول إلى تلك الغاية، وهذا هو الواقع المؤسف في معظم الحالات»[1].

تعدّدت الدراسات التي سعت إلى معرفة مدى دقة التحليلين الكمي والنوعي في كشف حقيقة مقاصد الخطاب السّياسي، وهل يتناقضان أم يتكاملان، واختلفت المدارس بين من يعتبر أنّهما متكاملان بحيث يُفترض أن يكون التحليل النوعي مسبوقًا بالكمي، وبين قائل بأنّ الأول قد يضلّل الثاني. ثم ظهر في تلك الفترة منهج مهم وجديد عرف باسم «التحليل الآلي» (أو الأوتوماتيكي حسب اسمه الأصلي) الذي وضعه ميشال بيشو (Michel Pêcheux) (قد أشرنا إليه أعلاه) كان القصد منه: وضع برنامج يستطيع تحليل الخطاب من الناحية الكمية وصولًا إلى أقصى درجة من الموضوعية في معرفة مقاصد الخطيب.

كان هدف «بيشو» هو الوصول إلى أقصى درجات الموضوعية في التحليل من خلال إبعاد النّص عن بيئة وأهواء وإيديولوجيا من يحلّله وعن العوامل المؤثرة فيه. أي أن «يعمل المسار الموضوعي بنفسه، وذلك بهدف الإفلات من المسلّمات الذاتية للقراءة بغية إظهار آثار تلك البنية الكامنة خلف النّص موضوع الدراسة»[2].

(1) Mucchielli Roger, *L'analyse de contenu,* Esf, collection formation permanente, Paris, 1974, P. 17.

(2) Charaudeau Patrick, *La conquête du pouvoir,* L'Harmattan, Paris, 2013, P. 17.

اعتقد «بيشو» وغيره من الذين سعوا لتطوير هذا المنهج الآلي في تحليل النّص، أنّ البرامج الآلية يمكنها التخفيف من الذاتية والنّحو صوب موضوعية أكثر. وكان لافتًا أنّ «بيشو» الماركسي الاتجاه سعى إلى هذا المنهج منذ أواخر الستينيات وتحديدًا عام ١٩٦٩ حين طرح نظريته التي قوبلت بالكثير من الجدل. ومع سعيه لإظهار الذاتية في التحليل، عرض «بيشو» نصًا اقتصاديًا على طلابه، وقسمهم قسمين، قال للقسم الأول بينهم إنّ الخطاب يساري، وقال للثاني إنّ الخطاب يميني، وتبين له بعد قراءة التحليلات أنّ: كلّ فئة حللته من وجهة نظرها السّياسية أو من التأثيرات الخارجية المسبقة في وجهة النظر هذه. أدرك إذًا أنّ التحليل يخضع لعوامل الذاتية والتربية والإيديولوجيا والطبقية الاجتماعية وغيرها، ويبتعد بالتالي عن الموضوعية الصرفة أو المطلقة إلى حدّ كبير.

لكن حتى هذا المنهج في التحليل الآلي، الذي نرى منه الكثير اليوم من خلال الانتشار الهائل للمعلوماتية وبرامج التحليل عبر الكومبيوتر، والتي ترصد عدد تكرار كلمات معينة في خطاب مثلًا، كما ترصد الاتجاهات العامة للخطاب، قد خضع هو الآخر للنقد، ذلك أنّ من وضع البرنامج قد حمّله طرائق في البحث تتناسب مع طريقة تفكيره هو في مكان ما؛ ثم إنّ هذه الطرائق لا تستطيع رصد «المسكوت عنه» في الخطاب، وليست قادرة على معرفة أساليب التمويه والاحتيال وربما الكذب في الخطاب، وما يصلح في لغة قد لا يتفق مع لغة ثانية، نظرًا إلى تشعبات البلاغة والقواعد وغيرها، وبقدر ما يتمّ تحميل الحاسوب احتمالات بقدر ما ينجح في رصد

المقاصد... لذلك فإنّ هذا التحليل يخضع، أكثر من كلّ ما سبقه، للتطور الهائل واليومي لعلوم البرمجيات وللحواسب الآلية.

في تسليطه الضوء على عجز الآلة عن الوصول إلى تحليل موضوعي عبر الإحصائيات وعدد الكلمات وترديدها في الجمل وترديد العبارات في النّص، يقول «باتريك شارودو»: «إنّ حجم استخدام الكلمات هو مؤشر على شيء ما، لكنّ هذا الشيء ليس واضحًا وينبغي تفسيره. لأنّه توجد الكلمات وما خلف الكلمات، وما خلف الكلمات يتعلق بالشروط التي قيلت الكلمات في خلالها»[1].

فكيف يمكن لتحليل آلي أو كمي معرفة أو كشف إستراتيجية وأساليب التضليل التي يعتمدها السّياسي في التورية أو الصّمت أو الكذب أو تقديم أضاليل على أنّها حقائق؟. هذا مستحيل إذا ما عرفنا أنّ التلاعب بالمعلومات وتوظيفها لمصلحة رجل السّياسة أو مشروعه هما في صلب السّياسة منذ القدم. ثم إنّ منهج التحليل النوعي نفسه، الذي يحلل المقاصد انطلاقًا من الإحصائيات التي يقدمها التحليل الكمي، يبقى هو الآخر عاجزًا وحده عن تقديم صورة كاملة عن الأهداف المعلنة أو الكامنة في الخطاب.

بالرغم من هنات هذا النوع من التحليل المُسْتنِد إلى جمع المعلومات والمقابلات والإحصائيات وتحليلها وبناء نظريات

---

(1) Michel Pêcheux, "Présentation de l'analyse automatique du discours", Mots, Volume 4, n°1, P. 95.

وتوجهات عامة ورصد مقاصد وأهداف من خلالها، إلّا أنّ التطور الكبير في مجال التحليل الآلي عبر الكومبيوتر يتوجه أكثر فأكثر صوب وضع أسس أكثر دقة من السابق في هذا المجال. كما أنّ التحليل الآلي بات يوفر إمكانيات هائلة للتحليل، ويقلص ساعات عمل طويلة كان الباحث يضطر إلى قضائها في إحصاء مكونات النصوص الخطابية لتحليل الخطاب.

توجد اليوم برامج كثيرة للتحليل الكمي والنوعي الآلي ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر الآتي:

- MaxQDA (www.maxqda.com/).
- NVivo (www.qsrinternational.com/).
- Qualrus (http://www.qualrus.com/).
- ATLAS. ti (www.atlasti.com).
- Ethnograph (www.qualisresearch.com).
- HyperResearch (www.researchware.com/).
- QDA Miner (www.provalisresearch.com/).
- TAMS Analyzer (tamsys.sourceforge.net/).
- Weft QDA (www.pressure.to/qda/).
- SPSS.
- MS Word, count and frequency statistics software.

إن التحليل البراغماتي الذي نستند فيه إلى فعل الخطاب وفق البراغماتية اللسانية، لا يكتفي برصد الكلمات وتوجهاتها وإنّما يدخل إلى صلب مقاصد السّياسي -الخطيب من خلال أفعال

خطابه، وهي التي لا تظهر فقط من خلال الجمل. وقد يتبين لنا مثلًا أنّ بعض عبارات الخطاب التي يعرضها السّياسي على أنّها حقائق مطلقة حتى ولو كانت مقرونة بالحجج والذرائع والأرقام. قد يكون المقصود منها أفعالًا خطابية مخالفة تمامًا، ذلك أنّ السّياسي لن يعدم وسيلة إلّا يستخدمها لدفع متلقيه إلى تبني ما يقوله على أنّه الحقيقة الواجب مساندتها.

إنّ التحليل البراغماتي للخطاب من خلال أفعال الكلام، يهدف إذًا إلى تفكيك تلك الأضاليل المقدمة بشكل حقائق، آخذًا في الاعتبار ليس البعد اللساني أو الأسلوب البلاغي ولا المضمون الظاهر للجمل فقط، وإنّما هو - التحليل - يتوسع إلى مجموعة من المؤثرات الأخرى التي تربط الخطيب بخطابه، وتربطه بجمهوره في سياق سعيه للتأثير فيه.

يشير د. محمد شومان في كتابه عن تحليل الخطاب، إلى التعقيدات الكامنة في فهم مقاصد الأهداف السّياسية وفي تحليلها، ذلك أنّ السّياسي الذي يُنتج الخطاب يتفنن في إمرار أفكاره بطرائق مختلفة لكي يُظهر ما يريد إظهاره منها. فهو يقول بأنّ المفكر السّياسي الذي لا يستطيع قول الأمور بصراحة «يلجأ إلى أساليب ملتوية أساسها أنّ ما يقوله ينبغي فهمُه من خلال مراحل متتابعة: تعبيرات لفظية تعبر عن مفاهيم، مفاهيم تستتر خلف التعبيرات اللفظية لا تفهم إلّا من خلال تجرد معين. ثم هو - المفكر السياسي - يصل إلى حد الإبداع عندما يقدّم إطارًا يوجِده الترسيب الذهني للمفاهيم والنماذج لا يستطيع أن يلمسه

الباحث من خلال القراءة المعتادة، مهما كانت متأنية، وإنّما عليه أن يصل إليه من خلال عمليات فكرية متنوعة أساسها ليس التجرد فحسب، بل وربط المفاهيم والوقائع بدلالاتها الخفية الحقيقية[1]».

يتبين إذًا أنّ التحليل العلمي والموضوعي المجرد للخطاب السّياسي مستحيل؛ فمن يحلّل قد يقع في فخاخ «الانتقائية» و«المنظور الشخصي»، وسوف يتأثر لا شكّ ببيئته وأيديولوجيته وحالته النفسية، ذلك أنّ محلّل الخطاب هو تمامًا كالخطيب والمتلقي يخضع لعوامل اجتماعية وبيئية ونفسية وتربوية وزمنية ومكانية تجعل من المستحيل أن يصل إلى نتيجة موضوعية مجردة لأي خطاب حتى ولو استخدم التكنولوجيا العلمية.

إنّ تحليل الخطاب السّياسي هو أهم من مجرد آلة تحسب عدد تكرار الكلمات والأفكار، وأعمق من اقتصاره على معالجة الجملة، وأشمل من اكتفائه برصد أهداف المنطوق؛ إنّها علاقة معقدة تختلط فيها العوامل الاجتماعية والنفسية والأيديولوجية والتاريخية والتربوية والجغرافية. ويجب معرفة كلّ هذه العوامل لرصد مغازي وأهداف صاحب السلطة أو رجل السّياسة أو الخطيب السّياسي بعيدًا عن نص الخطاب السّياسي في ذاته.

---

(١) شومان محمد، إشكاليات تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية العربية، الدراسات المصرية نموذجًا، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة المنيا، نيسان/ أبريل ٢٠٠٤.

يقودنا هذا إلى طرح جملة من الأسئلة حول التحليل، منها مثلًا: ما الذي يميز التحليل الصحافي للخطاب السّياسي من التحليل اللساني أو النفسي أو الاجتماعي أو العلمي؟ ومنها أيضًا: ما الذي يؤكّد أنّ العوامل الشخصية للذي يقوم بتحليل الخطاب، لا تلعب دورًا في كيفية تحليله حتى ولو اعتمد على أدوات تحليلية موثوق بها ومتعارف عليها؟ فلنفترض أنّ ثمة باحثَين اثنين لديهما الاختصاص نفسه في التحليل، أحدهما معارض والثاني موالٍ: هل سيكون تحليلهما لخطاب الملك سلمان متشابهًا إلى حدّ التطابق؟ ولنفترض أنّ باحثين آخرين لديهما الاختصاص نفسه، أحدهما يتمتع برغد العيش والثاني بالكاد يستطيع العيش من راتبه التعليمي أو التربوي، فهل سيكون تحليلهما متشابهًا إلى حدّ التطابق؟

الجواب المنطقي المباشر: لا. فالعوامل الاجتماعية والنفسية والسّياسية تلعب دورًا لم يُغْفِله أهل الاختصاص، وهذا ما يصعب تفاديه في أي تحليل لأي خطاب؛ ذلك أن لا موضوعية علمية وبحثية مطلقة في أي علم، فكيف إذا تعلق الأمر بالعلوم الإنسانية أو الاجتماعية؟.

دافع بعض علماء تحليل الخطاب عن فكرة المزج ما بين المناهج المختلفة لاستخلاص تحليل أقرب إلى الموضوعية (على اعتبار أنّ الموضوعية المطلقة غير موجودة في أي علم تقريبًا). قالوا إنّه من المفيد حتى ولو اعتمدنا نظرية أو منهجًا أو طريقة واحدة أساسًا للتحليل على غرار البراغماتية مثلًا، التي نعمل عليها في هذه

الأطروحة؛ فمن الأفضل أن نأخذ أيضًا من المناهج الأخرى التي يتكامل الكثير منها في أماكن مختلفة.

هذا بالضبط ما تقوله كاترين كربرات أوركيوني (Kerbrat-Orecchioni Catherine) الباحثة والبروفسورة الفرنسية في علم اللسانيات حول ضرورة «تنويع زوايا المقاربة والاعتماد على معدات تحليلية من مصادر مختلفة[1]»، وهو ما يشير إليه أيضًا «مينغونو» بقوله: «كما أنّ تحليل الخطاب هو تقاطع للعلوم الإنسانية، فهو يخضع لعدم استقرار كبير. فهناك محللون للخطاب توجهوا أكثر صوب السوسيولوجيا، وآخرون صوب السيكولوجيا الاجتماعية أو التاريخ... الخ. يضاف إلى هذا التقسيم، اختلافات أخرى ما بين مختلف التيارات، فمثلًا في الولايات المتحدة الأميركية كانت المراحل الأولى لتحليل الخطاب متأثرة بالأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، بينما في فرنسا تطورت منذ الستينيات التيارات اللسانية التي تأثرت كثيرًا بالتاريخ والفلسفة والتحليل النفسي»[2].

إنّ أبرز مناهج التحليل التي أثبتت نجاعة جزئية أو كبيرة في معرفة مقاصد الخطاب هي: التحليل الكمي والنوعي، اللساني والبنيوي، التحليل الآلي - أي النوعي- والنفسي، الفلسفي والاجتماعي،

---

(1) Kerbrat-Orecchioni Catherine, *L'analyse du discours en interaction: quelques principes méthodologiques*. Université de Lyon, 2007.

(2) Maingueneau, Dominique, *Les termes clés de l'analyse du discours, Seuil, Paris,* 2009, P. 19.

الأنثروبولوجي والبراغماتي. أمّا في دراستنا هذه فسنعتمد المنهج البراغماتي في التحليل (والذي سنشرح لاحقًا سبب اعتمادنا له)، وسنستند أيضًا إلى بعض المناهج السّابقة الأخرى خصوصًا حين ننتقل إلى مرحلة استخلاص «أفعال» الخطاب التي نعتقد بأنّها تشكّل بيئة خصبة لكل المؤثرات الاجتماعية والعلمية والنفسية وغيرها في العلاقة ما بين الخطيب وجمهوره. فمن خلال «أفعال الخطاب» ندرك الكثير من كنه المسكوت عنه وليس فقط الملفوظ والمعلن.

انطلاقًا من كلّ ما سبق، يمكننا تقديم تعريف خاصٍ بنا لتحليل الخطاب على النحو التالي: «**هو تفكيك الخطاب إلى كلمات وجمل ومقاطع، وتحليلها أولًا عبر المضمون واللّغة والأسلوب والبلاغة؛ ثانيًا من خلال المؤثرات الاجتماعية والنفسية والثقافية والبيئية والفكرية؛ ثالثًا من ناحية العلاقة ما بين الخطيب والمخاطب؛ رابعًا من زاوية الأبعاد الزمانية والمكانية، وذلك بغية استخلاص أفعال الخطاب التي يراد لها أن تخدم مقاصد الخطيب. ويتطلب هذا العمل/ التفكيك عدم اقتصار التحليل على الملفوظ والجمل وإنّما تحليل ما يتخطى الجمل والملفوظات**».

نعتقد أنّ تحليل خطاب الرئيس ترامب يحتاج إلى اعتماد مجموعة من المجالات الاجتماعية والنفسية والسّياسية والثقافية والحضارية والدينية، لرصد أبرز أفعال الخطاب الرئاسي. هذا أيضًا يفترض، وقبل تحليل الخطاب، التوقف عند الشخص الذي نحلّل خطابه من حيث: بيئته وأيديولوجيته وتربيته وطريقة تفكيره والثوابت والمتحولات في خطابه. وهو ما سنراه في الأقسام اللاحقة.

القسم الثاني

سياق الخطاب السّياسي

المؤثرات الاجتماعية والأيديولوجية
والنفسية والمسكوت عنه

بيئة الخطاب
والعلاقة ما بين المرسِل والمتلقي

إنّ المشتركات الاجتماعية والثقافية والدينية قديمة قدم البلد الذي يتحدث فيه وعنه الخطيب السّياسي، لكنها قد تكون مستجدة وطارئة. هنا أيضًا لا يمكن للطارئ أن يأخذ أبعاده السّياسية ويُحدث الصدمة المفيدة للخطيب ونهجه وسياسته، ما لم يستند إلى إطار عام من الموروثات السّياسية والأمنية والدينية وغيرها.

فحين يقول الرئيس السوري بشار الأسد، مثلًا: «لقد دخل شارون إلى باحة المسجد الأقصى ليس محبة بنا ولا بالسياحة بل لكي يقول لكلّ فلسطيني ولكلّ عربي ولكلّ مسلم إنّه يحتقر كلّ شعائرنا ومشاعرنا ومقدساتنا ومعتقداتنا»[1]، فهذا يعني أنَّ متلقّينه يعرفون تمامًا ماذا فعل رئيس الوزراء الإسرائيلي، ويشاركون الأسد في القيمة الدينية للمسجد الأقصى والموروث الإيماني والديني والثقافي، ما يعني بالتّالي أنهم سيتفاعلون معه.

---

(١) الأسد بشار، خطاب أمام مؤتمر القمة العربية غير العادية، القاهرة، ٢١ تشرين الثاني ٢٠٠٠.

لنفترض أنّ الأسد قال هذا الكلام أمام الكونغرس الأميركي، فهذا سيعطي نتيجة معاكسة تمامًا لما يريده الرئيس، وسيصبح خطابه قاتلًا لهدفه الأميركي. هذا يعني أنّ الإطار الخارجي للخطاب قد يكون مساندًا أو قاتلًا، وهنا يدخل عاملا الجغرافيا والزمن. فلو قال الأسد هذا الكلام بعد خمس سنوات على دخول شارون إلى حرم المسجد الأقصى لن يكون تأثير خطابه مشابهًا للذي يُحدثه حين يُلقَى فور تلك الحادثة التي أشعلت الانتفاضة الفلسطينية.

في تناولها للمؤثرات الخارجية في مضمون الخطاب السّياسي، تتوقف الباحثة الفرنسية المتخصصة في تحليل علم النفس ماري فرانس غرنشبون (Marie - France Grinschpoun) عند التالي: «العائلة، المؤثرات الثقافية والاجتماعية الثقافية، والمؤثرات المدرسية والتربوية، والمؤثرات الإعلامية والدينية والاقتصادية والمالية، والصداقات والتاريخ المشترك، ومؤثرات الشخصية المعيشة من حيث التجارب الشخصية التي تؤثر في الأنا، والمؤثرات المهنية»[1].

هذه العوامل تحدّد جزءًا كبيرًا من الإطار الخارجي للخطاب، تمامًا كما تحدّد الكثير من أسس العلاقة ما بين الملقي والمتلقّي. نلمس هذا الأمر على نحو واضح خلال بحثنا عن المؤثرات العائلية والتربوية والثقافية والأيديولوجية التي قوْلبت خطاب الرئيس بشار الأسد. إنّ نشأته في مناخ عائلي بعثي وكونه ابن حافظ

(1) Grinschpoun Marie-France, *L'analyse de discours,* Enrick Edti-tions, Paris, 2013, P.P. 26 – 27 – 28.

الأسد ودراسته في مدارس أجنبية ثم مغادرته إلى بريطانيا لإكمال الدراسة... إلخ، كلّ هذه العوامل وغيرها جعلت خطابه السّياسي، عن عمد أو عن غير قصد، يتأثر تأثرًا واضحًا بكلّ هذا.

نرى هذه المؤثرات مثلًا منذ خطابه بعد توليه الرئاسة، أو ما يعرف بخطاب القسم. فهو يستهل خطابه بالموروث الديني قائلًا: «أستهل كلمتي بالتوجه بالحمد والشكر لله العلي القدير أن شدّ أزرنا في هذا البلد الصامد»[1] ثم يطوره بالموروث الأيديولوجي والسّياسي: «استطاع القائد الأسد خلال العقود الثلاثة الأخيرة وضع إستراتيجية عامة تلبي الحاجات المختلفة للتطوير المنشود والذي شمل مختلف القطاعات؛ وقد برهنت الإستراتيجية السّياسية التي وضعها وأشرف على تنفيذها ومتابعتها وتطويرها عن نجاحها الكبير حتى يومنا هذا»[2].

نلاحظ هنا أنّ الخطاب السّياسي لا يرتبط بالشخص الذي يلقيه، خلافًا لبعض التعريفات السابقة فقط، وإنّما بلحظته وبيئته وموروثاته المتعددة وإطاره العام وزمانه ومكانه؛ فماذا لو أن ضابطًا كبيرًا هو الذي يلقي الخطاب السّياسي مثلًا؟ هل سنسميه خطابًا عسكريًا أو سياسيًّا؟ هنا تلعب المؤثرات الخارجية الدور الأكبر ويصبح للإطار العام تأثيره المباشرة في الخطاب. إنّ الضابط نفسه الذي كان يلقي

---

(١) الأسد بشار، خطاب القسم في الجلسة الاستثنائية لمجلس الشّعب، ١٧/ ٠٧/ ٢٠٠٠.

(٢) الأسد بشار، خطاب القسم، ٢٠٠٠، المرجع نفسه.

خطابًا أمام جنوده للذهاب إلى معركة يستخدم عبارات مختلفة تمامًا في مضمونها وشكلها ومرجعياتها عن تلك التي سنراها في خطابه حين تولى منصِبًا سياسيًا أو رئاسة البلاد.

تتقاطع في الخطاب السياسي، كما رأينا سابقًا، مجموعة من العلوم السّياسية والنفسية والاجتماعية والأيديولوجية والتاريخية واللسّانية (والدينية في الكثير من المرات)، ولذلك فإنّ حصر تحليل الخطاب السّياسي بعوامل اللّغة والمضمون يؤدِّي إلى خلل فادح وفاضح في سبر حقيقة ما يريده رجل السّياسة. من هنا جاء الاهتمام بتحليل بيئة الخطاب ومؤثراته الخارجية وعلاقة المُرسِل بالمتلقي. نقصد بالبيئة، السّياق العام والمؤثرات الخارجية والزمان والمكان.

لعل سبب عجز بعض المدارس التحليلية السّابقة عن فهم كلّ الأهداف المعلنة أو المسكوت عنها في الخطابات السّياسية، كان غرقها في التحليل البلاغي واللساني وتراكيب الجمل وعلاقة الجمل بعضها ببعض، متغاضية إلى حدّ ما عن الجوانب الأخرى الخارجية والمتعلقة بالإطار العام للخطاب.

في الخطاب السّياسي، عوامل تحدّده وتقوْلبه وتفرض عليه لغة وشكلًا ومضمونًا، بقدر ما يتطلب المضمون إطارًا مناسبًا لكي يُقنع ويؤثر ويفرض هو الآخر شروطه. هذه العلاقة ما بين المضمون والشكل والسّياق لا يمكن أن تنفصم عراها لأن غير ذلك يُضعف الخطاب، وهذا ما سنراه بوضوح في تحليلنا لخطاب الرئيس بشار الأسد.

ومن بين هذه العوامل ما فوق اللسانية أو اللغوية مثلًا: «الأخذ

في الاعتبار الحالة العامة للمجتمع، والاهتمام بآثار تراثه وبالثقافة السّياسية في لحظة معينة وبسُلَّم القيم المعمول بها دون نسيان المشاعر العامة المتداخلة خلال صياغة أو استقبال الخطابات ذات الطبيعة السّياسية. إنّ الطبيعة نفسها للخطاب هي التي تجبرنا على إعطاء الأولوية أيضًا لأطر كبيرة الأهمية ومنها مثلًا: المجتمع وتفككه، والأوضاع التاريخية، ورهانات السّلطة، والثقافة وأسسها والمشاريع الجماعية والمشاعر المشتركة أو تلك المثيرة للجدل»[1].

في خطاب الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي مثلًا، أثناء الثورة الثانية التي وصفها خصومه بالانقلاب العسكري، سنجد الكثير من الانتقادات اللاذعة للإخوان المسلمين وغيرهم من الحركات الإسلامية والتكفيرية والإرهابية. لكن، وبعد سعيه لتفنيد حججهم ووصفهم بالإرهاب، وظّف السيسي عبارات إسلامية أو دينية ليفصل بين الدين من جهة واستخدامه من جهة أخرى. اكتسب الأمر أهمية خاصة في لحظة مفصلية من تاريخ مصر حيث اختلطت الأسباب الأيديولوجية بالإرهاب، وذلك فيما كان خصومه يرفعون شعار الدين لإسقاطه ويكفّرونه. لم يكن ممكنًا التغاضي إذًا عن هذا السّياق الذي يدور فيه الخطاب أثناء تلك اللحظة التاريخية في خلال إنتاج الخطاب أو إلقائه.

كان السيسي بهذا المعنى يقترب من «الخطابة الوعظية» التي

---

(1) Alexandre Dorna, *Les effets langagiers du discours politique,* CEPSP. Université de Caen, p24.

ذكرها أرسطو. يقول د. محمد العمري: «قام الواعظ في أول الأمر على المزاوجة بين الوعد والوعيد كما هو الشأن في بعض مواعظ علي بن أبي طالب الذي يُذكِّر بعذاب الآخرة حتى إذا رأى تغير أحوال مستمعيه وخوفهم ذكّرهم بالنعيم»[1].

سوف نرى في هذا الكتاب، أنّ المنهج التحليلي المعروف باسم «التحليل البراغماتي» يأخذ كثيرًا في الاعتبار هذا الإطار العام أو السّياق العام للخطاب، بحيث يعتبر أنّ ذلك يحدّد الكثير من شروط نجاح أو فشل «فعل الخطاب».

مهما كان هدف السّياسي نبيلًا، فإنّ السمة الطاغية للعلاقة ما بين رجل السّياسة وجمهوره تعتمد على استخدام إستراتيجيات عديدة للتأثير فيه حتى ولو كان ينشد من خلال التأثير الدفاع عن قضية غير عادلة. لا بدّ لهذه الإستراتيجيات من الاعتماد على كمٍّ كبير من موروثات ومشتركات وعوامل خارجية (عن وعي من قبل الخطيب أو في لاوعيه)، وتطويرها عبر وسائل التأثير الحديثة، أو الأحرى تطويعها عبر هذه الوسائل كي تخدم السّياسي -الخطاب.

لكنّنا مع ذلك نطرح السّؤال التالي: هل تتعلق شروط الخطاب الناجح من حيث التأثير في الجمهور بالتوافق الضمني ما بين السّياسي وجمهوره حيال القواسم المشتركة والموروثات والبيئة فقط؟

بالطبع لا، فلنفترض مثلًا أنَّ الرئيس الأميركي باراك أوباما،

---

(١) العمري محمد، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٠، ص ٤٤.

ابن البيئة المختلفة تمامًا عن بيئة سوريا وأريافها ومزارعيها، قد ألقى خطابًا أكدّ فيه أنّه سيضرب سوريا لإطاحة نظام الأسد وتحسين شروط السّوريين ونشر الديمقراطية ورفع مستوى حياة الناس. هل يُحدث الأمر تأثيرًا؟ فهنا نحن أمام رئيس يتحدث لغة أخرى، وينتمي إلى بيئة وتربية وأيديولوجيا مختلفة عن تلك التي تحكم الجمهور الذي يتوجه إليه بخطابه. لكننا نجزم أنَّ خطابه قد يكون أكثر تأثيرًا في لحظة ما من خطاب الأسد نفسه. هذا يفترض هنا أيضًا معرفة أوباما بالبيئة السورية وبالذرائع والحجج الخطابية التي ستؤثر في هذه البيئة وتدفعها للتحرك ضدّ النظام.

يقول أرسطو: «في الخطابة المشاورية... ليس من الضروري أن ننظر كيف نجعل الخطبة نفسها برهانية ومقنعة فقط، بل من الضروري أيضًا أن يُظهر الخطيب نفسه أنّه على خلق معين، وأن يعرف كيف يضع القاضي في حالة نفسية معينة... وفي الخطابة المشاورية (القضائية) يجب أن يبدو الخطيب مالكًا لبعض الخصال المعينة، وأن يظن السامعون أنّه متهيئ على نحو ما تجاههم، وأيضًا أن يكونوا مهيئين على نحو معين»[1].

يبدو واضحًا من خلال رأي أرسطو هذا، أن للخطيب أهمية تلازم وربّما تفوق أهمية الخطاب نفسه، وهذا يتطلب خصالًا وأخلاقًا (في عهد أرسطو) وفي عصرنا الحالي، أو اصطناعًا لهذه الأخلاق من

---

(١) طاليس، أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، دار بيلون، باريس، ٢٠١١، ص ١٠٢.

خلال تقديم صورة زاهية في العصر الحديث عبر الطرائق العصرية من تظهير الصورة على أفضل نحو بالتدريب والتقنيات وغيرها. هذه الخصال متعلقة بالبيئة والموروثات وتتغير من مجتمع إلى آخر.

ما تقدم يدفعنا إلى الاستنتاج أن من أبرز شروط نجاح الخطاب أن يأخذ في الاعتبار بيئة المتلقي وظروف حياته وموروثاته وعاداته وتقاليده. يكفي أن يستخدم الرئيس أوباما في خطابه في جامعة القاهرة عام ٢٠٠٩ عبارة «السلام عليكم» ثم يضيف: «إنه لمن دواعي شرفي أن أزور مدينة القاهرة الأزلية حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للغاية إحداهما مؤسّسة الأزهر الذي بقي لأكثر من ألف سنة منارة العلوم الإسلامية، في حين كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر»[١]. يكفي أن يقول هذا كي يثير في أذهان سامعيه وقلوبهم كلّ الموروث الديني والحضاري والثقافي الذي يقرّب الخطيب من المخاطب. هذا يفترض إذًا أن يكون الخطيب مدركًا سلفًا بيئة من يتوجه إليه وموروثاته وتقاليده وعاداته.

إن الكتاب الذي صدر عام ٢٠٠١ بعنوان «عبيد الأعصاب»[٢] لمؤلفيه ماركو ديللا لونا وباولو تشيوني (Marco Della Luna et Paolo Cioni) يلخّص الأساليب الجديدة التي تعتمدها السلطات

(١) أوباما باراك، خطاب جامعة القاهرة، نشرته تلفزة CNN في ٠٤/ ٠٧/ ٢٠٠٩.

(2) Della Luna Marco et Cioni Paolo, *Neuro-Esclaves,* traduit en français par Françoise Vital, Nicoletta Forcheri, Marylène Di Stefano, Marco Edition. Rome, 2011, P. 32.

في العالم، خصوصًا منذ بداية القرن الحالي، عبر الوسائل النفسية والإلكترونية للسيطرة على الرأي العام بغية وأدِ حركات الاحتجاج المرشحة للنمو أكثر بسبب الأوضاع الاقتصادية. هذه الأساليب الحديثة تريد، في الواقع، خلق مؤثرات جديدة وبيئة مغايرة للموروثات حتى ولو أنّها تستند إلى هذه الموروثات في لاوعي المتلقّي لنسفها ووضع أخرى مكانها. هنا بالضبط يلعب الخطاب السّياسي المباشر أو عبر وسائل الاتصال والتواصل دورًا كبيرًا في وضع لائحة جديدة من الأفكار والرموز الاجتماعية والسّياسية للتأثير في الجمهور.

أي إنّ الهدف من الوسائل الجديدة هو خلق «بيئة جديدة» ومؤثرات عصرية للخطاب. حينذاك لا يعود الموروث الثقافي والتراكم المعرفي والاجتماعي سوى قاعدة تنطلق منها العلوم الحديثة لجعل الخطاب السّياسي مؤثرًا وجاذبًا. يقول الكاتبان المذكوران: «إنّ القيمة الأهم بالنسبة إلى الراعي هي في كونه راعيًا وليس خروفًا، والقيمة الثانية أنّ الخروف لا يعرف أنّه خروف وأنّه كسول ويميل لأن يبقى خروفًا، ولذلك فإنّ من مصلحة أصحاب القطيع، الحفاظ على عدم المساواة بينهم وبين القطيع»، هكذا هي السّياسة.

اختصارًا نقول إذًا: «**إنّ الخطاب السّياسي الناجح والذي يُحدث تأثيرًا إيجابيًا في متلقّيه هو ذاك الذي يأخذ في الاعتبار بيئَتَيْ الملقي والمتلقّي، ويستند في أفكاره وإستراتيجيته وحججه وذرائعه إلى الموروثات والتقاليد والعادات والأسس الإيمانية والعقائدية والعقد**

الاجتماعي والمعرفة الدقيقة ببيئة المتلقّي، ويوظّف لذلك إطارًا متكاملًا من اللّغة والمضمون والشكل والزمان والمكان، فيصبح الخطاب بداخله وخارجه وحدة متكاملة لإحْداث التأثير الأقصى».

١. السّياق

عرّف قاموس «Le nouveau Petit Robert» في نسخته عام ٢٠٠٧ سياق الخطاب (contexte) بأنّه «مجموع النّص الذي يحيط بكلمة أو بجملة أو بمقطع، والذي يحدّد اختيار معناه وقيمته؛ وهو أيضًا مجموعة الظروف التي يندرج فيها حدث ما»[1]. هنا يبدو القاموس الفرنسي متحدثًا عن سياقين اثنين، أولهما داخل النّص نفسه، والثاني «الظروف» التي يندرج فيها الحدث. نكاد نؤكد أنّه من المستحيل فهم خطاب سياسي بدون تحليل تلك الظروف التي تحدّدها بيئته العامة.

في معجم المعاني العربي، يُعرف السّياق في العلوم اللغوية على أنّه: «ظروف يقع فيها الحدث أو يساق فيها الكلام، كمثل شرح المتهم للقاضي السّياق الذي ارتكب فيه الجريمة»[2].

هو إذًا حسب هذا التعريف العربي الأوسع، الظروف والإطار العام والزمان والمكان وكلّ ما هو فوق النّص، أو ما يحيط بالنّص أو الخطاب، من مؤثرات خارجية تدخل في صلب العلاقة ما بين

---

(1) Le Petit Robert, Nouvelle édition millésime, 2016, Paris, P. 525.

(٢) قاموس المعاني، الموقع الإلكتروني: http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/.

المخاطِب والمخاطَب. هذا ما عناه مينيونو (Maingueuneau) بقوله إنّ السّياق «يلعب دورًا محوريًا في إنتاج كما في تفسير الجملة المنطوقة، وإذا ما كانت الجملة خارج هذا الإطار العام فلا يكون لها سوى معنى محتمل. وإنّ تحليل الخطاب يقتضي ربط الجمل المنطوقة بسياقها غير الكلامي بحيث يبدو الخطاب غير قابل للفصل عن السّياق العام الذي يدور فيه»(١).

في كتابه «إستراتيجيات الخطاب» يتحدث عبد الهادي بن ظافر الشهري، عن خمسة أنواع من السّياق هي «السّياق النّصي (المتعلق) بالإجراءات الاجتماعية والنفسية للتماسك النّصي، والسّياق الوجودي (بحيث) يتمّ الانتقال من الدلالة إلى التداولية حالما يدرَك أنّ المرسِل والمرسَل إليه وكذلك موقعهما الزماني والمكاني هي مؤشرات للسّياق الوجودي، والسّياق المقامي الذي يوفر جزئيًا بعض العوامل أو المحدّدات التي تساهم في تحديد معاني التعبيرات اللغوية، وسياق الفعل (المتعلق بنظرية أفعال الكلام لأوستن) والسّياق النفسي، ذلك أنّ اعتبار الخطاب فعلًا وأنّ الفعل اللغوي قصد مشروط، يقود إلى إدماج الحالات الذهنية والنفسية في نظرية تداولية اللّغة لتصبح المقاصد والرغبات حالات ذهنية مسؤولة عن برنامج الفعل والتفاعل، وهذه الحالات هي مناط اهتمام الوصف والتفسير التداولي، بوصفها السّياق النفسي لإنتاج اللّغة وفهمها»(٢).

---

(1) Maingueuneau, Les termes clés,... Op,Cit., P.33.

(٢) الشهري عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، الكتاب الجديد، دار الكتب الوطنية، بنغازي – ليبيا، ٢٠٠٤، ص ٤٢٤.

طبيعي أن يختلف السّياق العام من مناسبة إلى أخرى انطلاقًا من العلاقة ما بين المرسِل والمتلقّي من حيث القواسم المشتركة والجغرافية والمشتركات الاجتماعية والدينية والثقافية والموروثات والمستوى الفكري والبيئة الاقتصادية والإنسانية والشكل العام. ونستطيع هنا أن نتحدث عن «ميكرو سياق» و«ماكرو سياق»؛ الأوّل يتعلّق بالنّص والأطر المتعلقة بـاللّغة المتعارف عليها في مجتمع ما والقوانين والأعراف المرعية والصور البلاغية واللّعب على الجمل وبها وغيرها (مثلًا ربّما كلمة أو نكتة في خطاب ما، في بلد ما قد تبدو شتيمة في بلد آخر)، والثاني يتمحور حول البيئة الخارجية للخطاب وظروف إنتاجه، وبالسّياسي وجمهوره في حال الخطاب السّياسي. حين نفرق بين ميكرو وماكرو، فإنّنا لا نقلّل من قيمة النّص أو الملفوظ مقارنة بالسّياق، وإنّما لأنّ السّياق يبدو أكثر شمولًا للكثير من العلوم وأكثر قدرة، بالتالي، على تقديم شكل معين من الخطاب في لحظة تاريخية محدّدة. وهو ما أشار إليه باتريس جورجيه (Patrice Georget) وألكسندر دورنا (Alexandre Dorna) بقولهما إنّ «قوة الخطاب تستند إلى استخدامه التقنية الخطابية التي هي في أصل عملية الإقناع، وفي التكثيف الشعوري في موقف تستدعيه السّياسة، فنجد أنّ المشاكل المحسوسة للمجتمع هي التي تحدّد شكل اللّغة ومضمونها»[1].

(1) Dorna Alexandre et Georget Patrice, "Quand le contexte surdetermine le discours politique", Le Journal des psychologues, 2007, N° 274, P. 4.

هذا التأثير للخارج في مضمون داخل الخطاب أي في النّص والملفوظات واللّغة، يأخذ مداه في الخطاب السّياسي؛ فحين يقول مثلًا العماد ميشال عون رئيس التيار الوطني الحر في لبنان إنّ «١٤ آذار التي نحن فيها هي الأصلية بينما ١٤ آذار التابعة للآخرين تايوانية[١]»، ما كانت لتُفهم لو لم يكن الجنرال متحدثًا في بلد يعرف أبناؤه ما هي قوى ١٤ آذار، ولو لم يكن ما تلفَّظ به مفهومًا من المجتمع اللبناني الذي ينظر إلى البضائع التايوانية أو الصينية على أنّها أقل جودة من البضائع الأصلية أو القادمة من دول غربية أوروبية أو أميركية.

نجد هنا أنّ اللّغة المستخدمة ما بين الخطيب وجمهوره، تفرض العلاقة ما بين الجانبين وتفرض على الخطيب أن يأخذ في الاعتبار ما يستطيع جمهوره فهمه.

٢. الصّمت والمسكوت عنه في الخطاب

يكتسب الصّمت في الخطاب السّياسي أهمية كبيرة حين يقول أكثر ممّا تقوله ملفوظات الخطاب. كم من مرة مثلًا يطلب مسؤول سياسي الوقوف دقيقة صمت على أرواح شهداء أو ضحايا. هنا الصّمت يعبر عن الحزن والتقدير للشهداء والضحايا وعن التضامن مع عائلاتهم. يصمت الجميع، فيكون صمتهم أكثر تأثيرًا من أيّ

(١) عون ميشال، خطاب لمناسبة ذكرى حركة ١٤ آذار، بيروت في ١٤ آذار ٢٠١٦، تمَّ بثه مباشرة عبر قناة OTV.

خطاب نظرًا للشحنة العاطفية التي ترافق هذا النوع من الصّمت. يعود هذا التقليد إلى عام ١٩١٩ في فرنسا. آنذاك قررت الحكومة الفرنسية التي يرأسها رئيس الجمهورية ريمون بوانكاريه (Raymond Poincarré) إحياء ذكرى هدنة الحرب العالمية الأولى. تم التصويت على قانون لإحياء ذكرى ضحايا وشهداء فرنسا في خلال الحرب. ثم جرى التصويت على قانون آخر في ٢٨ شباط/ فبراير ٢٠١٢ فصارت دقيقة الصّمت تشمل «كلّ الضحايا الفرنسيين قديمًا أو حديثًا، مدنيين أو عسكريين». هذا التقليد الذي انتقل إلى كل دول العالم شهد تعديلات طفيفة؛ ففي أميركا مثلًا تمّ الوقوف صمتًا ٣ دقائق على ضحايا الاعتداءات الإرهابية التي ضربت برجيْ التجارة في نيويورك - بتاريخ ١١ أيلول ٢٠٠١-، وفي بريطانيا صارت الدقيقة دقيقتين.

لكنّ الصّمت في الخطب لا يقتصر على هذا الأمر، فهناك أنواع كثيرة لها مدلولات متنوعة. فإنْ يسكت الخطيب عن خطب ما يشغل مجتمعه مثلًا، يكون راغبًا إمّا في تجاهل ما جرى لتهميشه، وإما بتجنبه درءًا للمشاكل المتعلقة به، وإما بنسيانه مع ما قد يترتب على ذلك من ردة فعل معاكسة لدى الجمهور.

ليس ضروريًا أن يقول الخطاب كلّ شيء، فالمسكوت عنه يترك مجالًا أوسع أمام متلقي الخطاب للتفسير والتحليل، تمامًا كما قد يربك الخصم، ويسمح برصد ردود الفعل المبنية على غموض الخطاب.

ذهبت دانيال دويز (Danielle Duez) إلى حدّ ربط صمت الخطاب بقيمة الخطيب؛ فهي تحلّل مثلًا ٣ خطابات للرئيس الفرنسي الراحل «فرانسوا ميتران» في مراحل زمنية مختلفة، وتتوقف عند سرعة كلامه وتقطيع الجمل والصّمت أو الاستراحة ما بين الجمل، لتصل إلى نتيجة مفادها أنّه: «كلّما ارتفعت مكانة السّياسي على السلم الاجتماعي، كانت وقفات الصّمت في خطابه أطول وأكثر حضورًا، ما يعني أنّ الصّمت يرمز إلى السّلطة السّياسية»[1].

لكنّ الصّمت قد يشير أيضًا إلى الخوف والتلعثم والتردد والكذب والخشوع والمرض، تمامًا كما قد يكون سبيلًا لتهميش الخصم وتجاهله.

أن تسكت إسرائيل مثلًا عن عملية تشير كلّ الدلائل على أنّها هي التي قامت بتنفيذها (مثلًا محاولة اغتيال رئيس المكتب السّياسي لحركة حماس خالد مشعل في الأردن - العام ١٩٩٧-، أو اغتيال قيادات في حزب الله أو قيادات فلسطينية في الخارج على مراحل)... فهي هنا تتعمد الغموض منعًا لردة فعل مباشرة ضدها.

وحين تمتنع فرنسا عن الإفصاح عن أرشيفها حول المجازر التي ارتكبتها في الجزائر قبل الاستقلال، فذلك لكي تتجنب فضائح وردود فعل.

في تعريفه للصّمت يقول القاموس الفرنسي le petit Robert:

---

(1) Duez Danielle, *La pause dans la parole de l'homme politique,* Editions CNRS, Paris, 1991, P. 16.

«هو عدم الكلام، أو البقاء دون كلام، أو عدم إبداء الرأي، أو عدم الإجابة». لكنّ الصّمت قد يكون متعمدًا لكي يقول الكلام بطريقة أخرى وليس لخلق الفراغ. ولذلك غالبًا ما نسمع عبارات كثيرة تمجِّد الصَّمت أو تعطيه مبررات أعمق لوجوده؛ ففي العربية مثلًا هناك عبارة «الصّمت من ذهب»، وفي الفرنسية «إنّ الآلام الكبيرة خرساء»؛ كما نجد عبارات كثيرة وحِكمًا حول الصّمت قالها كبار الكتّاب أو الفلاسفة أو السّياسيين أو الأئمة وغيرهم. مثلًا الشاعر التشيلي العالمي بابلو نيرودا (Pablo Neruda) يقول: «إنّ الكلام هو أحد أجنحة الصّمت»، والأديب الفرنسي الشهير «أونوريه دو بالزاك» يرى أن «لا شيء أكثر اكتمالًا من الصّمت»؛ وآخر اعتبر أنّ «الصّمت هو استراحة الضجيج»[1]، أمّا الإمام علي فعنده الكثير من الحكم حول الصّمت، فيقول: «بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ»[2].

يمكننا بالتالي تحديد الكثير من أنواع الصّمت، وهذه أبرزها:

- **الصّمت المتعمد في الخطاب.** قد يكون هدفه حمائيًا، بمعنى أنّ السكوت عن الشيء يهدف إلى حماية السّياسي - الخطيب. كمثل أن لا يذكر رجل الدولة أي شيء عن بعض المشاكل التي اعترضت عمله أو عن فشل تعرَّض له، بالرغم من أنّ خطابه يشرح حال الأمة في آخر العام.

---

(1) Le Petit Robert, Paris. 1982, P. 1814.

(٢) نهج البلاغة، يمكن قراءته إلكترونيًا على العنوان التالي:
http://www.alhak.org/vb/showthread.php?t=26166

- **الصّمت التحاوري**. وذلك حين يطرح الخطيب مثلًا سؤالًا على الجمهور الذي أمامه ويصمت لبرهة. هو يدرك سلفًا أنّ الجواب سيوافق تمامًا إستراتيجية سؤاله، لكنّه يصمت ليرفع منسوب التأثير عند متلقّي الخطاب.
- **الصّمت الشاجب** أو التحقيري أو التهميشي أو اللامبالي.
- **صمت الخوف**. وهو حين يصمت الخطيب عن ذكر شخص ما أو مافيا ما أو تيار أو حزب خشية ردة فعله.
- **صمت المناسبات**. خصوصًا في أوقات الحزن أو الكوارث أو وفاة مسؤول أو شخصية مهمة أو إحياءً لذكرى مرتبطة بالموت أو وقوع ضحايا أو شهداء وغيرها. وهو ما قصدناه في الحديث عن الوقوف دقيقة صمت.
- **صمت تجنّب إحراج النفس**. حين يلقي الرجل السّياسي مثلًا خطابًا أمام مجموعة من الصحافيين، ثم يفتح المجال للأسئلة، قد يأتيه سؤال مزعج أو خارج عن سياق الخطاب ومناسبته، فقد يكتفي بعدم الرّد عليه، أو القول إنّه خارج السّياق بالرغم من أنّ السؤال قد يكون مهمًا جدًا في تلك اللحظة للجمهور أو لعامة الناس.
- **صمت عدم إحراج الآخر**. كلّ رؤساء أو مسؤولي فرنسا مثلًا الذين كانوا يزورون المملكة المغربية في عهد الملك الراحل الحسن الثاني، أو يستقبلونه في باريس، لم يذكروا مرة واحدة علانية قضية واحد من أسوأ السجون المغربية، والذي توفي فيه عدد من المعتقلين السّياسيين بفعل التعذيب والمرض

والإهمال، أي سجن تزمامرت الرهيب. إنّ الصّمت هنا، في خطابات هؤلاء، كان متعمدًا لعدم إحراج الملك من جهة، وتجنبًا للتأثير في علاقات البلدين خصوصًا وأنّ العاهل المغربي كان شديد الحساسية حيال هذا الأمر.

- **صمت الغموض المتعمّد** (الغموض البنّاء). ضمن خطاب له في شهر حزيران ٢٠١٦، وجّه الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله اتهامات بدعم الإرهاب لكلّ من المملكة العربية السعودية وتركيا، لكنّه لم يذكر قطر قطّ. فهل نسي ذكرها؟ أم تعمد ذلك لأنّها غيرت موقفها أو تقاربت مع إيران بعيدًا عن الأضواء؟ أم إنّه نسي ذلك؟ هنا الغموض يحمل تفسيرات عديدة، وقد يكون مفيدًا تمامًا كما قد يأتي بنتائج معاكسة.
- **صمت الضّعف أو التهديد**. غالبًا ما نسمع كبار المسؤولين أو رئيس دولة يقول إنّنا «نحتفظ بحق الرد» (هذا قد يُعتبر عجزًا عن الرد، أو التهديد)، أو يقول: «لن نفصح الآن عمّا سنقوم بعمله» أو «سنتحدث عن الأمر في حينه». هنا السكوت عمّا سيقوم به ينذر باحتمال رد على اعتداء أو القيام بعمل ما.
- **صمت الاحترام والخشوع**. وهو غالبًا ما يتعلق بالأديان ورجال الدين والمناسبات الدينية والصلاة وغيرها.
- **الصّمت البلاغي والتقني**. وهو المتعلق بتقطيع الجمل

والصوت وما بينها من صمت يراد منه التأثير في المتلقّي والسماح له (أو لهم) بتلقّي الخطاب بسهولة أكبر. كما أنّه يُنصح مثلًا أثناء إلقاء خطاب في قاعات كبيرة وذات صدى بأن يتمّ اللجوء إلى الصّمت ما بين مقطع ومقطع منعًا لتشويش العبارات بفعل ارتداد الصدى.

- **صمت الأسلوب.** كلّما كان الخطاب عفويًا تعدّد الصّمت فيه، خلافًا للخطاب المكتوب والمتقن والهادف إلى الإقناع. وفق ما تذكره «دانيال دويز» في كتابها الآنف الذكر.
- **الصّمت المرضي.** حين لا يستطيع الخطيب، لأسباب مرضية، إكمال خطابه دون تقطيع وصمت في أماكن غير مناسبة من الخطاب (هذه مثلًا كانت حال وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل في آخر أيامه، وكذلك هي حال الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة منذ تفاقم عليه المرض).
- **الصّمت المعبأ بعاهات التأتأة والتردد.** (هذا يعبّر عن ارتباك أو عن البحث عن الكلمة أو الجملة المناسبة، كمثل أن يصدر عن الخطيب صوت آ آ آ).
- **صمت افتتاح الجلسات** أو الاحتفالات. غالبًا ما نسمع المشرف على ذلك يقول: «يرجى الصّمت، أو السكوت، سنبدأ الاحتفال).
- **الصّمت كردة فعل مباشرة عن انزعاج:** أن يقول الخطيب مثلًا، أُفضل ألّا أُجيب عن هذه النقطة التي يثيرها فلان.

قد يسوق الباحث عشرات أنواع الصّمت الأخرى ولكن ما يهمنا في تحليلنا لخطاب الرئيس السّوري بشار الأسد هو الصّمت المتعمد لتجاهل المعارضة، أو ذاك المعبّر عن حالات التهديد أو الوعيد أو الإحراج، وكذلك الصّمت المعبر عن متغيرات الأحوال النفسية عند الأسد لمرحلة ما قبل الحرب وخلالها.

ما يهمنا في هذا السّياق هو «المسكوت عنه» في الخطاب. لكنّ السّؤال الذي يطرح نفسه هنا يتعلق بكيفية معرفة ماذا يريد الأسد مثلًا من خلال ما سكت عنه، وكيف نعرف أنّ هذا الذي سكت عنه قد تعمّد فعلًا السكوت عنه ولم يكن من باب النّسيان أو عدم الانتباه. وفق غرايس هربرت (Grice Herbert) إنَّ الفرق ما بين المنطوق به والمسكوت عنه هو أنّ الأول يعني «... يقول الشخص شيئًا ما»، أمّا الثاني فهو أن «يدفع الشخص شخصًا آخر للتفكير في شيء ما»[1]وهو ما فسره أرباب البراغماتية وأفعال الكلام بدفع الشخص الآخر للقيام «بفعل ما» كما قال مثلًا (John Austin) وغيره ممن طوروا نظريته. ليس سهلًا معرفة ذلك خصوصًا وأنّ رؤساء الدول غالبًا ما يريدون ترك مسافة بينهم وبين جمهورهم إلّا في حالات الحاجة إليه.

في هذا الصدد طوّر مارتن جوس (Martin Joos)[2] اللساني الألماني، بعض الأفكار المهمة في كتابه حول علاقة السّياسي

(1) Herbert Grice, The Philosophical Review, Vol. 66, No. 3, (Jul. 1957), P. 380.

(2) Joos Martin, *The five Clocks,* Bloomington Ind: Indiana University, Indiana, U.S.A. 1962.

بجمهوره وتأثير ذلك في صمته وتقطيع الجمل والصوت؛ مختصرها أنّ أبرز مميزات الخطاب الرئاسي التي تعبر عن تلك المسافة ما بين الخطيب وجمهوره تكمن في عوامل عديدة بينها الصوت العالي، وطريقة تقطيع الجمل، وخصوصًا بطء القراءة التي يتخللها الصّمت غير مرة.

الواقع أنّ المسكوت عنه في الخطاب السّياسي عالم هائل ليس من السهل الإحاطة بكلّ أسبابه وأهدافه. فلماذا لا يقول الخطيب السّياسي الأمور على نحوها المباشر مثلًا؟ وكم من الأقنعة يمكن أن ترتديها الجملة المكتوبة أو الملفوظة حين تريد قول شيء ما دون قوله؟ وكيف يمكن تفكيك الملفوظات في الخطاب إلى أصل مقاصدها لنفهم ما هي هذه المقاصد بالضبط؟

في كتابها الشامل حول «المُضمر» l'implicite في الخطاب تقول كاثرين كربرات أوركيوني (Catherine Kerbrat-Orecchioni): «ليس بالإمكان فكّ رموز المضامين المضمرة إلّا من خلال الاعتماد، ليس على المعلومات المتعلقة بالشيفرات اللسانية المنخرطة في بناء الملفوظة فقط، وإنّما أيضًا على السّياق الـ «ما فوق الكلامي»، وطبيعة عمل المبادئ التحاورية أو قانون الخطاب...»[1].

لقد طورنا في هذا الكتاب، فكرة أنّ الصّمت في الخطاب السّياسي أو المسكوت عنه هو «فعل» من أفعال الخطاب. ذلك أنّ

---

(1) Kerbrat-Orecchioni Catherine, *L'implicite,* Armand Colin, 2ème edition, Paris, 1998. P. 8.

السّياسي حين يسكت عن شيء ما، قد يريد دفع المتلقّي إلى القيام بعمل ما، تمامًا كما لو أنّه طلب منه ذلك في جملة ملفوظة على نحو علني، لا بل ربّما يكون طلبه عبر المسكوت عنه أقوى.

٣. من خطاب الدعاية إلى فنّ الكذب

تبنّى كثيرون تعريف الديمقراطية على أنّها «حكم الشّعب بالشّعب لأجل الشّعب» (تعبير استخدمه خصوصًا الرئيس الأميركي إبراهام لينكولن). بعض الدول قاربت ممارسة هذا الشّعار، وبعضها الآخر حوَّل الديمقراطية إلى حكم الشّعب بعيدًا عن الشّعب وضد الشّعب. في الحالتين لا تقوم الديمقراطية الفعلية أو الديمقراطية المزيفة بلا دعاية سياسية. لا شكّ بأنّ القمع، الأمني والسّياسي والمعنوي والاجتماعي والاقتصادي، وحده لا يجعل شعبًا ما قابلًا كل شيء، وهو يدرك أنَّ ما يقبله قد يكون ضده. الذي يدفعه إلى ذلك هو الدعاية السّياسية التي لا تختلف كثيرًا ما بين الدول الدكتاتورية والديمقراطية. هي بلغت مبلغًا هامًا من القدرة على «التغرير» بالشّعب حتى كاد يصدق بأنّ من يحكمه يعمل لمصلحته.

١. الدعاية السّياسية

الدعاية السّياسية (هكذا اسمها وفق التعبير الملطّف أو إذا كان هدفها فعلًا هو خدمة من تتوجه إليهم، ذلك أن ليس كلّ سياسي محتالًا أو منافقًا أو كاذبًا). لكنّ الدعاية قد تتحول فعلًا إلى نفاق سياسي وتغرير واحتيال خصوصًا حين تخفي جيدًا أهدافها السوداء. ففي هذه الحالة الثانية تنشد الدعاية السّياسية تحويل المواطن إلى

هدف لبيعه الأفكار والبرامج السّياسية والمشاريع الحكومية تمامًا كما يبتاع البضائع وقوت يومه. لكن، ومع تطور الوعي السّياسي وارتفاع مستوى التعليم وتعدّد الثورات العلمية والمعلوماتية والتقنية، بات المواطن أكثر قدرة على التمييز ما بين الدعاية الجيدة والأخرى السيئة، وصار بالتالي أكثر حرية في شراء ما يريد ورفض ما يشاء. هذا ما وضعَ السّياسيين اليوم أمام مهمة أكثر صعوبة وتعقيدًا في البحث عن إستراتيجيات خطابية جديدة لإقناع جمهوره.

بدت وسائل الإعـلام والتواصل الاجتماعي كأهم حامل للدعاية التجارية والسّياسية على السّواء. فقد نجحت، إلى حدّ بعيد، في إمرار فكرة سياسية أو حجب فكرة أخرى. وهي إذ تكتسب أكثر فأكثر مجالات أوسع من الحرية وفضاءات أرحب من حرية التعبير، إلّا أنّ ثمة من لا يرى فيها أكثر من مطية للسياسيين والقوى الفاعلة التي تقرر ما تراه عبر هذه الوسائل بحيث تتحول إلى حامل للخطاب السّياسي ومدافع عنه حتى ولو لم تجاهر بالأمر. قد تكون وسائل الإعلام واعية وداعمة لهذه الدعاية، أو تكون غافلة عنها ومغررًا بها تمامًا كالمواطن المستهلك. يقول نعوم تشومسكي: «إنّ الذين يديرون وسائل الإعلام يصرخون عاليًا وبقوة بأنّ خياراتهم التحريرية تستند إلى خصائص غير متحيزة، وإلى مهنية وموضوعية، وهو ما يوافق عليه المثقفون. لكن يبدو، على نحو واضح، أنّ القوى الكبرى هي في وضع يسمح لها بفرض نسيج الخطابات وتقرير ما ينبغي للشّعب البسيط أن يراه ويسمعه ويفكر فيه. وهي التي تدير

الرأي العام عبر حملات البروباغندا. هذا يعني أنّ الفكرة المتعارف عليها والمقبولة لعمل النظام ليس لها أي علاقة بالواقع»[1].

حين يصل الفيلسوف وعالم اللسانيات والمفكر الأميركي «نعوم تشومسكي» إلى هذه النتيجة بعد خبرته الطويلة في دراسة وسائل الإعلام وأساليب الدعاية والضغط السّياسي، فإنّه يضعنا أمام واحدة من معضلات الدعاية السّياسية في العصر الحالي. إنّها العلاقة المعقدة بين الطبقة السّياسية في المجتمعات الحديثة وبين وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي. أيهما يؤثر في الآخر ويحدّد مسارات قراراته واتجاهاته؟ قد ينتظر العالم طويلًا قبل حسم النقاش حول هذه القضية. ثمة من يعتبر أنّ الطبقة السّياسية المستندة إلى لوبيات تأثير عسكري واقتصادي، هي التي تخلق حالة سياسية أو أمنية عامة تجذب إليها وسائل الإعلام والتواصل وغيرها. هذه كانت مثلًا الحال حين قررت الولايات المتحدة الأميركية، ومعها بريطانيا لاحقًا، أنّ صدام حسين يملك أسلحة دمار شامل، وأنّ له صلات مع أسامة بن لادن. حينذاك سار الإعلام العالمي (مع قليل من الاستثناءات) خلف هذه الحالة وتأثر بها، ووظّف خطابه لها. تكررت الحالة أيضًا مع الأسلحة الكيماوية السورية قبل أن تنجح موسكو في سحب الفتيل. في هذه الحال، تحولت وسائل الإعلام إلى مجرد مطية أو جسر لإمرار الاحتلال العسكري ثم السّياسي.

في المقابل فإنّ وسائل الإعلام قد تخلق الحدث أو تعطيه أقلّه

(1) Chomsky Noam et Herman Edward, *La Fabrication du consentement,* Agone, Marseille, 2008, P. 6.

بُعده الأوسع في أوساط الرأي العام فيصبح صاحب القرار مضطرًا إلى الخضوع لسطوة الإعلام والسير في ركبه. لعل تجربة «قناة الجزيرة» القطرية مع ما سمي بـ«الربيع العربي» كانت لافتة في هذا الاتجاه. إنّ تحريكها لبعض الشوارع العربية وإيلاءها الأهمية لدور الإخوان المسلمين، كادا يؤسسان لرأي عام يصبح معه السّياسي مضطرًا لتقديم تنازلات أو إلى الرحيل أو إلى القتال. صحيح أنَّ مثل هذه القناة ما كانت لتنجح لولا قرارات دولية كبيرة لمصلحة الإخـوان المسلمين، لكن الصحيح أيضًا أن القناة لعبت دورًا بصناعتها رأيًا عامًا في مصر ساهم في وصول الإخوان المسلمين إلى السلطة.

يقودنا هذا إلى تعريف قاموس «لاروس» الفرنسي للبروباغندا حيث اعتبرها: «عملًا متواصلًا يُمارَس على الرأي العام لجعله يقبل بعض الأفكار والنظريات خصوصًا في الحقل السّياسي أو الاجتماعي»[1]. لا شكّ أنّ وسائل الإعلام هذه هي جزء من هذا العمل المتواصل الذي يستطيع السّياسيون ومراكز الضغط الاقتصادي والسّياسي توظيفه لمصلحتهم.

بدت العلاقة ما بين الخطاب السّياسي والدعاية السّياسية تبادلية بامتياز. كلاهما يؤثر في الآخر، وكلاهما يستند إلى الآخر. يختصر الخطاب الكثير من الأفكار والإيديولوجيات والإستراتيجيات التي يريد رجل السّياسة إقناع أو إجبار جمهوره على تأييدها وتنفيذها.

---

(1) http://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/propagande/64344.

لكنّه لا ينجح إلّا إذا اعتمد أساليب الدعاية. وهذه الدعاية تبقى بلا فائدة إن لم تستند إلى خطاب.

في تعريفه للخطابة (أو الريتطوريك وفق تسميتها السابقة) يقول الفيلسوف الألماني أرتور شوبنهاور: «هي ملَكة جعل الآخرين يشاركوننا آراءنا وطريقة تفكيرنا في شيء ما، وكذلك إيصال عواطفنا الخاصة إليهم، وجماع القول أن نجعلهم يتعاطفون معنا. يجب أن نصل إلى هذه النتيجة بغرس أفكارنا في أذهانهم بواسطة الكلمات، وذلك بقوة تجعل أفكارهم الخاصة تنصرف عن اتجاهاتها الأولى لتتبع أفكارنا التي ستقودها في مسارها»[١].

نلاحظ في هذا التعريف أنّ المقصود هو إلغاء أفكار الآخر وزرع أفكارنا مكانها، هذا بالضبط ما يسميه البعض بـ«غسل الأدمغة». الخطير في هذا المنحى هو غسل تلك الأدمغة بـ«الإقناع» وفق توصيف **شوبنهاور** وليس بالضغط أو القمع. لو دقّقنا في بعض أساليب الدعاية التي اعتمدتها التنظيمات التكفيرية والإلغائية التي تبنت منهجًا إسلاميًا متطرفًا ودمويًا في السنوات القليلة الماضية، فسوف نجد من خلال دعايتها عبر وسائل التواصل الاجتماعي أنّها تبنت هذا التعريف. هي تسعى إلى إلغاء الأفكار جميعًا من أذهان شبان مسلمين في الدول العربية والإسلامية وأيضًا الغربية، لتزرع

(١) Schopenhauer, Poétique, N. 5, P. 105. (نقلًا عن كتاب في بلاغة الخطاب الاقناعي، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٢. الدار البيضاء - المغرب، ص ١٣).

مكانها فكرة جديدة عن الممارسة «الجهادية» الإسلامية تدفع إلى إلغاء كلّ من يعارضها. لاقت هذه الدعاية ترحيبًا حتى عند شبان مسلمين ولدوا وترعرعوا في كنف مجتمعات غربية. صار هؤلاء ينقادون إلى جبهات القتال أو «الجهاد» في دول عربية وإسلامية بعيدة عنهم مثل العراق أو سوريا أو أفغانستان وليبيا وغيرها، وذلك سببه الدعاية الدينية التي أتقنها دعاة الجهادية الدموية، إمّا في بعض المساجد وإما خصوصًا عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

إنّ البحث عن أسباب نجاح مثل هذه الدعاية في «الخطاب الجهادي» يفترض العودة إلى بيئة المرسِل والمتلقّي، إلى العلاقة ما بين الخطيب وجمهوره، بحيث نجد أنّ ثمة أسبابًا اجتماعية واقتصادية ونفسية «خارجة» عن الخطاب قد أدّت إلى نجاح هذا الخطاب ودعايته السّياسية أو ساهمت بنسبة كبيرة في نجاحهما. فلو لم تكن مثلًا المجتمعات الإسلامية للمهاجرين المغاربة أو الأتراك في فرنسا مهمّشة وفقيرة وناقمة على المجتمع الذي تعيش فيه وباحثة عما يعيد إليها شيئًا من كرامة مفقودة لربما كانت فرص الدعاية بالنجاح أقلّ. ولو لم تكن هذه المجتمعات متأثرة أصلًا بالدين الإسلامي عبر روايات وممارسات الأهل وخطب الدعاة في المساجد، لما كانت تقبّلت بسهولة دعاية تأخذ من بعض النّصوص والأحاديث سندًا لها (عبر تأويلات مختلفة). لذلك غالبًا ما نرى أنّ ردة فعل الناس على التهميش والقمع تنحو صوب تفسير جديد للدين، بعد أن كانت تذهب كثيرًا صوب الجريمة والجنح.

لا تنجح الدعاية إذًا بمعزل عن محيطها وبيئتها مهما بلغت حنكتها. هي تستند إلى موروثات وغرائز وظروف اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية وأمنية وغيرها، لتغزو عقولًا وقلوبًا وتحتل مكانة أولى فيها. هكذا يمكن أن يصبح «دعاة الحرية» في أفغانستان (هو الاسم الذي كان الأميركيون يطلقونه على طالبان أثناء قتالهم السّوفيات)، إرهابيين في دولة مالي الإفريقية، أو «ثوار حرية» في سوريا والعراق كما قال عنهم مسؤولون غربيون كثيرون.

إنّ أول شروط الدعاية السّياسية الناجحة تكمن في ألّا تبدو دعاية. كان رئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل مناحيم بيغن يقول: «يجب أن نعمل بسرعة فائقة قبل أن يستفيق العرب من سباتهم فيطلعوا على وسائلنا الدعائية، فإذا استفاقوا ووقعت بأيديهم تلك الوسائل وعرفوا دعاماتها وأسسها فعندئذ سوف لن تفيدنا مساعدات أميركا»[1].

إنّ تمويه الدعاية السّياسية بقالب من الصدق المصطنع يتطلب مجموعة من المؤثرات النفسية التي تجعل متلقي الخطاب السّياسي يعتقد أنّ كلّ ما يسمعه يخدم مصالحه. في استخدامه لهذه المؤثرات النفسية يصبح رجل السّياسة، خصوصًا في المجتمعات المتقدمة، قادرًا على إمرار دعايته على نحو أفضل. نرى ذلك في الشكل المسرحي لإلقاء بعض الخطابات تحت الأضواء، وفي طريقتها.

(١) حجاب محمد منير، الدعاية السياسية وتطبيقاتها قديمًا وحديثًا، دار الفجر للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ٢٠١٢، القاهرة، ص ٨٦.

نراه من خلال كيفية وصول الرئيس إلى المنبر أو المسرح، وفي الإطار العام المحيط به من مستشارين ووزراء وغيرهم. نراه كذلك في حركاته المسرحية أثناء تحية الجمهور قبل قراءة الخطاب، والإيحاء بأنّه يرتجل بينما هو يقرأ على ألواح صغيرة شفافة من شاشة الكومبيوتر... (هذه طريقة تم ابتكارها خصوصًا لهذه الغاية).

كلّ هذا معروف ولكن هناك مؤثرات يستند إليها علم النفس، قد نجدها أيضًا بين وسائل التأثير الحديثة. من هذه المؤثرات مثلًا الاعتماد على قاعدة «البرهان الاجتماعي» التي يعتمدها «الذهنيون» (mentalistes) أي الذين يعملون على التأثير في أذهان الناس من خلال مؤثرات اجتماعية أو بصرية وغيرها. تقول هذه القاعدة بأنَّ الإنسان الذي لا يملك رأيًا خاصًا حيال قضية سياسية أو اجتماعية غالبًا ما يتبنى رأي الناس من حوله أو رأي وسيلة إعلامية أو رأي الرجل السّياسي الذي يثق به. غالبًا ما نلاحظ ذلك في الصفوف الطويلة التي تقف في المجتمعات الغربية مثلًا أمام شباك التذاكر في السينما أو المؤسسات الرسمية أو عند رجل الأمن الذي يدقّق في جوازات السفر في المطارات. قد نجد صفين طويلين من الناس أمام شباكين، بينما يبقى الشباك الثالث فارغًا، وإن لم يدعُ الموظف الناس إلى الصف الثالث فهم قد لا يذهبون إليه من تلقاء أنفسهم، لسبب بسيط هو أنّه لا يوجد أحد أمامه. يفضل الناس الوقوف مع الجماعة دون المخاطرة بالذهاب بعيدًا عنهم.

هذا المبدأ ينطبق تمامًا على الناس في أوقات الأزمات والحروب والشدائد. غالبًا ما يلتحق الناس بقائدهم المباشر أو

زعيمهم المحلي أو المسؤول السّياسي الذي يعتقدونه قادرًا على إنقاذهم، ولا يتردّد الرجل السّياسي في استخدام عبارات الجذب المستندة إلى موروثات العقد الاجتماعي الذي يربطه بالناس من حوله. لذلك نرى أنّ العصبيات المذهبية أو الطائفية أو المناطقية أو العشائرية تشتد في أوقات الأزمات والحروب والانتخابات وغيرها.

من المبادئ الأخرى التي نجدها عند «الذهنيين»، مبدأ اختبار ميلغران (l'expérience de Milgran) فهو يقول بأنّ الإنسان «يكون أكثر عرضة للتأثر (بالدعاية) حين يكون في مواجهة شخص له موقع اجتماعي أعلى منه»[1].

لذلك يميل الناس بشكل عام إلى التأثر بكلام رئيس الدولة مثلًا حتى ولو كان الكثير منهم لا يصدقون ما يقول. فهو يتمتع بشرعية التأثير انطلاقًا من شرعية موقعه ووظيفته.

من المبادئ الأخرى كذلك غير المباشرة للتأثير في الآخر في الدعاية السّياسية، مبدأ يُسمى «عدم التناغم المعرفي» (la dissonance cognitive). فحواه أنَّ الشخص الذي يجد نفسه أمام «ذريعة مخالفة لمعتقداته (أو مصلحته) يبحث عن تقليص انعدام التناغم والانسجام ما بين الذريعة ومعتقداته من خلال وسائل عديدة، فإمّا أنّه يلغي الذريعة كلها (ما تقوله هراء) وإما هو يبحث

(1) Boussa Felix, *Devenir Mentaliste,* L'Institut Pandore, Paris, 2014, P. 29.

عن أشخاص آخرين لمشاركتهم في رأيه (...ما تقوله هراء ذلك أنّ كثيرين غيري يفكرون مثلي)»[1].

غالبًا ما تؤثر الأزمات والحروب في نفسيات المجتمع وناسه، فنجد هؤلاء أكثر عرضة لتقبّل أي فكرة يعتقدون أنّها تنقذهم ممّا هم فيه، ذلك أنّ ثقتهم بأنفسهم تصبح أضعف ممّا هي عليه في أوقات الآلام والرفاهية، وهم يجدون بالتالي بعض الملاذ في رجل السّياسة المجرب عندهم ولا يغامرون بالبحث عن رجل آخر إلّا إذا شعروا بضعفهم الشديد.

نجحت وسائل التواصل الإعلامي والاجتماعي الحديثة من تلفزات فضائية وإنترنيت بأن جعلت المتلقّي يصدّق الخبر في لحظات القلق والخوف مهما كان حجم الكذب الذي يتضمنه. لم يكن صعبًا مثلًا إقناع الأميركيين - عام ٢٠٠١ بعد الاعتداءات الإرهابية على بلادهم - بجدوى اجتياح العراق بعد عامين على تلك الاعتداءات. كانت الآلة الأميركية السّياسية والإعلامية جاهزة لتقديم أفضل بروباغندا حول قضيتيْ أسلحة الدمار الشامل والتعاون مع القاعدة. لم يظهر الأمر على أنّه دعاية أو خديعة وإنّما حقيقة مطلقة.

الملاحظ هنا، هو أنّ جزءًا كبيرًا من الدعاية السّياسية لا يزال حتى يومنا هذا يستند إلى مخاطبة الغرائز وتحريكها، ويحاول قدر الإمكان شلّ القدرات الذهنية على التفكير والغربلة والتمييز. لا يُلغي ذلك طبعًا اعتماد دعاية منطقية تريد إقناع الناس عبر عقولهم، لكنّ القسم الأكبر

(1) Boussa Felix, Ibid, P. 30.

لا يزال يرتبط بالغرائز والمشاعر وغيرها. ربما لأنَّ فرص نجاح الدعاية المعتمدة على الغرائز أكبر من تلك التي تخاطب العقل.

هذا ما قصده جاك إيللول (Jacques Ellul) في حديثه عن ارتباط الدعاية بالأساطير البشرية، حيث يقول «إنّ الدعاية السّياسية قدمت للإنسان الحديث، أي الإنسان الغارق في كلّ تقنيات التواصل الإعلامي والاجتماعي، نموذجًا كونيًا لشرح العالم ودوافع للتحرك المباشر، نحن هنا أمام تنظيم للأسطورة التي تحاول السّيطرة على كامل شخصية (المتلقي). فالدعاية السّياسية تفرض، عبر الاسطورة، التي تنتجها، صورة عامة للمعارف الغرائزية التي لا تحتمل إلّا تفسيرًا واحدًا وحيدًا يستبعد أيّ خلاف (مع المُرسِل)»[1].

تعبير «المعارف الغرائزية» عند إيللول يستند إلى واحد من أهم أسس إمرار الدعاية السّياسية ببساطة عند المتلقي. فالتركيز على صورة المرأة مثلًا في الدعاية التجارية يخاطب الغرائز الأولى عند الإنسان؛ ووضع المناظر الطبيعية والمروج الخضراء والأشجار والمراعي خلف صورة الرئيس فرانسوا ميتران في حملات الانتخابات الرئاسية يخاطب الغرائز الأولى عند الإنسان وعلاقته البدائية بالطبيعة. لا تختلف هنا قاعدة الدعاية التجارية عن السّياسية من حيث الوسائل.

تشمل الغرائز الأولى التي تستند إليها الدعاية السّياسية، حقلًا كبيرًا من المشاعر الإنسانية، بينها الرغبة والخوف والقلق والحب والمأكول والمشروب والجنس والامتلاك والنجاح. يكفي أن يضع

(1) Ellul Jacques, *Propagandes,* Economica, Paris, 1990, P. 55

أرباب حملة المرشح باراك أوباما عبارة «Yes we can» حتى يخاطبوا الغرائز الأولى أيضًا عند الإنسان المتعلقة بالنجاح في أمر ما، وبالقدرة والقوة والعزيمة والانتصار.

«حين يتمّ استخدام المشاعر في البروباغندا، يتمّ شلّ أيّ قدرة على النقد، ويصبح سهلًا نقل الشحنات العاطفية إلى المتلقّي، ونجد مثلًا أنّ الشعور بالخوف هو من أكثر المشاعر التي يستخدمها الإرهاب في أوقات الحروب»[1].

تنجح الدعاية إذا ما استندت إلى الغرائز، لكنها تنجح أكثر إذا ما استطاعت الجمع ما بين الغرائز والمشاعر والعقل. عكس ذلك قد يثير نقمة المتلقّي وينتج ردود فعل معاكسة تمامًا لما أراده الخطيب أو السّياسي. هذا مثلًا كان شأن عبارة «عيشها غير» التي تم إطلاقها عام ٢٠١٥ في سوريا لتشجيع الناس على عدم الخضوع للحرب وممارسة حياتهم على نحو طبيعي. صارت العبارة مثارًا للكثير من السّخرية عبر التواصل الاجتماعي، لأنّها تزامنت مع أعنف سنوات القصف على دمشق وحلب وغيرهما. أرادت هذه الدعاية أن تخاطب غريزة البقاء والحياة والرفاهية عند الإنسان السّوري في الحرب، فقتلها العقل حين اكتشف تناقضها مع الواقع.

إذًا بعض الدعايات التي تثير الغرائز، قد تقتلها الغرائز أيضًا أو يقتلها العقل إنْ لم تستند إلى إستراتيجية متقنة تمامًا لإيصال الفكرة والترويج لها وإقناع الناس بها. ففي محاولتهم للجمع بين

---

(1) Dorna Alexandre, Quellien Jean, Simonnet Stephane, *La propagande, paroles et manipulation,* L'Harmattan, Paris, 2008, P. 166.

الغرائز الأولى وبين متطلبات العصر الحديث من موجبات ذهنية وعقلية مرتبطة بالتطور التكنولوجي، سعى العاملون في شؤون التواصل ووسائل الإعلام إلى اعتماد وسائل جديدة قالوا إنّها: «تخدم الأيديولوجيات الحديثة لإنتاج فكرة جديدة عن العالم تكون قوية إلى درجة الحلول مكان الدين. حين تصبح الدعاية السّياسية كاملة فإنّها تؤسِّس لتقنية حقيقية للتجسيد الأسطوري لهذا العالم والأحداث. حينذاك تعبر إلى كلِّ حقول حياة الانسان في الإطارين: العام والخاص؛ وهي تفرض خصوصًا رؤية لهذا العالم بسيطة ومتماسكة في آن».[1] الفكرة الجديدة التي يسعى رجل السّياسة اليوم لتقديمها إلى جمهوره تتعلق خصوصًا بقضيتين أساسيتين: تأمين حقوق المواطن والوعد بجعل حياته أكثر رفاهية وأمانًا. إنّ مروحة الحقوق واسعة، فهي تشمل الطبابة والتعليم والسَّكن والانتقال من الضروريات إلى الكماليات كمثل الحصول على سيارة جديدة كل ٤ أو٥ سنوات وإمكانية السفر في رحلات سياحية، والحصول على أكبر قدر ممكن من أيام الإجازات وتوفير ظروف حياة يومية أسهل. ذلك أنّه كلّما تطور العالم، طغت الشروط الترفيهية على الأيديولوجيات. حينذاك تضيق كثيرًا المسافة بين اليسار واليمين وبين الاشتراكية والليبرالية.

صار رجل السّياسة يقدّم نفسه كالشخص المناسب لطرح

(1) Danblon Emmanuelle, Rhétorique et vérité, Dans *Argumentation, manipulation,* persuation, sous la direction de Christian Boix, L'Harmattan, Paris 2007, P. 55.

مجموعة من الحلول الاقتصادية والاجتماعية أكثر ممَّا يطرح أفكارًا سياسية خلَّاقة أو أيديولوجية حول فهم العالم وكيفية تطوره. هذا ما جعل مجموعات الضغط (اللوبي) الاقتصادية والمالية والعسكرية تلعب دورًا مهمًا في إمرار الدعاية السّياسية لشخص أو حزب أو مجموعة... أو في إعاقتها.

شيئًا فشيئًا، صار رجل الدولة في عصرنا الحالي يدرك الأهمية القصوى لهذه المطالب الحياتية، ويدخل عبرها إلى إمرار مشروعه وخطابه ودعايته. نلاحظ مثلًا أنّ رئيس الوزراء اللبناني الراحل رفيق الحريري قد دخل من بوابة حاجات الناس والشباب قبل توضيح مشروعه السّياسي. خصّص مبالغ مالية هائلة لتعليم جيل كامل من الشباب اللبناني في الغرب، ثم واكب مشاريعه الإنمائية بحملة من الدعاية المتقنة. يروي مثلًا أحد مستشاريه السابقين مصطفى ناصر[١] أنّ الحريري حين زار إيران في إحدى المرات، جاءه تجار السجاد من البازار الشهير يعرضون عليه شراء شيء من السجاد الإيراني الشهير، فاشترى كل ما عرضوه عليه بأكثر من مليون دولار. وحين سأله ناصر عن شراء كل هذا وهو ليس بحاجة إليه قال: «إنّ الدعاية التي سيقوم بها تجار البازار له تساوي حملة إعلانية ضخمة في كلّ شوارع إيران».

إنّ هذا النوع من التعاطي السّياسي مع الجمهور، أي من موقع الحريص على مصالح الناس، بات أكثر تأثيرًا من الخطابات

---

(١) ناصر مصطفى، مقابلة خاصة مع الباحث، في صيف ٢٠١٥.

السّياسية الإيديولوجية في يومنا هذا، وصار يضع السّياسي في مكان قريب جدًا من الذين يتوجه إليهم بخطابه الإنساني والاجتماعي والاقتصادي بغلاف سياسي. بات يضع نفسه بمثابة أب المجتمع، فيسهل إمرار الدعاية السّياسية التي يريد من خلالها إقناع «أبنائه» بالسير في ركب ما يريده.

هذا هو بالضبط المقصود بكلام أموسي روث (Amossy Ruth) حول أنّ «رجل السّياسة ينجح في إمرار صورة الأب أو المسؤول الواعي والعارف بخفايا الأمور ومآلاتها، فهو يكتسب موقعًا اجتماعيًا يجعله قادرًا على التأثير في المتلقّي حتى لو تقصّد إمرار معلومات كاذبة»[1].

لذلك نلاحظ أنّ الدعاية السّياسية الحديثة تعتمد على عبارات جاذبة ترتبط بعواطف الناس ومشاعرهم أكثر ممّا تستهدف إقناعهم بالمنطق. فحين يعتزم الرئيس الأميركي باراك أوباما مهاجمة سوريا عسكريًّا، فإنّه يرفع مستوى القلق من البرنامج الكيماوي السّوري إلى أقصاه؛ الأمر الذي يحرّك عددًا من الغرائز والعواطف، أولًا غريزة الحماية حيال مواطنين أبرياء قد تقتلهم تلك الأسلحة، وثانيًا مشاعر التعاطف الأميركي الضمني مع إسرائيل التي قد يهدّدها الكيماوي.

اللافت في هذا النوع من الدعايات والأنباء خلال أوقات الخوف والقلق، أنّ المواطن يستمر في تصديقها حتى بعد انكشاف أمرها وافتضاح زيفها. إنّ رفض شريحة من الرأي العام القبول

---

(1) Amossy Ruth, *La présentation de soi,* P.U.F, Paris, 2010, P. 37.

بأنّها كان مُغرّرًا بها واضح. لكنّ اللافت أنّ هذه الشريحة قد تكون مستعدة للاقتناع بأكثر ممّا توقعه أصحاب الدعاية؛ فقد «أثبتت استطلاعات الرأي أنّه بالرغم من الاعترافات الرسمية، فإنّ قسمًا من الرأي العام الأميركي بقي مقتنعًا، ولسنوات طويلة بوجود عراقيين من بين انتحاريي ١١ أيلول/ سبتمبر، أو بأنّ صدام حسين كان يملك أسلحة دمار شامل»[1] (بينما ١٥ من أصل ١٩ انتحاريًا كانوا من السعودية).

ربما لا يزال بعض الأميركيين حتى اليوم يصدقون أنّه كان في العراق أسلحة دمار شامل، وأنّ صدام تعاون مع أسامة بن لادن. فعلت الدعاية السّياسية المباشرة فعلها في إثارة القلق والخوف. أظهرت الإدارة الأميركية وكأنها فعلًا الضامن والحامي والحامل للخير ضدّ الشر. كشفت استطلاعات الرأي أنّ «نسبة الأميركيين الذين يؤيدون الحرب على العراق تصل إلى نحو ٦٠ بالمئة شرط أن تتمّ في إطار الأمم المتحدة؛ بينما كانت نسبة الفرنسيين الرافضين للحرب والمؤيدة لقرار رئيسهم جاك شيراك برفضها تصل إلى ٧٧ بالمئة» وفق ما نشرته إذاعة فرنسا الدولية عام ٢٠٠٣[2].

إنّ رفع منسوب القلق والخوف عند الناس، يزيد فرص نجاح الدعاية السّياسية، ذلك أنّ «حماية النفس» هي من الغرائز الأولى للإنسان إلى جانب البحث عن المأكول. ما كان «تنظيم الدولة

---

(1) Huyghe François-Bernard, *Les armes du faux,* Armand Colin, Paris, 2016, Emplacement sur Kindle 1401.

(2) http://www1.rfi.fr/actufr/articles/037/article_19189.asp.

الإسلامية» (داعش) لينجح كلّ هذا النجاح ويغزو مدنًا وقرى بهذه السهولة لولا الدعاية الدموية التي سبقته. استسلم الناس له بسبب القلق، لعلهم صاروا في المقابل أكثر قبولًا لدخول الجيش السّوري وعودة الدولة إلى مناطقهم أيضًا بسبب القلق والخوف. راح كلّ طرف من المتقاتلين على الأرض يخاطب هذه المشاعر عند الناس بغية جذبهم إليه. تحوّل المشهد إلى دعاية ودعاية مضادة... والاثنتان مستندتان إلى منسوب القلق.

فاقم هذا الوضع، دخول وسائل التواصل الاجتماعي إلى ساحات الصراع والقتال، فأتقن كلّ طرف مفاتيح هذه الوسائل الجديدة التي قدمت للدعاية السّياسية أفضل جسور للوصول إلى عقول الناس وقلوبهم وغرائزهم. أضيف إليها تقنيات التلاعب بالصور والمضامين والأفلام عبر إعادة التركيب (مونتاج) أو من خلال تعديلات جوهرية على الصور (عبر الفوتوشوب مثلًا)، وإضافة خلفيات وإطار عام، بحيث أنّ الراغب في إحداث صدمة مثلًا: يستطيع نقلَ معركة من ليبيا إلى سوريا ببساطة، يكفي أن يغير خلفية الصورة ويغير الشّعارات والأعلام المرفوعة في المعارك. مئات المرات جرى هذا في مصر واليمن وليبيا وخصوصًا في سوريا.

إنّ خطورة الإنترنيت ووسائل التواصل الاجتماعي هذه، إنّما هي بتأسيسها دعاية سياسية جديدة مجهولة وأهدافها مشتبه فيها. صحيح أنّ المعلومة ما عادت حكرًا على من يصدرها أو من يمتلك أجهزة تسويقها القديمة كالتلفزة والراديو والصحف، لكنّ ذلك قد

طرح أسئلة كثيرة حول المتحكمين الجدد في هذه الوسائل وحقيقة نيّاتهم من خلال تشريع هذه الوسائل: هل هي تجارية محض؟ أم أنّها نوع آخر وأخطر من كلّ الأنواع التي عرفناها حتى اليوم من الدعاية السّياسية؟ كيف يمكن مثلًا أن يبقى فيلم إحراق الطيار الأردني معاذ الكساسبة على الشبكة العنكبوتية أيامًا دون منعه؟ وكيف يمكن لتنظيم دموي إرهابي أن يوزِّع أفلامًا يظهر فيها عناصره وهم يذبحون ويقطعون رؤوسًا ويسبون نساءً، وتبقى هذه الأفلام أيامًا دون حظر؟ بينما كان يكفي أن يضع الشخص صورة أو تعليقًا مؤيدًا لأمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله ليُغلق حسابه فورًا.

ثم إنّه في ظلّ هذه الحرية الجديدة، ليست في الواقع حرية كاملة، لا تزال دول كثيرة قادرة على المنع والحظر. كان يكفي مثلًا أن تغضب السعودية على صحيفة «الأخبار» اللبنانية حتى تمنع وجودها على شبكات السعودية، تمامًا كما تمَّ إنزال قناتَيْ «المنار» و«الميادين» عن قمر عربسات.

هذا يؤكّد أنّ من يملك المال والقدرات العسكرية والسّياسية هو الذي يتحكم في ما يُبث وما يمنع حتى ولو غرق العالم في وهم حرية شبكة الإنترنت. إنّ الذي اخترع هذه الشبكة وحرّر استخدامها، يستطيع في أي لحظة إيقافها ومنع ذلك، أو أن يوقفها في أي دولة شاء. ثمَّ إنّ الدول لا تزال قادرة على التحكم في هذه الوسائل. في هذا الصدد يقول فرانسوا برنار هيوغ في كتابه الآنف الذكر: «كان ثمة تنبؤ بأنّ السلطة التحررية لوسائل الإعلام ستفجر الأنظمة المغلقة وتجعل الحدود بلا فائدة؛ ولكن تبين أنّ هذه النبوءة

اصطدمت سريعًا ببلقنة الشبكة العنكبوتية، حيث سمحت هذه البلقنة لبعض الدول بحماية نفسها من المضامين المسيئة والمشتبه فيها، فمثلًا الصين التي تعدّ أكبر عدد من الناشطين على الإنترنيت في العالم، شيّدت حائطا عاليًا من المنع بذريعة مكافحة المواد الإباحية وخطابات الكراهية والتضليل الإعلامي»[١].

٢. المعلَن والمضمر في الدعاية

هناك جانب آخر مهم للدعاية السّياسية، يكمن في الدعاية غير المباشرة. هذه تعتمد إستراتيجيات دقيقة تستند إلى عوامل كثيرة عند منتج الدعاية ومتلقّيها. هنا يصبح «إغفال» الأمر بمستوى الحديث عنه أو ربّما يفوقه (كما رأينا سابقًا في الصّمت أو المسكوت عنه). في هذه الحال قد يكون هدف الإغفال أو التعتيم على الشيء أو تجاهله هو تبرير الكذب السّياسي الذي يُعتبر واحدة من وسائل الدعاية السّياسية.

في تعريفه لـ«فن الكذب في السّياسة» يقول باتريك شارودو: «على حلبة السّياسة، من المستحيل عدم الكذب، أقلّه عبر الإغفال. ولكي يخففوا المخاطر، يتمتع الخطباء بإستراتيجيات خطابية محكمة: النسيان، الضبابية، الإنكار أو المصلحة العليا للدولة»[٢].

---

(1) Huyghe François-Bernard, *les armes...*, Op. cit., Emplacement 2595. op.cit.

(2) Charaudeau Patrick, *"L'art de mentir"*, Focus, mensuel, n° 256, Février 2014.

لا يقتصر الإغفال إذًا على الدعاية السّياسية، وإنّما يبدو في صلب الدعاية التجارية أيضًا. لنتذكر مثلًا: كم من السنوات مضت، وكم من الناس ماتوا قبل أن تفرض الدول المتقدمة على شركات التبغ وضع عبارة تقول: «إنّ التدخين يتسبب بموتك». أمّا الأمثلة السّياسية فهي أكثر من أن تحصى. لا نجد مثلًا كثيرًا من المعلومات الطبية عن صحة الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، ولا عن صحة العاهل السعودي الملك سلمان بن عبد العزيز، لأنّ أي معلومات تكشف عن وهن جسدي أو عقلي تفترض «فعل» التغيير الذي سيطالب به الجمهور الجزائري أو السعودي. هنا يصبح الإغفال أو الإنكار أو التغييب المتعمد لمعلومة سياسية، في صلب إستراتيجية الحفاظ على السلطة وتلميع صورة الحاكم، ولا يقتصر الأمر على الدول النامية. فالرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران أخفى طويلًا مرضه، تمامًا كما أخفى لأكثر من عشرين عامًا وجود ابنة غير شرعية له اسمها «مازارين». وحتى اليوم لا يعرف أحد كيف مات الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات. هل مات مسمومًا كما يقول بعضهم أم بسبب تفاقم أمراض قديمة عنده؟

حين يقول **شارودو** بأنّ عدم الكذب في السّياسة مستحيل، فإنّ هذا صحيح إلى حدّ بعيد. قد يكون الكذب متعمدًا لإخفاء حقيقة ما أو ترويج فكرة ما أو بسبب القلق أو الخوف من ردود الفعل، أو لتجميل صورة الخطيب، لكنّه قد يكون أيضًا لاإراديًا وفق **سقراط**. فهو يقول: «بالنسبة إليّ، أنا واثق أنّه ليس بين الناس العاقلين من يعتقد أنّ إنسانًا يخطئ إراديًا أو يقوم إراديًا بأعمال سيئة ومخزية.

إنهم على العكس يعرفون أنّ جميع أولئك الذين يرتكبون أعمالًا سيئة ومخزية يرتكبونها لاإراديًا»(١).

ما يقوله **سقراط**، يعيدنا إلى جدل كبير حول مفهوم الدعاية السّياسية، فهل هي دائمًا سيئة أم أنّها قد تفيد الناس في مكان معين إذا ما أُحسن استخدامها، وصدقت أهدافها. التمييز هنا مهم ما بين الدعاية التجارية التي تكتفي بدفع الناس إلى الحلم أو إثارة الرغبة بالشراء دون أن تلتزم بتحقيق ما يصبون إليه بعد شرائهم السلعة، وبين الدعاية السّياسية التي سرعان ما ترتد على مُطلقها ومستخدمها إذا لم يفِ بما وعد به. اللافت للانتباه هنا، هو أنّ الناس قلّما يحاسبون شركة تجارية لأنّها كذبت بدعايتها، بينما هم سريعو ردة الفعل على السّياسي إنْ كذب.

يعتبر شارودو أنّ «الكذب» هو «فعل كلام يخضع لـثلاثة شروط: قول عكس ما نعرف ونفكر، وعي ذلك؛ أي إنّه فعل إرادي. وإعطاء المتلقّي إشارات تجعله يعتقد أنّ ما يقال مشابه لما نعرف أو نفكر»(٢)، وهو يميز بين الكذب أمام فرد واحد وأمام جمهور، ذلك أنّه في الحالة الثانية قد يرتّب الكذب مسؤوليات على قائله. هنا يكون الكذب متعمدًا، نعرف أنّنا نكذب لكننا نقول عكس ما نفكر، لأنّ ما نفكر فيه قد يسيء إلينا، فلا بأس أن يصطنع الخطيب فكرة أخرى، المهم هو جذب المتلقي إليه.

---

(١) كيسيديس ثيوكاريس، سقراط، مسألة الجدل، ترجمة طلال السهيل، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦، ص ١٩٦.

(2) Charaudeau Patrick, l'art de mentir, Focus....op.cit..

يحتاج صاحب الخطاب في هذا السّياق إلى أن يعي تمامًا ما يريده المتلقّي ويعرف بيئته ومؤثراته لأنّه عبرها يستطيع إقناعه بأنّ الكذبة تلبي ما ينتظره وما يريده من رجل السّياسة، شرط ألّا يعرف أنّها كذبة. هذا جوهر الدعاية السّياسية.

لو دققنا في أي خطاب سياسي، سنجد الكثير من جوانب فن الكذب حاضرة ولو بنسب متفاوتة. قد تبدو المناهج التحليلية، الكمية أو النوعية أو اللسانية التي تعتمد فقط على الجمل، قاصرة عن رصد الكذب والدعاية وفهم المقاصد واستنتاج الأهداف السّياسية المقصودة.

فمثلًا، لو اعتمدنا على «التحليل الكمي» وأحصينا عدد المرات التي تتكرر فيها كلمة «الأبرياء» في أي خطاب لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، قد نصل إلى نتيجة أن الرجل مهتم فعلًا بالسّلام مع الفلسطينيين والجوار العربي وبحياة المدنيين، لكنّ الوقائع على الأرض أثبتت دائمًا عكس ذلك. هو هنا يمارس أقصى أنواع الكذب بمبررات تعتمد على كلمات تثير المشاعر بالرغم من أنّها تناقض كلّ المنطق والعقل. لذلك نسعى في هذا البحث إلى رصد «أفعال الكذب» من خلال الملفوظات التي تتخطى الجمل والعبارات المكتوبة. ولو تمّ تطبيق منهج كهذا مثلًا على كلام نتنياهو لوجدنا أنّ الدعاية السّياسية في جانبه الكاذب هي الأكثر حضورًا حين يتعلق الأمر بكلامه عن حماية الآمنين الفلسطينيين من «الإرهابيين» أو «المخربين».

لم يعد الكذب في الخطابات السّياسية وفي الإستراتيجيات

الدولية أمرًا غريبًا أو مستغربًا، حتى لا يكاد يخلو خطاب محلي أو دولي من بعض الكذب الذي يبرره القادة بالدفاع عن مصالح بلادهم أو حماية شعوبهم. وبقدر ما ساهمت وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة في نشر الكذب السّياسي على نحو واسع، فإنّها في القابل قد ساهمت في مراقبة هذا الكذب وتفنيده ومواجهته، لكن: غالبًا ما يتبين أنّ كشف الحقيقة قد تمّ بعد فوات الأوان، وبعد أن تكون الدولة المعنية قد حققت مآربها بضرب دولة أخرى أو تشويه صورة الخصوم أو الحصار والعقوبات وغيرها.

في سعيه لرصد أسباب الكذب السّياسي والمضمر والمسكوت عنه في الدعاية، يقول الكاتب والأكاديمي الأميركي «جون ميرشماير»: «يعتقد القادة في بعض الأحيان بأنّ عليهم واجبًا أخلاقيًا لأن يكذبوا لحماية بلادهم. فالقادة والزعماء لا يكذبون دومًا حول السّياسة الخارجية بالطبع، لكنهم يقولون أشياء من وقت إلى آخر، أو أنّهم يوحون بأشياء عن سابق قصد وتصميم وهم يعلمون علم اليقين بأنّها ليست صحيحة، لا يعاقبهم الجمهور عادة على الخداع الذي يمارسونه ما لم يؤدِّ ذلك الخداع إلى نتائج مسيئة. يبدو أنّ القادة والزعماء وجمهورهم يؤمنون بأنّ الكذب هو جزء لا يتجزأ من العلاقات الدولية»[1].

---

(١) ميرشماير، لماذا يكذب القادة والزعماء، حقيقة الكذب في السياسة الدولية، ترجمة د. عبد الفتاح عمورة، دارالفرقد، دمشق، ٢٠١٦. ص ١٢ و٢٢. المرجع السابق ذكره، ص ٢١ و٢٢.

إنّ التغرير بالمستمع أو المشاهد أو بالقارئ من قبل رجل السّياسة، يهدف إذًا إلى التأثير في المتلقّي بغية جذبه لقبول وجهة نظر معينة والعمل على تطبيقها. كلّ الوسائل تصبح مبررة، وهي قد تكون مباشرة وظاهرة للعيان في الدول الشمولية، أو تكون مضمرة تعتمد على إستراتيجيات أدق في الدول الديمقراطية. لكنها في الحالتين إنّما تنشد تأييد رجل السّياسة أو تنفيذ ما يريده من خطابه.

ثمَّة من أراد التمييز بين الاحتيال الخطابي المتعمد وبين السعي للإقناع من خلال مجموعة من الذرائع والحجج. هؤلاء اقتربوا من فكرة سقراط الآنفة الذكر. من هؤلاء (Grize) الذي يقول: إنّ المحاجّة (argumentation) لا تنظر إلى المتحدث (الخطيب السّياسي مثلًا) على أنّه «عازم على التغرير وإنّما بكونه يضع نفسه مكان الآخر ويحاول مشاركته وجهة نظره»[1].

أي إنّ السّياسي لا يريد بالضرورة التغرير بمتلقّي خطابه، وإنّما يسعى، عبر ما يتضمن الخطاب من أفكار وإستراتيجيات، إلى إقناعه بصوابية ما يطرح على أمل أن يشاركه في وجهة نظره. هنا الدعاية السّياسية تكتسب شيئًا من المصداقية والقدرة على تبرير نفسها على أنّها مجرد وسيلة إقناع وليست وسيلة كذب وتغرير وخداع.

بغضِ النظر عمّا إذا كان الكذب السّياسي متعمدًا أو عن غير قصد، وإذا كان ظاهرًا للعيان أو مضمرًا وبحاجة إلى تمحيص وبحث دقيق، فإنّه يهدف إلى إقناع المتلقّي بفكرة صحيحة أو غير صحيحة،

---

(1) Grize Jean-Blaise, logique et langue, Paris: Ophrys, 1997, P. 41.

لإنتاج «فعل الفعل» وفق النظرية البراغماتية. أي دفع المتلقي للقيام بعمل ما يناسب إستراتيجية المُلقي. أو لإنتاج «فعل عدم الفعل» أي إقناع المتلقّي بعدم القيام بفعل ما قد يخدم خصومه. ولكي يصل إلى هدفه هذا فإنّ الخطيب يلجأ إلى خزان المشاعر والمعتقدات والموروثات عند المتلقّي. ذلك أنّه خلف الخطاب «تكمن دائمًا الرغبات والمعتقدات، وبالتالي فإنّ العلاقة التي ننسجها مع العالم غالبًا ما تكون مشروطة بطبيعة رغباتنا ومعتقداتنا، وبالقدرة التي نعتقد أنّنا نملكها لتحويل ما لا يناسبنا»[1].

إنّ الإستراتيجيات الإقناعية التي استندت إليها البراغماتية في البحث عن «أفعال» الخطاب تنطلق من فكرة أنّ السّياسي لن يقول مطلقًا كلّ الواقع، وإنّما سيختار من هذا الواقع ما يناسب الهدف الأول لخطابه أي «التأثير». وفي سياق الوصول إلى هذا التأثير فإنه سيختار عمدًا، أو في لاوعيه، مجموعة من الأفعال التي يعتقد أنّها تعزِّز سلطته وتجذب جمهور متلقّيه إلى التعاطف مع أفكاره ومساندتها والسّير في تطبيقها.

لا يقول السّياسي بشكل عام كلّ الحقيقة وإنّما يختار منها ما يتفق مع أهدافه. وهو قد يسكت في خطابه عن الأهم. هنا يصبح المسكوت عنه أيضًا، وليس المنطوق به فقط، نوعًا من التغرير السّلبي (إذا ما اعتبرنا أنّ التغرير الإيجابي هو ذاك المنطوق به).

(1) Danblon Emmanuelle, *La fonction persuasive,* Armand Colin, Paris, 2005, P. 168.

فالصّمت إذًا قد يعني «الخوف، أو القبول أو الرفض، أو الاحتقار، أو الانزعاج، أو الارتباك...الخ»[1].

مثالنا على أهمية دور الصّمت في تشويه صورة الخصم أو الدعاية السّلبية له في الخطاب السّياسي، هو تعمُّد أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله مثلًا تغييب وتجاهل الإشارة إلى خطاب رئيس الحكومة السّابق سعد الحريري بعد عودته إلى لبنان في ١٤ شباط/ فبراير ٢٠١٦. فهو لم يذكره بكلمة واحدة، الأمر الذي تمّ تحليله بأنّ نصر الله أراد تهميشه وتسخيفه وعدم إيلائه أيّ أهمية.

ثمة من انتقد أيضًا غياب أي ذكر لإيران في خطاب رئيس المكتب السّياسي لحركة حماس خالد مشعل بعد انتهاء حرب إسرائيل على غزة عام ٢٠٠٩ بالرغم من أنه شكر دولًا أخرى. تمّ تفسير الصّمت آنذاك بأنّ هذا المسؤول الإسلامي الفلسطيني تجنَّب الإحراج حيال دول أخرى تعتبر إيران خصمًا سياسيًا (مصر، السعودية، الإمارات، أميركا وغيرها).

في المثال الأول المتعلق بنصر الله، فإنَّه قد تعمّد إحراج الخصوم؛ أمّا في المثال الثاني فالصمت سبيل لعدم الإحراج. الواضح إذًا أنّ المنطوق به أو المسكوت عنه هما أسلوبان في التأثير على الجمهور، هما عمادان من أعمدة الدعاية السّياسية. هنا أيضًا ندخل في صلب مقاصد هذه الدعاية: أي تشويه صورة الخصم أو تغييب صورته لتحسين صورة الخطيب أو صورة حلفائه،

---

(1) "Le silence en politique", Mots, E.N.S. Editions, Lyon, 2013, N° 103, P. 7.

وهذه جميعًا من الإستراتيجيات المضمرة لا المعلنة في الدعاية السّياسية.

إنَّ المضمر والكامن تحت الجمل في الدعاية السّياسيَّة قد يكون أهمّ وأخطر ممَّا ورد فيه، لأنّه يشير إلى الموضوعات التي تحاشى صاحب الخطاب ذكرها خصوصًا إذا ما تعلق الأمر بخطاب شمولي، وذلك: «ظنًّا من صاحب الخطاب أنّ هذا يُعفيه من النقد العلني. والقاعدة الثانية الكبرى من قواعد تحليل الخطاب هي رصد «ما لم يفكر فيه الخطاب»! بعبارة أخرى إنّ دراسة تضاريس الخطاب الرئاسي ومفرداته قد تكشف أنّه تجاهل تمامًا موضوعًا رئيسًا يشغل الرأي العام في بلده أو في العالم»[١].

نلاحظ في الخطابات الأولى للرئيس بشار الأسد مع اندلاع شرارات الحرب، أنّها لم تتضمن إلّا نادرًا مفردات مثل «إيران» أو «المقاومة» أو «حزب الله» أو «روسيا». لو اعتمدنا التحليل الكمي وأحصينا هذه المفردات، قد نستنتج أنّ الأسد ليس مهتمًا بهذه الأطراف الحليفة له والتي لعبت دورًا بارزًا في دعمه والقتال إلى جانبه خلال الحرب. الحقيقة هي غير ذلك تمامًا، فالحرب السورية أثبتت أنّ التحالف ما بين الأسد وهذه الأطراف عضوي وإستراتيجي. ظهر ذلك أيضًا في الخطابات التي ألقاها الأسد في المرحلة الثانية من الحرب، أي حين انخرطت تلك الأطراف علانية في جبهات القتال. الصّمت في البداية، ثم الإفصاح في المرحلة الثانية مهمان

(١) السيد يسين، تحليل الخطاب السّياسي للرؤساء، الأهرام، العدد ٤٦٩، ٢ تموز/يوليو ٢٠١٠.

في فهم أساليب الدعاية والإقناع في الخطاب السّياسي بين الملفوظ والمسكوت عنه وبين المضمر والمعلن في الدعاية السّياسية. أي إنّه: بقدر ما يكون «فعل التلفظ» مهمًا لفهم أهداف الرئيس، فإنّ «فعل الصّمت» أو اللجوء إلى المضمر يكون هو الآخر كبير الأهمية.

يقول الباحث الاجتماعي والاقتصادي الجزائري المولد مختار لكحل، إنّ كثيرًا من الخطابات قد «ساهم في إنتاج صياغة شكل متفق عليه، يبتعد مضمونه كثيرًا عن الحقائق، وتكون وظيفته الأولى هي ما يرسمها له صاحبه من تهدئة عوامل القلق للسماح للسياسي بالبقاء في أروقة السلطة. أمّا الخطابات النادرة الحقيقية والمباشرة فإنّها فاجأت سامعيها؛ فحين قال شارل ديغول مثلًا عبْر خطابه الشهير في الجزائر عام ١٩٥٩ أمام جمهور من الأوروبيين والمقيمين والحركيين (الذين قاتلوا مع جيش الاحتلال ضد بلادهم) «لقد فهمتكم»، فإنّ المعنى الحقيقي لهذه الجملة لم يتحقق إلّا في ٥ تموز/ يوليو ١٩٦٢ أي تاريخ الاستقلال»[1].

- إذا كانت الدعاية السّياسية قد اعتمدت قديمًا على القدرات الخطابية عند رجل السّياسة، أو على قدرات بعض حاشيته ووزرائه على تجميل صورته وإقناع الناس بصوابية أفكاره، فإنّها حينذاك لم تكن تحتاج إلى كثير من وسائل الإقناع، ذلك أنّ الحاكم غالبًا ما كان محميًّا لجمعه

(1) Lakehal Mokhtar, *Dictionnaire de science poilitique,* 4ème édition, L'Harmattan, Paris, 2009, P. 142.

ما بين الدين والسّياسة، أو ما بين المقدس والشأن العام. اليوم تغيّر الوضع جذريًا مع غياب العامل الديني كداعم أساسي للسلطة في الدول المتقدمة أو في غيرها. صارت الدعاية السّياسية بحاجة إلى جسور أخرى للعبور إلى قلب المتلقّي وعقله. يقول **نعوم تشومسكي** إنّه في الدول المتقدمة أو تلك التي تتمتع بهامش كبير من الحرية، «من الأصعب بكثير ملاحظة كيفية عمل نظام البروباغندا حين تكون وسائل الإعلام عبارة عن مؤسسات خاصَّة، وحين تكون الرقابة تقريبًا معدومة»، لكن لا بدّ من الاعتراف أنّه في الدول المتقدمة والديمقراطية أو شبه الديمقراطية قد نجحت وسائل الإعلام فعلًا في فرض واقع جديد، ذلك أنّ كسر الحواجز ما بين الناس والسّياسي وانهيار الحواجز أمام وصول المعلومة بالاتجاهين، سمحا للناس العاديين باكتشاف الكثير من التلفيق والمضمر والتغرير في الخطاب السّياسي والدعاية المرتبطة به. ما عاد السّياسي هنا قادرًا على قول أي شيء وفي أي زمن ما لم يقرنه أولًا بالذرائع والحجج، ويوصله ثانيًا إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ[1].

بناءً على ما تقدم يمكن اختصار دور الدعاية السّياسية في الخطاب الحديث بالتالي:

(1) Chomsky Noam et Herman Edward, *La fabrication du consentment, De la propagande médiatique en démocratie,* Agone, Empalement Kindle 221.

- تقديم فكرة أو مجموعة أفكار مستندة إلى حقائق أو أضاليل إلى المتلقّي بغية إقناعه بصوابية خيارات المُرسِل وجذبه بالتالي إلى تبنّيها والدفاع عنها وتنفيذها.
- استخدام إستراتيجيات خطابية حديثة تستند إلى الموروثات الاجتماعية والثقافية والبيئة التي يتمّ فيها إنتاج الخطاب والقواسم المشتركة التي تجمع الخطيب بجمهوره، لإقناع المتلقي بأنّ ما يشاهده أو يسمعه إنّما يصبّ في خانة ما يطمح إليه.
- التركيز على كلّ ما يحرّك الغرائز والمشاعر والعواطف والعقل مقابل إغفال أو تغييب كلّ ما يسيء إلى أفكار الرجل السّياسي، واستثارة العواطف تتمّ أيضًا من خلال التركيز على الموروثات الاجتماعية والثقافية.
- الاعتماد على مجموعة من التقنيات في الشكل والمضمون لتبسيط الأفكار وإمرارها إلى المتلقي على أنّها جزء من منظومة أفكاره هو لا سواه، والاعتقاد أيضًا بأنّ الأفكار التي يقدمها السّياسي هي الوحيدة القادرة على الدفاع عن مصالح المتلقّي وضمان حياته ورفاهيته والدفاع عنه.
- إقامة سدّ منيع أمام هيمنة أفكار الخصوم وذلك من خلال تجاهلهم أو تسليط الضوء على أخطائهم.
- اختيار الزمان والمكان المناسبين للترويج للخطاب السّياسي بحيث تبدو الدعاية السّياسية في سياق زمني مناسب لحاضر الأحداث وتطورها.

- تلميع صورة السّياسي المقصود بالدعاية وتقديم أفكاره بأفضل قالب للتأثير في المتلقي.
- تشويه صورة الخصم عبر التركيز على أخطائه وتصويرها على أنّها ضارة جدًا بمصالح الناس أو خطيرة على المجتمع والدولة.
- دفع الناس لتأييد سياسة مخاطبهم وتبنّيها والعمل على تنفيذها.

إنّ السيطرة على العقل الجمعي (la masse) أو على الرأي العام، «باتت في أساس أي حكومة من الأكثر تسلطًا إلى الأكثر حرية، وهي تصبح أكثر أهمية في المجتمعات الحرة حيث لم يعد مجال للطاعة بالسوط»[1]، لذلك غالبًا ما نجد في الديمقراطيات الغربية انتشارًا للنوادي السّياسية واللوبيات أو مجموعات الضغط التي تسعى للسّيطرة على وسائل الإعلام والقطاع المالي والصناعات العسكرية. فهذه لو التقت جميعها أو أبرزها خلف رجل سياسي فإنّه يضمن ليس وصوله إلى السلطة والبقاء فيها فقط وإنّما أيضًا إقناع الناس بصوابية خياراته السّياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لا شكّ في أنّ شروط نجاح الدعاية السّياسية كثيرة، أبرزها امتلاك شخصية السّياسي للمقوّمات المقبولة والمتعارف عليها (شرعية السلطة). وإذا شذت تلك المقومات عن القاعدة التقليدية فيجب لها أن تتوافق مع حاجات الناس. حين تمّ انتخاب خوسيه

(1) Chomsky Noam, *Dominer le monde ou sauver la planète,* Traduit par Paul Chemla, 2005, Fayard, Paris, Emplacement Kindle 110.

موخيكا رئيسًا للأوروغواي، أو **لويس لولا داسيلفا** رئيسًا للبرازيل من الطبقات الفقيرة والعمالية والكادحة، فقد كان السّبب هو تصويت الفقراء في البلدين والطبقات المسحوقة التي تريد تحسين ظروف حياتها وترى في رئيسٍ من صفوفها أملًا بالمستقبل. لم يكن السَّبب خطابًا أيديولوجيًّا وإنَّما هو التجاوب مع هموم الناس ومطالبهم. هنا الدعاية السياسيَّة ليست بحاجة إلى الكثير.

هذا ما فعله أيضًا القيادي الناصري المصري **حمدين صباحي** في مصر خلال حملته للانتخابات الرئاسية حين رفع شعارًا بسيطًا ولكنّه مُعبِّر جدًا في خطابه، يقول: «واحد منكم». «فالدعاية لم تكن، ولن تكون، سوى عامل مساعد للعوامل الأصلية المكوِّنة للحركة الفعلية للتاريخ، وذلك مهما كانت كفاءة وحنكة القائمين عليها، وذكاء خططها وقدرتها على الانتشار. الدعاية لا يمكنها أن تنجح إلَّا إذا سارت في الاتجاه الذي يسير فيه التاريخ، وهو اتجاه مُركَّب تشارك فيه عوامل نفسية، ومعرفية، واقتصادية، وسياسية واجتماعية»[1].

إنّ نجاح الدعاية السّياسية في الخطاب السّياسي، أو في المرحلة التي تسبقه أو تليه، يستند إلى جملة من عوامل التأثير بينها ما يتعلق بالعائلة وبالمؤثرات الثقافية والاجتماعية وبالتربية والنظام التعليمي وبالدين والمعتقدات وبالتاريخ المشترك وبالأوضاع

---

(١) تايلور فيليب، قصف العقول، الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة سامي خشبة، عالم المعرفة، ٢٥٦. الكويت ص ١٨.

الاقتصادية والأمنية وبالعلاقات الاجتماعية وبطبيعة المجتمع المستهلك للسياسة.

إنّ حماية الأهل والعائلة، أي النواة الاجتماعية الأولى عند المتلقي، تكون مستهدفة بالدعاية التي يتضمنها الخطاب، والحرص على سلامة المجتمع يصبح من الأولويات يليه الحرص على المعتقدات الدينية في المجتمعات التي لا يزال الدين فيها أساسيًّا... إلخ. لذلك غالبًا ما نلاحظ في الخطابات السّياسية التركيز على هذه الجوانب الإنسانية والعائلية والاجتماعية عند رجل السّياسة.

في الكثير من المرات وجدنا أنّ الخطاب السّياسي للرئيس السّوري بشار الأسد، (موضوع دراستنا) ذهب صوب هذه المؤثرات جميعًا حتى ولو بدا في ظاهره مُركِّزًا فقط على الهموم السّياسية والاقتصادية والأمنية. تمامًا كما أنّ خطاب خصومه سعى من جانبه إلى التركيز على هذه الأسس في اتهامه الأسد بأنّه بات خطرًا على حياة الناس وأمنهم وسلامتهم واقتصادهم... ويجب رحيله.

منذ اندلاع أولى شرارات الحرب السّوريّة عام ٢٠١١، تبادل مؤيدو ومعارضو الرئيس بشار الأسد الاتهامات حول «التضليل» و«الدعايات الكاذبة». خصّص التلفزيون السّوري برامج ترصد أفلامًا تبثها قناتا الجزيرة والعربية لتفنيدها والتعليق عليها واتهامها بـ«الكذب»، تمامًا كما أنّ القناتين المذكورتين كانتا تبثّان معلومات تسعى إلى تكذيب أخبار النظام السّوري ووسائل الإعلام المؤيدة له.

لعل دخول التنظيمات التكفيرية والإلغائية والإرهابية على

المشهد السّوري قد لعب، هو الآخر، دورًا كبيرًا في الدعاية السّياسية، والرعب الذي كان يبثّه تنظيم داعش مثلًا، قبل احتلال أي منطقة، يذكرنا بما كان يفعله وزير الدعاية النازي **غوبلز** من رفع منسوب الرعب والتخويف في الدعاية السّياسية عبر الإذاعة لدفع المدن إلى الاستسلام. لم تتغير الدعاية كثيرًا، لأنّ غرائز الناس لا تتغير بسهولة.

الفصل الثاني

البراغماتية

«تعريفها وأسباب ظهورها وأفعال الكلام فيها»

القسم الأول

تعريف البراغماتية، أسباب ظهورها

١. تعريفها، جذورها

١. لمحة تاريخية

البراغمــاتية (Pragmatique) بالفرنـسيـة و(Pragmatics) بالإنكليزيـة، كلمـة اشـتُقت مـن الأصـل اليونانـي «Pragma» الـذي يعنـي الفعـل أو العمـل. هـي مذهـب فلسـفي وُلد مـن رحم الفلسـفات اللسـانية وأرِيـد لـه أن يركِّز على دراسـة العلاقـة ما بين النشـاط اللّغـوي ومسـتخدميه وفـق سياق محـدّد، ومعرفـة القصـد اللّغـوي أو اللّفظـي الـذي يتخطـى الجمـل والنّـص. لذلـك فهـي منذ نشـأتها الغربيـة خصوصًا على أيدي فلاسـفة إنكلوساكسـونيين ركّـزت علـى «أفعـال الـكلام» فـي الجمـل الملفوظـة أو المنطوقـة ومـا فـوق الجمـل وليـس علـى الجمـل وتراكيبها.

استندت البراغماتية إلى فكرة بسيطة في ظاهرها معقدة بتنويعاتها وتقاطعها مع علوم كثيرة. أرِيد لها أن تنظر إلى الكلام أو الخطاب على أنّه مجموعة من الملفوظات التي تحمل في طياتها أفعالًا أو تنتج أفعالًا؛ فمثلًا حين يقول الراهب أو رئيس بلدية لعروسين «إني أعلنكما زوجًا وزوجة» فهو بهذا لا يقول جملة

ليخبر شيئًا وإنّما لينتج فعل الزواج. هذا هو فعل كلامي براغماتي. أي إنَّ لكلّ قول فعله، ذلك أنّه لا يوجد ملفوظ أو منطوق لساني قائم بذاته، وإنّما يكتسب أهميته من خلال الفعل الذي ينتجه. قد يكون الفعل مجرد شكر وتهنئة أو يصل إلى حدّ الأمر والتحذير والوعيد والتهديد.

لم يعد مهمًا مع هذه النظرية الفلسفية التي شغلت اللسانيين خصوصًا منذ الثلث الأول من القرن الماضي، أن نعرف: هل الجملة صحيحة أم لا؟ (كما كان شأن الفلسفات والفلسفات اللسانية سابقًا)، وإنّما الأهم هو تأثيرها في المتلقّي من خلال الفعل الذي تنتجه.

على غرار أي مذهب أو علم لساني جديد، لاقت نظرية البراغماتية، في بعدها المتعلق بالأفعال الكلامية، اعتراضات وانتقادات؛ لا بل قوبلت عند البعض بالسخرية والاستخفاف قبل إثبات جديتها وجدارتها كفلسفة قادرة على معرفة المقاصد المعلنة للكلام أو تلك المسكوت عنها. (المسكوت عنه والذي قد يكون في بعض الخطابات السّياسية أهم من المصرح به كما رأينا سابقًا).

والواقع أنّ تعريف هذا المذهب الجديد لم يكن يسيرًا منذ البداية، خصوصًا أمام الحملة التي تعرض لها من منطلق أنّه لا يقدم جديدًا. فقد كان تحفظ الفلاسفة واللسانين كبيرًا عنه في البداية، ربَّما لأنّه ينسف بعضًا من مقومات الفلسفات التي سبقت. هذه الصعوبات نكتشف بعضها في كتاب «مدخل إلى البراغماتية». يقول مؤلفاه:

«إنّ صعوبة تعريف البراغماتية كانت أمرًا دائم الإشارة إليه. ذلك أنّ البراغماتية بقيت طويلًا عرضة لقلة احترام اللسانيين، وأُلصِقت بها تعريفات تسخفها ولا تليق بمفهوم جديّ، فقيل عنها «سلة مهملات براغماتية» أو «مقصف إسباني» أو «بقايا تحليل لساني» أو «مستودع لساني». ولأنها ولِدت من نظريات فكرية مختلفة، منطقية وفلسفية ولسانية، فهي لم تحظَ بتعريف موحد، لكنّ نقطة مشتركة جمعت بين كل هذه المصادر، وهي مفهوم المعنى، أو على نحو أكثر دقة مشكلة المعنى»[1].

لا يوجد تاريخ محدّد لنشأة «البراغماتية»، ربما لأنَّ كثيرين تطرقوا إليها عَرضًا أو عمدًا في دول متباعدة ولغات مختلفة. فقد أعاد بعض المدارس الغربية الأمر إلى عام ١٩٣٨ حين نشر الفيلسوف الأميركي شارل موريس (Charles Morris) مقالًا لموسوعة علمية ميّز فيه بين مذاهب عديدة للتعامل مع الكلام... وبينها البراغماتية التي -وفق نظرته- تتعامل مع العلاقة ما بين الإشارات ومستخدميها»[2]. قالت مدارس أخرى إنّ مقال الفيلسوف الأميركي شارل س. بيرس (Charles S. Peirce) بعنوان «كيف نوضح أفكارنا» عام ١٨٧٨ هو الذي أطلق التسمية للمرة الأولى، وذلك حين

(1) Garric Nathalie et Calas Fréderic, *Introduction à la pragmatique,* Hachette, Paris, 2007, Emplacement Kindle,P. 223.

(2) Reboul Anne, Jacques Moeschler, *La pragmatique aujourd'hui,* Editions du seuil, Paris 1998, P. 26.

قدم نظرية السّيميائية الثلاثية الأبعاد، واعتبر أنّ البراغماتية هي بعدها الثالث. عرّف بيرس البراغماتية على أنها المذهب الذي «يعالج العلاقات بين الإشارات وتفسيراتها ومستخدميها، وهي بالتالي تشمل ميادين مختلفة نفسية واجتماعية تتعلق بعمل الإشارات»[1]. لكن ثمة من قال إنّ بيرس قد أخذ هذا المذهب من فلاسفة آخرين ومن بينهم الفيلسوف الألمانيإيمانويل كانط (Emmanuel Kant)[2] وإنّ الفيلسوف وليم جايمس (William James) طوَّر ذاك المقال في محاضرة له عن البراغماتية عام ١٨٩٨. كانت المحاضرة بعنوان «المفاهيم الفلسفية والنتائج العلمية»[3].

لا تشذ هذه الاختلافات في التاريخ الغربي الأول لظهور البراغماتية عن أي اختلافات أخرى تعلقت بالمذاهب الفلسفية أو العلمية أو اللسانية؛ وباستثناء المرحلة اليونانية، فإنّنا قلّما نجد في المدارس الغربية من يبحث عن أصل عربي أو صيني أو هندي مثلًا في هذه الفلسفات. ذلك أنّ «فعل الكلام» ليس جديدًا على الفلسفات اللسانية كما يدَّعي بعض المدارس الأوروبية أو الإنكلوساكسونية، لكنّ ما جرى هو أنّ هذه المدارس قد طورته وجعلته علمًا قائمًا

---

(1) Garric Nathalie et Calas Frédéric, *Introduction à la pragmatique,* Hachette, Paris, 2007, Emplacement Kindle. 223.

(2) Ibid.

(٣) عكاشة محمود، النظرية البراغماتية اللسانية (التداولية)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١٠.

بذاته بغية تغيير بعض المسارات الفلسفية اللسانية وإخراجها من مقولة «الصح أو الخطأ». فهنا تحوَّل السؤال إلى البعد الأهم: ماذا نريد حين نتحدث أو نتكلم أو نتلفظ أو نلقي خطابًا؟

في هذا السّياق وجد بعض الفلاسفة واللسانيين العرب مثلًا، أصل البراغماتية في التراث العربي. يقول مسعود صحراوي صاحب كتاب «التداولية» (وهي إحدى الترجمات الأكثر شيوعًا للبراغماتية اللسّانية): «بُحثت ظاهرة الأفعال الكلامية في تراثنا العربي ضمن نظرية الخبر والإنشاء»،[١] وهو يسرد مجموعة كبيرة من النحاة والبلاغيين والفلاسفة والمناطقة، لكنّه يضيف: «غير أنّ البحث فيها، في تضاعيف هذا التراث الضخم، لم يكن مقصودًا دائمًا لذاته ولكن كثيرًا ما قُصد به غيره»[٢].

ما يقوله مسعود صحراوي، نجده مفصلًا عند عالم اللسانيات الفرنسي (Pierre Larcher) الذي كتب عن «البراغماتية قبل البراغماتية» وعاد في بحثه إلى ابن هشام الأنصاري. قال: «إنّ هذا النوع من الإنشاء المنسي من قِبل المستعربين وجدته قبَل أكثر من ربع قرن عند عالم النحو ما بعد المرحلة الكلاسيكية ابن هشام الأنصاري، من خلال شكل من أشكال تصنيف الملفوظات (في الجامع الصغير) حيث يقول: «إنّ الكلام قول مفيد وهو خبر

---

(١) صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨.

وإنشاء...»، كما وجدت أسئلة في نص موسع أكثر للنحوي نفسه هو شرح شذور الذهب»[1]. يذكر لارشيه مثالين على فعل الكلام عن الأنصاري: «أنت حرّ» وهو فعل تحرير العبد، و«قبلت هذا النكاح» فعل الزواج.

إنّ عبارة «أنت حرّ»، التي نقلها لارشيه (Pierre Larcher) عن الأنصاري، هي نموذج مهم عن أحد أبرز أسس البراغماتية اللسانية، أي «فعل الكلام». فسيّد العبد هنا (بالرغم من رفضنا لتسمية عبد) يستخدم الأفعال التالية: فعل التلفظ حين يقول أنت حرّ، والفعل الإعلاني حيث يعلن على الملأ أنّ العبد بات حرًا، والفعل الإنجازي الذي يُسْتكمل حين يصبح العبد حرًا. كما يُنتج السّيد هنا فعل السعادة عند العبد وربّما فعل الشكر أيضًا. جاءت البراغماتية لتوضح إذًا أنّ لكل ملفوظٍ (Enonciation) فعلًا كلاميًا (Acte de language) أو فعلًا خطابيًا أو(Acte de discours).

لا نجد طبعًا كل هذا التفصيل عند ابن هشام الأنصاري. فهذا المذهب البراغماتي في تفكيك كلّ كلام أو خطاب إلى ملفوظاته والبحث عن الأفعال فيها تطور لاحقًا؛ لكنّ اللافت أنّ نادرين جدًا على غرار بيار لارشيه هم الذين تنبّهوا أو اعترفوا بأنّ مثل هذه الأفعال بحثها العرب في تاريخهم الفلسفي حتى ولو أنّ بحثهم لم يكتمل كما هي الحال اليوم. هم لم يتنبّهوا أو ربّما تعمدوا عدم

---

(1) Larcher Pierre, Une Pragmatique avant la pragmatique, «médiévale, «arabe» et «islamique». Persée, 1998, Vol 20, Numéro 1, P. 102.

الانتباه خصوصًا أنّهم ذهبوا أبعد من التاريخ العربي صوب الفلسفة اليونانية. وما إشارتنا هذه إلى بعض الأصول العربية للبراغماتية إلّا محاولة للفت انتباه أهل الاختصاص عندنا، كما فعل بعض من سبقنا إلى هذه الناحية، لكي لا نتبنّى كلّ النظريات والمذاهب الغربية على أنّها صناعة غربية محضة ونتعامل معها على هذا الأساس. وقد لفت انتباهنا إلى هذا الأمر بعض البحوث والكتب العربية التي تناولت البراغماتية و«أفعال الكلام» منطلقة من أصل غربي فقط. (سوف نذكرها ونستند إلى بعضها في معالجتنا لأفعال الكلام).

في المقابل فإنّ العرب لم يجتهدوا إلّا لاحقًا، وبعد فترة متأخرة نسبيًا عن الغرب، في تطوير هذه الأفكار لتصبح مذهبًا فلسفيًا براغماتيًا معتمَدًا على غرار ما فعلته المدارس الغربية. لذلك نجد أنّ من عمِل بين الفلاسفة واللسانيين العرب على نظرية البراغماتية، إنّما استند لاحقًا إلى مفاهيمها الغربية. هذا ما يفسر على الأرجح تعدّد الترجمات العربية لكلمة (Pragmatique)، وميلها أكثر نحو الأصل الفرنسي، ربّما لأنّ لسانيي المغرب العربي القريبين جغرافيًا من فرنسا كانوا في طليعة من اهتم بها. نجد أيضًا أنّ الترجمة (أو التعريب) لم تستقر على كلمة متفق عليها بين كلّ المعاجم اللغوية العربية أو بين اللسانيين.

ظهرت في الترجمات والتعريف للبراغماتية أسماء عديدة، من بينها: «التداولية» أو «التداولية اللسانية»، أو «الذرائعية» أو «التخاطبية»، أو «السّياقية» أو «الذرائعية» أو «الذريعية» أو «الفائداتية»

أو «الفوائدية» وغيرها، لكنّ أبرز اللسانيين العرب مالوا بمعظمهم إلى التداولية أو التداولية اللسانية.

من خلال بحثنا في الدراسات العربية حول البراغماتية، تبين أنّ بعضها يخلط بين البراغماتية ذات الفعل اللغوي وبين البراغماتية الذرائعية، ربّما بسبب ضيق أفق الترجمات عند غير أهل الاختصاص. هناك فرق، كما أسلفنا في مقدمة هذه الأطروحة، بين البراغماتية اللسانية التي تبحث عن «الفعل» في الكلام أو الملفوظ أو الخطاب، وبين المذهب الفلسفي المعروف عربيًا باسم «الذرائعية» والذي «يرى في المنفعة معيارًا للحقيقة» والذي أسسّه وليم جيمس وجون ديوي.

لا بدّ إذًا من التمييز بين الكلمتين الفرنسيتين Pragmatique و Pragmatisme، فإذا كانت الأولى تعني ما شرحناه سابقًا من علاقة بين الإشارات أو العلامات ومستخدميها وبين قدرة القول فيها على إنتاج «فعل» في سياق محدد، فإنّ الثانية هي «مذهب فلسفي يَعتبر أنّ خاصية صحة فكرة أو نظرية ما ترتبط بقدرتها التأثيرية في الواقع، وهي في هذا المعنى مناقضة للدين»[1].

لكي نوضح الفكرة أيضًا ننطلق من عبارة شائعة عند العرب تقول: «إنّ فلان براغماتي». يراد بها الإشارة إلى شخص عقلاني لا يلجأ إلى ردود فعل عصبية أو متسرعة، وإنّما يحلّل ويحسب ويصل

---

(١) كاظم مرتضى جبار، اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٥، ص ١٥.

إلى خلاصات يتصرف على أساسها معتمِدًا في كلّ ذلك على المنطق والعقل وبرودة الأعصاب. أو يشار بها أيضًا إلى شخص لا تهمه العواطف بقدر المصالح والمنافع، أو إلى شخص لا يقبل إلّا الذرائع الدامغة.

البراغماتية (la pragmatique) التي نعتمدها منهجًا في تحليل خطاب الرئيس الأسد في هذه الأطروحة، ليست كلّ ذلك، إنّما هي تلك التي تربط الإشارات بمستخدميها وتبحث في الفعل المُنتج أثناء الكلام، وتدرس علاقة الفعل بالسّياق الذي يندرج في إطاره هذا «الفعل». وهي بالتالي تختلف كثيرًا عن تلك البراغماتية الفلسفية (le Pragmatisme) التي أطلقها ديوي وغيره وفق ما شرحنا في مقدمة البحث.

زاد في ضبابية المشهد أيضًا، عدد من التوصيفات للبراغماتية انطلاقًا من بعض العلوم اللسانية أو الفلسفية التي ربطتها بها. فقد نجد مثلًا «البراغماتية الفلسفية» أو «البراغماتية اللسانية» أو «براغماتية الكلام». لكنّ الفيلسوف وعالم المنطق تشارلز وليام موريس، (C. W. Maurice) ومنذ أن وضع عام ١٩٣٨ نظريته السّيميائية الثلاثية الأبعاد، أشار بوضوح إلى المذهب الجديد المسمى فقط بـ«البراغماتية». وأمّا أبعاده الثلاثة فكانت أولًا «التركيبية» المتمحورة حول العلاقة القائمة ما بين الإشارات نفسها، وثانيًا: «الدلالية» التي تعالج علاقة الإشارات بالأشياء، وثالثًا وأخيرًا «البراغماتية» التي أرادها مذهبًا يعالج العلاقات بين الإشارات

وتفسيراتها ومستخدميها، وهي بالتالي لا تقتصر على علم فلسفي أو اجتماعي أو لساني واحد وإنّما قد تشمل مجموعة من العلوم اللسانية والاجتماعية والفلسفية والنفسية وغيرها[١].

هذه الأبعاد الثلاثة التي تحدّث عنها مورس نجد لها صدى في كتابات فلاسفة آخرين ذكرتهم الباحثة اللسانية فرانسواز أرمانغو (Françoise Armengaud) في كتابها عن البراغماتية، وهي تقول إنّه إذا كانت الدرجة الثالثة هي المتعلقة بـ«أفعال الكلام» فإنّ الأولى هي التي تدرس الرموز ذات المرجعية أو العبارات التي يختلف مرجعها عبر ظروف استخدامها أو من خلال سياقها؛ أمّا براغماتية الدرجة الثانية فهي «دراسة الطريقة التي ترتبط فيها العبارة بالجملة المنطوقة، أي إنّ العبارة يجب أن تكون متمايزة عن المدلول المباشر للجملة»[٢].

يتبنّى د. محمود شحاته في كتابه «النظرية البراغماتية اللسانية» تقريبًا كلمة «التداولية» لكنه يبقى أكثر ميلًا إلى البراغماتية اللسانية ويقول إنّ: «البراغماتية اللسانية (linguistic Pragmatics) أو التداولية اللسانية هي نفسها التداولية (Pragmatics) التي شاعت في البحوث العربية، وقد اخترت البراغماتية اللسانية لدلالتها على المفهوم العربي الدقيق وللتفرقة بين المصطلح اللسّاني الحديث

---

(1) Marcel Gabriel, *Le Journal métaphysique,* Gallimard, Paris, 1927, P. 258.

(2) Armengaud Françoise, *la Pragmatique* 5ème Edition, PUF, Paris, 2007, Kindle, emp 808.

والمصطلح الفلسفي (Pragmatism)، وقد ترجم الأخير إلى البراغماتية والفوائدية والنفعية والعملية».

التداولية في معناها اللغوي مشتقة من فعل «تداولَ» ومن اسم «تداول»، وهما يوحيان إذًا بالحركة والتواصل والنقل والدوران. وقد تبنى الفيلسوف المغربي المتخصص بالمنطق وفلسفة اللّغة والأخلاق طه عبد الرحمن المصطلح التداولي منذ سبعينيات القرن الماضي، وذلك في سعي واضح منه للربط ما بين القول والفعل، وما بين المرسِل والمتلقي. يقول: «وقع اختيارنا منذ ١٩٧٠ على مصطلح التداوليات مقابلًا للمصطلح الغربي براغماتيًا لأنّه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيي الاستعمال والتفاعل معًا. كما أنّنا وضعنا مصطلح المجال التداولي الذي يتردّد في النّص. وقصدنا به كلّ المقتضيات العقدية والمعرفية واللغوية - القريب منها والبعيد - المشتركة بين المتكلم والمخاطب والمقوِّمة لاستعمال المتكلم لقول من الأقوال بوجه من الوجوه»[1].

من جهتنا سنتبنّى التعريف ذا الأصل الغربي: «البراغماتية» أو نعتمد «القولفعلية» بانتظار أن تنجح المجامع اللغوية العربية أو بعض نحاة لغة الضاد، بالاتفاق على تعريف يصف بدقة «فعل الكلام». ومثل هذا الميل نحو الكلمة الأصل ليس جديدًا، فهذه كانت حال «الليبرالية» و«الفاشية» و«الراديكالية» و«الدكتاتورية».

(١) عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت. الطبعة الثانية ٢٠٠٠، ص ٢٨.

فلو أردنا إيجاد كلمة مناسبة للمعنى الدقيق لأفعال الخطاب في البراغماتية لفكّرْنا في كلمة ثنائية التركيب من نمط «القولفعلية» وهي التي تجمع القول والفعل.

أمّا دخول البراغماتية إلى الوطن العربي على نحوها الغربي الحديث، فيعيدها شحاتة إلى الترجمات الأولى في ستينيات القرن الماضي، ويقول: «إنّ المصطلح الفلسفي (pragmatism) عرفته العربية بلفظه الدخيل (البراغماتية أو البرغماتية أو البرغمتية) من خلال البحوث الفلسفية التي قام بها بعض الباحثين المبعوثين لدراسة الفلسفة الحديثة في الغرب، ومن خلال ترجمة بعض أعمال وليم جيمس وأشهرها كتابه (pragmatism) الذي تُرْجم إلى العربية في النّصف الأول من القرن العشرين. وبعضهم استخدم مصطلحات «الذرائعية» و«النفعية» و«العملية» ترجمة له، وقد رصدتْ ترجمة المصطلح في حقل علم اللسان، والراجح، فيما علمت، أنّ الترجمة الأولى علم الذرائعية ثم علم الفائداتية (الفوائدية) والترجمة الأولى من الناحية الدلالية: غير دقيقة، لأنّ الذريعة تعني: الوسيلة المفضية إلى الشيء... وقد ظهرت الترجمة الأخيرة (الفائداتية) في صدر الستينيات، والصواب لغويًا «الفوائدية» ثم ظهرت «التداولية»، وصارت أشهر ترجماته، وقد ظهرت في صدر السّبعينيات»[1].

---

(١) عكاشة، محمود، النظرية البراجماتية اللسانية والتداولية، مكتب الآداب، القاهرة، ٢٠١٣.

٢. أسباب ظهور البراغماتية

ظهرت البراغماتية لتملأ فراغًا تركته الفلسفات اللسانية والكلامية التي سبقتها والتي انحصرت في تفسير علاقة الإشارات بعضها ببعض وعلاقتها بالأشياء من نواحيها الدلالية. قدم هذا المذهب الجديد مفاهيمَ مغايرة لفهم الكلام ومدلولاته ومقاصده. فالكلام الذي كان معظم الفلسفات السابقة ينظر إليه على أنّه يجسّد العالم أو يفسره، صار له دور آخر يتعلق بـ «الأفعال» التي ينتجها أو يثيرها. صار لـ «السّياق» الكلامي أو الإطار العام للملفوظ دورٌ أيضًا في فهم مقاصد الكلام ورصد الأفعال المرتبطة به أو التي يحدثها؛ والسّياق يعني هنا شخصية المرسِل وشخصية المتلقّي والمكان والزمان وكلّ المُتعلِّق بما يتخطى الجمل ويحيط بها. صار يُنظر إلى الكلام أيضًا على أنّه حامل بذاته، ومن خلال التلفظ به، عواملَ تأثير في متلقيه.

مقابل تعدد الآراء واختلافها حول نشأة البراغماتية، حصل شبه اجماع على أنّ نظرية «أفعال الكلام» هي التي أحدثت الفرق في الغرب. اتفق كثيرون على أنَّ جون أوستن هو الأب المؤسس لهذه النظرة. لاقى هذا الفيلسوف والمحاضر في اوكسفورد وكامبريدج وهارفرد: شهرة كبيرة في بريطانيا وأميركا، بالرغم من أنه توفي عن ٤٨ عامًا. لم ينشر أيّ كتاب خلال حياته لكن بعد وفاته تمّ جمع محاضراته ومقالاته ومقابلاته ونشرت في ثلاثة كتب بينها كتابه عن «أفعال الكلام» عام ١٩٦٢. How to do things with words (كيف ننجز الأشياء بالكلام).

أراد أوستن من خلال سلسلة محاضراته، التي اعتُبرت لاحقًا بمثابة الأفكار الأولى المؤسسة للمنهج البراغماتي، وضعَ فلسفة جديدة تناقض الكثير من الأفكار التي سبقتها في التعامل مع النّص أو الخطاب، وتضع حدًّا للتفسير الذي يحصر وظيفة الكلام بوصف الحقائق.

توصّل أوستن إلى اقتناع مفاده أنّ ثمة جُملًا كثيرة ليست أسئلة ولا استفهامات ولا حتمية، لا تصف شيئًا ولا يمكن تقييمها من منطلق حقيقتها أو خطئها. هي بدلًا من أن تصف الحقيقة، تسعى إلى تغيير هذه الحقيقة، ولذلك فإنّها لا تقول شيئًا عن حاضر أو ماضي العالم، وإنمّا هي تغيِّر هذا الواقع أو تسعى إلى تغييره.

هذه الرغبة في التغيير أو التأثير هي التي قادت أرباب المذهب البراغماتي إلى بحث «أفعال الكلام» أو «أفعال الخطاب». ذلك أنّ الدلالة المباشرة للملفوظ في الخطاب لا تسمح بمعرفة المقاصد الحقيقية للخطيب. لا بدّ إذًا من فهم تلك المقاصد من خلال سياق استعمال اللّغة في ذاك الملفوظ. لا بدّ أيضًا من القفز فوق اللّغة نفسها لفهم بعض المقاصد من الإيماءات وحركات الجسد والصوت والتعبيرات الخارجة عن النّص.

كان وليم جايمس قد ترك أثرًا مهمًّا في عالم اللسانيّات حين وضع كتابًا بعنوان «البراغماتية» عام ١٩٠٧. صارت عبارته الشهيرة: «إنّ الأفكار ليست صحيحة أو خاطئة، وإنّما هي مفيدة أو غير مفيدة» صارت عنوانًا لمرحلة مهمة من البحث اللّساني على أساس

البراغماتية. بدا هذا الفيلسوف والبروفسور في جامعة هارفرد وكأنّه «يقدم نظرة داروينية للمعرفة، تقول إنّ أفكارنا هي وسائل عقلية أنتجها الدماغ بهدف حلّ المشاكل، وطالما أنّ هذه الأفكار مناسبة لاستخدام ما، نحتفظ بها ونعتقد أنّها حقيقية؛ وإذا ما تبين بالمقابل، في محيطٍ مختلف، أنّها غير مناسبة، فحينذاك نعلنها خاطئة»[1].

تطورت الفكرة من خلال التواصل بين جايمس وزميله الفيلسوف شارل بيرس (Charles S. Peirce) الذي اعتبره كثيرون بمثابة «الأب المؤسس» لنظرية البراغماتية. راح الفيلسوفان يعملان على تقديم أفكارهما الجديدة من خلال بعض النوادي العلمية في جامعة كامبريدج. وحين بدأت أفكارهما وأفكار الفلاسفة واللسانيين الإنكلوساكسونيين تصل إلى فرنسا، لاقت اهتمامًا كبيرًا خصوصًا ما تعلق منها بـ«أفعال الكلام» وتطبيقها كمبدأ تحليلي على الخطاب.

صار «فعل الكلام» مع هؤلاء الفلاسفة الجدد هو الوحدة الأساس أو جوهر البراغماتية. ناقضت هذه الأفكار الجديدة ما سبقها من نظريات ومذاهب فلسفية. كان في نقضهم لفكرة أنّ علم الإشارات والمعاني هو الذي يحدّد فقط معنى الجمل انطلاقًا من صوابيتها أو خطئها سعيٌ لمعرفة ليس ما تجسّده اللّغة وإنّما ما هو الفعل الذي تنتجه حين تُقال. وبما أنّ العبارات تُقال عادة من قِبل مخاطِب إلى مُخاطَب، أصبح من الطبيعي التركيز على

---

(1) Dortier Jean-François, Le Pragmatisme, une philosophie venue d'Amérique, Sciences Humaines, Janvier-Février 2001, N° 30, P.

الفعل الخطابي من خلال تلك العلاقة المعقدة التي تربط المرسِل بالمتلقّي. فإنتاج فعل الخطاب من قِبل الأول يكون له هدف واضح هو «التأثير» في الثاني، أي في مستقبِل هذا الخطاب. التأثير هنا ينتج من فعل الخطاب ويؤدِّي إلى القيام بفعل ما أو إلى الإحجام عنه.

على غرار كل المذاهب الفلسفية التي دارت حول تفسير الكون والإنسان والظواهر والإشارات والأشياء وغيرها، كان السؤال الأهم هنا هو التالي: «ماذا يريد الإنسان حين يتكلم؟».

اشتُقَّت من هذا السّؤال المركزي أسئلة كثيرة أخرى حاولت عالمة اللسانيات الفرنسية المتخصصة بالبراغماتية فرنسواز أرمانغو (Françoise Armengaud) حصرها بالتالي: «ماذا نفعل حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا على المأدبة إذا كان بإمكانه أن يعطينا علبة الثوم بينما من الواضح تمامًا أنّه قادر على ذلك؟ من يتحدث إلى من؟ من يتحدث مع من؟ من يتكلم ولماذا؟ من تعتقدني كي تكلمني هكذا؟ ما الذي نحتاج إليه لكي يتوقف غموض هذه الجملة أو تلك؟ ما هو الوعد؟ كيف يمكننا أن نقول شيئًا مغايرًا لما نريد قوله؟ هل يمكننا الوثوق بالمعنى الحرفي للعبارة؟ ما هي استخدامات الكلام؟ بأيّ شكل يمكن تحديد الحقيقة البشرية من خلال قدرتها الكلامية؟»[1].

---

(1) Armengaud Françoise, *La pragmatique,* Que sais-je, PUF, Paris, 5ème édition 2007,P.49.

عبر هذه الأسئلة وغيرها، سعت أرمانغو إلى تفسير أهمية البراغماتية في تحليل الجملة الملفوظة أو الخطاب. فهي بسؤالها مثلًا: «ماذا نفعل حين نتكلم» تربط الكلام بفعل القول، وتعيدنا إلى الفكرة المركزية في البراغماتية والقائلة بأنّ لا ملفوظ بلا فعل. هي تحاول أيضًا أن توضح خاصية أخرى من خصائص هذا المذهب الفلسفي التحليلي والمتعلق بتفسير مقاصد الكلام. فلو فسرنا الجملة الملفوظة على نحوها الظاهر لما أدَّى التفسير غرضَه ومبتغاه. علينا في المقابل أن نبحث عن الفعل المقصود إنتاجه من خلال هذا القول، لذلك طرحت أرمانغو السّؤال الأهم: «كيف يمكننا أن نقول شيئًا مغايرًا لما نريد قوله».

إنّ هذه الخاصية المتعلقة بالمقاصد الفعلية للكلام، موجودة في صلب الخطاب السّياسي. ذلك أنّ المسؤول السّياسي لا يريد دائمًا أو لا يستطيع دائمًا أن يقول حقيقة ما يفكر فيه، لكنّه يريد من المتلقّي فعل ما يفكر فيه. هنا القول يتناقض تمامًا مع الفعل لكنه يُفضي إلى الهدف الذي ينشده السّياسي. فحين يقول رئيس دولة ما مثلًا: «أنا أترك السلطة حين يطالبني شعبي بذلك»، فهو ربَّما يقصد قوله حرفيًا كما نطق به، لكنّه قد يقصد العكس تمامًا، أي إنَّه يريد من شعبه إبداء التعاطف معه لكي يبقى أكثر في السلطة. هذا ما تمت تسميته بـ«فعل الكلام غير المباشر»، ولكي ينجح مثل هذا الفعل الخطابي، ينبغي على السياسي الإدراك والتأكد سلفًا أنّ شعبه أو جزءًا كبيرًا منه سيقول له أن يبقى في السلطة. لذلك تحدث فلاسفة

البراغماتية عن شروط فشل أو نجاح «فعل القول» من خلال «إنجاز الفعل» بعد القول. فشرط نجاح خطاب الرئيس هنا يكمن في أن «يُنجِز» شعبه «فعل التعبير» عن تأييده له أثناء الخطاب أو بعده مباشرة. بات فعل الكلام أو فعل الخطاب الذي قد يكون وعدًا أو أمرًا أو تهنئةً أو سؤالًا أو تحذيرًا، يخضع لعدد من الشروط السّياقية الرابطة بين المرسِل والمتلقّي، بحيث إنّ إنتاج هذا الفعل يتطلب شروطًا نفسية وفلسفية واجتماعية وقواسم مشتركة ما بين الجانبين لكي يكون فعلًا ذا تأثير.

الباحثة اللسانية التي تعمقت كثيرًا بالمذهب «البراغماتي» كاثرين أوركيوني (Catherine Kerbrat-Orecchioni) عرَّفت البراغماتية على أنّها: «دراسة الكلام في خلال الفعل»[1]. هذا الرابط العضوي بين الكلام والفعل وضع حدًا لعقود طويلة من سيطرة الفكرة القائلة بأنّ الكلام يناقض الفعل. نجد هذا التناقض في عبارات كثيرة عند العرب وغيرهم، ذلك أنّه لو أراد شخص ما أن يعيب على الثاني كثرة كلامه وقلّة فعله، يقول: «كلّ هذا كلام» أو «هذا مجرد كلام». على عكس هذا تمامًا، بيّنت نظرية البراغماتية أنّ لكلّ كلام فعله، وكشفت عن سلسلة طويلة من الأفعال الظاهرة أو المضمرة.

نفهم ممّا تقدم أنّ الهدف من البراغماتية كان قد تجاوز الدور الوصفي للّغة وإدخال مذهب فلسفي جديد يتخطى المذاهب

(1) Catherine Kerbrat-Orecchioni, *Les actes de langages dans le discours*, Armand Colin, Paris, 2014, P.1.

التقليدية وينحو صوب ما وصفه أوستن بـ«الجمل الإثباتية» و«الجمل التقريرية» و«الجمل الإنجازية»، وهي في الواقع بمثابة الأفعال وليست مجرد جمل. لعل الاهتمام الذي قابل المذهب البراغماتي اللساني بُعيد ترسيخ أُسسه، وبعد مرور موجة التشكيك فيه، استند إلى الرغبة في البحث عن دور آخر للكلام في العلاقات بين البشر، وفي معرفة حدود تأثير الكلام أو الملفوظات في المتلقي عبر تفكيك الجمل إلى أفعال. نلاحظ أنّ هذه المذاهب اكتسبت أبعادًا كثيرة في المجتمعات الغربية منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، وأيضًا بعد الثورات اليسارية والطلابية وغيرها في هذه المجتمعات. صار لذلك مكان مهم في أنماط التفكير الفلسفية خصوصًا وأنّ الخطاب السّياسي راح يلعب أدوارًا مهمة ليس بين النخب فقط وإنّما على مستوى عامة الناس أيضًا، وانتشرت الأفكار الكبرى السّياسية والاجتماعية والفلسفية مع انقسام العالم إلى تيارين: اشتراكي وليبرالي.

حين رغب أوستن في وضع حدّ للفكرة الفلسفية التقليدية القائلة بأنّ التركيبات اللسانية للّغة تنحصر بتفسير الجمل على أساس أنّها صادقة أو كاذبة، أو لها معنى أو غير ذات معنى، قال: «إنّ هذا منطقي إذا كانت القضايا الأخلاقية (éthiques) (ملفوظات الأخلاق إنجيلية أو كنسية) قد أثارت انتباه الفلاسفة، ومع ذلك فهذه العبارات ليست لا إثباتات، ولا عبارات بلا معنى. ويقدم أوستن (Austin) فرضية أولى مفادها أنّ اللّغات الطبيعية تنتظم ولها تمييز وظيفي

بين نمطين من الملفوظات (باستثناء تلك التي ليس لها معنى) هما الملفوظات التقريرية (constatifs) التي تصف وضعًا، (السماء زرقاء مثلًا)، والملفوظات الإنجازية التي تسمح بإنجاز فعل ما (أعدك بحلّ المشكل)»[١]. من البديهي القول إنّ البراغماتية اللسانية لا تأخذ أبعادها الاجتماعية والسياسيَّة المهمة إلّا من خلال العلاقة ما بين الفاعل والفعل ومتلقّي هذا الفعل. (في أطروحتنا مثلًا بين الأسد وجمهوره والأفعال المنشودة من خلال الخطاب). هنا ذهب بعض الفلاسفة إلى التعمق أكثر في البحث التواصلي للبراغماتية. من هؤلاء الفيلسوف اللساني الفرنسي (Francis Jacques) الذي اعتبر أنّ البراغماتية: «تعالج الكلام كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية»[٢]هذا البعد «التواصلي» هو في جوهر الخطاب. ذلك أنّ الملفوظ لا يحمل الفعل في ذاته لذاته أو لأجل صاحب الخطاب أو المتكلم، وإنّما ليكون له أثر اجتماعي أو سياسي. لا يتمّ ذلك إلّا من خلال التواصل مع الآخر، إمّا مباشرة وإما من خلال وسيلة اتصال (تلفزيون، إذاعة... شبكة الإنترنيت والتواصل الاجتماعي. الخ). هذا يعيدنا إلى العناصر التي ذكرناها سابقًا حول الخطاب، والتي تفترض مُلقيًا ومتلقيًا وسياقًا ووسيلة تواصل وزمنًا ومكانًا محدّدين.

لم تقتصر البراغماتية على أفعال الكلام (أو الخطاب) وشروط

---

(١) بافو ماري آن وسرفاتي جورج اليا، النظريات اللسانية الكبرى، ترجمة محمد الراضي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٢، ص ٣٥٤.

(2) Armengaud, *La pragmatique,* Puf, 5eme éditions, 2007, Paris.128.

استخدامها، ولكن أيضًا على الوسائل اللغوية وغيرها التي يستخدمها المخاطِب في إنتاج فعله الخطابي وإيصاله إلى المتلقّي المخاطَب، وعلى الإستراتيجيات المتَّبعة للوصول إلى ذلك والتي قد تكون ظاهرة أو باطنة، كما أنّها ركّزت على السّياق الذي يُنتج فيه الفعل والشروط التي تفترضها العلاقة بين المرسِل والمتلقي من لحظة إنتاج الفعل الكلامي أو الخطابي وحتى إنجازه.

شهدت البراغماتية بعض التعديلات عليها عبر المدارس التي أعقبت أوستن وسيرل وبيرس وجيمس وغيرهم. بعض الفلاسفة صحّح، والبعض الآخر أضاف أفعالًا خصوصًا في المجالات التواصلية والتحادثية وغيرها، لكن مؤسسي المذهب البراغماتي أو أولئك الذين طوّروه، ركزوا جُلّ عملهم على الفكرة القائلة بأنّ لا قول بلا فعل، ولا خطاب بلا سعي للتأثير في المتلقي، ولا تأثير إلّا من خلال مجموعة من الموروثات والشروط الاجتماعية والثقافية والنفسية واللغوية والمعرفية والبيئية التي تربط الملقي بالمتلقي في مكان وزمان محددين.

٢. البراغماتية ما بين أفعال الكلام والخطاب السّياسي

١. ماهية أفعال الكلام

انطلق أرباب المذهب البراغماتي من فكرة أنّ الإنسان حين يتحدث فإنّما يُنتج «فعلًا»، وبذلك يصبح الأساس الأول لأي اتصال أو تواصل بين البشر ليس الجملة أو العبارة أو الصوت وإنّما الأفعال التي ستنتج من ذلك. أي إنّ فعل الكلام: «يشكّل نواة التواصل

وأساس تطور اللّغة وتجدّدها لأنّه يمتلك قيمة تعبيرية انطلاقًا من جمل محددة، لأنّ مصدر نباهة اللّغة طريقةُ استخدامها وهدفها»[١].

لو أخذنا مثالًا من العقيدة الإسلامية على فعل الكلام، نجد أنّ النطق (أو التلفظ) بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمدًا رسول الله) هو فعل كلامي ينقل قائله من حالة إلى حالة، أي من حالة اللاإيمان إلى اعتناق الإسلام، مثل هذا الفعل قد يؤدّي إلى إنتاج أفعال عديدة مهمة. بعض هذه الأفعال قد ينقذ حياة الإنسان في ظروف معينة. لنفترض مثلًا أنّ تنظيمًا إسلاميًا متشددًا قبض على إنسان عادي في مكان معيّن واتهمه بالكفر والإلحاد، فقد يكون النطق بالشهادتين كافيًا لإنقاذ حياة المقبوض عليه حتى ولو لم يكن بالأصل مسلمًا. إنّ إنتاج فعل النطق بالشهادة هنا، سيخلق حول المرسَل إليه (التنظيم المتشدد مثلًا) فعل الرضى أو القبول أو الاستحسان، ما يؤدِّي إلى فعل «الصفح أو العفو» أو تخلية السّبيل.

كثير من أحوال الناس لا يكتمل لدى الكثير من المجتمعات إلّا بفعل كلامي أو خطابي، كمثل الزواج والطلاق والدفن بعد الصلاة وغيرها... فالتلفظ بـ«إنّي أعلنكما زوجًا وزوجة»، أو القول: «نعم قبلتها زوجًا»، هي أفعال كلامية إنجازية تنقل المتلفِظ بها من حالة إلى حالة، أي من العزوبية إلى الزواج.

اعتبر أوستن أنّ الكثير من الجمل التي تبدو في ظاهرها هادفة

(١) غفيري خديجة، سلطة اللّغة بين فعلي التأليف والتلقي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٢، ص ١٩.

إلى «تأكيد» شيء، والتأكد من صحة أو خطأ هذه الأشياء، لها وظيفة تنأى عن البعد اللّغوي أو البلاغي أو عن مبدأي الصحة والخطأ. فالجمل الملفوظة لا تكتفي بوصف الشيء أو قوله، وإنّما تُنتج فعلًا مرافقًا لهذا القول. وهو قدَّم عددًا من الأمثلة عن ذلك ومن بينها أنّه حين يجيب العريس يوم زفافه على سؤال الشخص المشرف على الزواج «هل تقبلها زوجة لك»؟ بكلمة «نعم أريدها أو أقبل بها زوجة»، فهو هنا لا يؤكّد أو ينفي صحة أو عدم صحة شيء ما، وإنّما يمارس فعل الإقدام على الزواج. وحين يقول شخص وهو على سرير الموت «أنا أورث ساعتي إلى شقيقي» فهو لا يؤكّد أو ينفي صحة شيء ما وإنّما يقوم بفعل التوريث. أراد أوستن من خلال هذا وضع حدّ لتاريخ طويل من التفسير الفلسفي لمثل هذه العبارات التي كان الفلاسفة السابقون يكتفون بإدراجها في خانة «التأكيدات» (affirmation). وقد أكّد أوستن أيضًا أنّه «بالنسبة إلى هذه الأمثلة، يبدو واضحًا أنّ النطق بجملة لا يعني لا وصف ما أقوم بعمله ولا تأكيد أني أعمله، وإنّما القيام بالفعل»[1].

في حالة الخطاب السّياسي الذي تناقشه هذه الأطروحة، فإنّ أفعال الكلام تكتسب أهمية كبيرة، لا بل ربّما كانت هي الأهمية الأولى بذاتها، ذلك أنّ السّياسي (وهنا نحن أمام نموذج الرئيس الأسد) حين يلقي خطابًا فهو لا يلقيه لمجرد أن يسمع الناس ماذا يقول، وبالتّالي يعودون إلى بيوتهم كأن شيئًا لم يكن، وإنّما يريد أن

(1) Austin J. L., *Quand dire c'est faire,* Seuil 1994, p. 41.

يتحرك سامعوه بهذا الاتجاه أو ذاك، وأن يمتنعوا عن التحرك بهذا الاتجاه أو ذاك. يحصل هذا وفقًا لخطة خطابية مدروسة وضعها هو ومستشاروه بغية الحصول على أكبر نتيجة ممكنة لأفعال الخطاب. ففي خطاب الأسد، أو أي خطاب سياسي آخر، يبرز فعلان أساسيان لهما بُعدهما التأثيري المباشر أو غير المباشر وهما: «فعل الفعل، وفعل عدم الفعل» أي تحريك الناس ليفعلوا شيئًا أو تحريكهم للإحجام عن القيام بفعل آخر. وبما أنّه لا يوجد كلام أو خطاب دون هدف وبالتالي دون فعل، فإنّ فعل التأثير أو التوجيه هو أساس الخطاب وغايته، تمامًا كما أنّ الإشارات هي جوهر المخلوقات.

بهذا المعنى فإنّ البراغماتية، جاءت لتبحث عمّا نفعله حين نتلفظ بقول ما، وغاصت في مقاصد الكلام وكيفية إنتاجها لهذه الأفعال التي من شأن بعضها أن يغيِّر في سلوك المتلقّي واتجاهاته.

السّؤال الذي طرحه أوستن: «How to do things with words» (كيف ننجز الأشياء بالكلام). ترجمته المدارس الفرنسية التي اهتمت بالبراغماتية بـ«Quand dire c'est faire» (القول هو العمل، أو حين نقول نعمل). المقصود بالأصل والترجمات أنّه ما عاد ممكنًا الفصل بين القول والفعل.

نقرأ في مقدمة كتاب أوستن أنّ «اللّغة ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنّما اللّغة وسيلتها للتأثير في العالم وتغيير السّلوك الإنساني من خلال مواقف كليّة»[1].

---

(١) أوستن جون لانكشو، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء=

السّعي إلى «تغيير السّلوك الإنساني» الذي تحدّث عنه أوستن يكاد يكون الهدف الأول للخطاب السّياسي وفق ما رأينا من أهداف للخطاب. لكن، ومع ازدياد نسبة الوعي والتعلم في المجتمعات الحديثة، ودخول ثورة المعلوماتية على خط العلاقة بين المرسِل والمتلقي، ما عاد هذا «التأثير» بالأمر البسيط. ضاقت الهوة كثيرًا بين الرجل السّياسي ذي المنصب الرسمي وبين مثقفي شعبه ونخبه، لا بل مع شرائح واسعة من مجتمعه. ما عادت الشعوب تُقاد بسهولة لمجرد استماعها إلى خطاب، ذلك أنّ كلّ خطاب سيواجه خطابات أخرى مناقضة. يجري هذا من خلال المناظرات المتلفزة مثلًا خلال الانتخابات الرئاسية، أو عبر البرامج التلفزيونية الجدلية التي تجمع ضيفين سياسيين متناقضين أو أكثر، أو من خلال وسائل التواصل الإعلامي أو الاجتماعي بحيث إنّ قنوات الأفكار مفتوحة بالاتجاهين بين المرسِل والمتلقي وليست باتجاه واحد كما كانت حالها سابقًا.

بالرغم من هذه الثورات التواصلية في عصرنا الحالي، فإنّ التكنولوجيا الحديثة لم تجد -أقلّه حتى الآن- بديلًا عن الكلام واللّغة جسورًا لإيصال الأفكار.

لذلك بقي المهتمون بوسائل التأثير يبحثون عن كيفية تطوير هذه الوسائل وليس البحث عن بدائل. فحين نقرأ مثلًا قبل نحو

= بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٦، ص ٧.

٤٠ عامًا أنّ «فعل القول سيكون بالنسبة إلينا نشاطًا لغويًا يمارسه المتكلم في الوقت الذي يتكلم فيه»[1]، نجد أنّ هذه المقولة لم تتغير مع الثورات التكنولوجية أو المعلوماتية الجديدة. لا يزال الكلام يُنتج أفعالًا، ولايزال هدف هذه الأفعال هو التأثير. لا بل قد نعود إلى سقراط وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة القدامى لنجد أنّ الكلام واللّغة لم يفقدا قيمتهما الأساسية كحاملَيْن للأفكار وجسرين للتأثير. هذا ما عنته تمامًا أوريكيوني بشرحها أنّ فعل القول هو: «من الناحية الجوهرية، مجموعة الظواهر التي يمكن ملاحظتها حينما تشتغل خلال فعل تواصلي خاص، مجموعة عناصر وضعنا خططها آنفًا»[2].

أحدَث أوستن هزة مهمة في المفاهيم الفلسفية التي سادت آنذاك، أو لعله حاول تغيير تلك المفاهيم، «فهو غيّر العلاقة بين المعنى والحقيقة، وذهب أبعد من ذلك، لأنّه لم يُعِدِ النظر فقط بالمفهوم الكلاسيكي للغة والمعنى، وإنّما تعريف ماهية الفعل. ولعل هذا هو واحد من أهم اكتشافاته». وقد وصلت محاولاته الفلسفية تلك إلى حدّ التفكير في إعادة صوغ تعريف الحقيقة وفي تغيير طبيعة التعامل معها انطلاقًا من الفعل الذي ينتجه الكلام، ولعل الخطأ الذي وقع فيه بعض من درس «أفعال الكلام» عند أوستن هو اقتصار البحث على هذه النظرية حول «أفعال الكلام» دون التنبّه للمفاهيم الأخرى والمهمة جدًا التي قدمها الفيلسوف

(1) Anscombre J.-C et Ducrot Oswald, langanges, Paris, 1976, Numéro 42, p. 18.

(2) Orecchioni, Les actes de langages... op. cit., p 40.

البريطاني في محاضراته أو مقالاته حول الحقيقة، فهو تحدث عن «الوهم الوصفي» معتبرًا الوظيفة الأولى للملفوظات تكمن في وصف الحقيقة، لنعرف هل أنّ هذه الحقيقة تحمل معنى بذاتها، أم هي تقتصر على ما قاله الفلاسفة سابقًا من تمييز بين الصحيح والخطأ. لذلك فهو ذهب إلى استخلاص بعض الملفوظات عديمة المعنى أو الخالية من أي معنى[1].

أراد أوستن «... أن يبرهن أنّ الكلام يفعل شيئًا آخر غير الوصف...حصل هذا مع الاكتشاف الأول للأفعال الإنجازية؛ فهنا الخاصية الأولى تكمن في أنّ كل ملفوظة تساوي إنجاز فعل ما،... هذا الاكتشاف أعاد النظر بمجمل فكرة الكلام كوسيلة للتواصل فقط، وأعاد النظر أيضًا بتلك العلاقة بين مدلول الملفوظة وبين واقع الأشياء»[2].

قد نجد ما تقوله (Sandra Laugier) في فعل «الوعد» عند أوستن؛ فلو قال أحدهم مثلًا: «أنا أعدك بالمجيء اليوم ظهرًا»، فهنا تخرج الملفوظة من إطار وصف شيء ما أو من إطار معرفة هل هذه الجملة حقيقة أم لا، وتدخل في إطار الفعل الإنجازي، لا بل والأخلاقي أيضًا. فعلى إنجاز «فعل القدوم»، أي تحقيق الوعد،

(1) Laugier Sandra, Revue de métaphysique et de morale, Paris, 2004, n°42, p. 279.

(2) Laugier Sandra. Acte de langage ou pragmatique, Revue de Métaphysique et de Morale, Paris, N 42, P.1.6

تتحقق صحة الملفوظ تمامًا كما يتحدّد مدى التزام المتلفِّظ بهذا الوعد بما وعد به.

قسّم أوستن الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام وفق دورها وهي: التلفظ والنطق والخطابة. «يختص فعل التلفظ بمخارج الحروف المادية، ويتعلق فعل النطق بمقاصد العبارة، أمّا فعل الخطاب فيهتم بمقاصد المتكلم الخارجة عن العبارة والمفهوم في السّياق»[1].

خلال محاضراته الاثنتي عشرة التي ألقاها في جامعة هارفرد عام ١٩٥٥، توقف أوستن خصوصًا عند نوعين من أفعال الكلام: الإنجازي والتقريري.

أمّا الفعل الإنجازي (Performative) فهو ما يقترن فيه القول بالفعل، مثلًا: «إنّي أعلن بدء الاحتفال» (في هذه اللحظة بالضبط تبدأ الألعاب النارية مثلًا بالاندفاع صوب السماء). أي إنّ الخطيب المتلفظ بجملة معينة لا يكتفي بقولها وإنّما يتخطاها إلى ما فوق القول أو التلفظ ليقوم بعمل ما أو لينتج فعلًا ما. هذا النوع يشمل سلسلة طويلة من الأفعال وبينها مثلًا: «الاتهام، الوعيد، الأمر، التهديد، الاعتذار... الخ».

وأمّا الأفعال التقريرية عند أوستن فهي التي يكون هدفها وصف واقع ما. مثال على ذلك: «لقد اتصلوا بي مستفسرين عن هذا الأمر». فهو هنا يوصِّف واقعًا ولا يحكم عليه. هذه الأفعال تكون صريحة (Explicit) أو بدائية (أولية) وضمنية (Primary or implicit)

---

(١) أوستن، نظرية أفعال الكلام، مرجع سابق، ص ٩.

وهي تكون موفقة (Felicious) أو غير موفقة (Infelicitous or Unhappy). الأفعال التقريرية ليست خبرية ولا تخضع لمفهومَيْ الصدق والكذب، فحين نقول مثلًا «مرحبًا» أو حين نقول «لا بأس أن نحاول» فهذه ليست جملًا خاضعة للتقييم على الأساس الفلسفي السّابق أي الصدق والكذب.

لم تعد الملفوظات إذًا بالنسبة إلى أوستن مجرد لغة تضيق مساحتها ما بين مفهومَيْ الكذب والصدق، وإنّما هي أفعال تعكس أنماطًا من النشاطات الاجتماعية والسّياسية بغية التأثير. ما عادت الجمل بالنسبة إليه إخبارية محضة وإنّما لها دور إنجازيّ من خلال أفعالها. لكن، وحين اكتشف أوستن أنّ هذه التصنيفات للأفعال لا تكفي، وأنّه من الصعوبة بمكان التمييز الحاسم ما بين أفعال الإنجاز وأفعال التقرير... قام بوضع سلسلة أخرى من الأفعال وهي التّالية:

أولًا: الفعل الإخباري أو النطقي (Locutionary act) يتضمن الصوت أو الأصوات التي ننتجها حين نتلفظ، والألفاظ والعبارات والجمل، شرط أن تكون مستندة إلى مرجعيات قابلة للفهم من قِبل المتلقي.

ثانيًا: الفعل الإنجازي (Illocutionary act) هو عبارة عن الملفوظات أو المنطوقات التي تنجز معنًى قصديًا (Speakers intention) أو تأثيرًا مقصودًا ومتعمدًا (intended effect). الاعتذار أو الوعد أو غيرهما، دونما حاجة إلى استعمال أفعال مباشرة. إنّي عائد حتمًا. (أي لا حاجة للقول هنا إنّي أعد بأنّي سأعود). وهنا

يتوقف نجاح أو فشل هذا الفعل على إنجازه. مثلًا: أن يأتي من يعد بالمجيء كما وعد.

ثالثًا: الفعل التأثيري (Perlocutonary act). لعله أهم الأفعال التي سنعود إليها في تحليلنا للخطاب السّياسي، ذلك أنّنا نسعى إلى رصد تأثير الأفعال الكلامية والخطابية التي ينتجها خطاب الرئيس الأسد، مثلًا، حيال جمهوره المباشر أو عبر وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي الأخرى. فالفعل التأثيري الذي تحدّث عنه أوستن هو ذلك الذي ننتجه أثناء التلفظ بالكلام كالحثّ على أمر ما أو الإقناع أو التعبئة وغيرها.

الواقع أنّ أوستن كان قد وضع لائحة طويلة من الأفعال الكلامية أو الخطابية وبينها مثلًا: «طرح سؤال، إعطاء أمر، تأكيد أمر ما، الشكر، الاتهام، التهنئة، الرجاء، التحدي، السّماح وغيرها». بحيث إنّ المتحدث أو الخطيب غالبًا ما يجمع الكثير من هذه الأفعال في عملية التواصل بينه وبين المتلقي. صارت هذه النظرية أساس العلاقة القديمة قدم المخلوقات والرابطة ما بين الإشارات في هذا الكون وتفسيرها أو قولها أو التأثير عبرها في المتلقي. وإذا كان بعض الأفعال الآنفة الذكر مرتبطًا بالقواعد الكلامية، فإنّ بعضها الآخر يحتاج إلى ما هو أبعد من مجرد علم اللسانيات أو علم الكلام، ذلك أنّه لا يكتمل بدون «شروط مؤسساتية ذات بعد اجتماعي ومتفق عليها سلفًا»[1]. يعطي أوستن مثالًا على ذلك:

(1) Armengaud Françoise, La pragmatique, Op. cit., Kindle, emplacement 992.

حين نقول بدأ العرض، فمن المؤكد أنّ القائل هو رئيس العرض أو المشرف عليه، وليس شخصًا من الجمهور، والجمهور يدرك سلفًا ما هو المقصود بهذه الجملة. أي إنّ ثمة تفاهمات أو تعاقدات معرفية واجتماعية وثقافية ولغوية متفقٌ عليها سلفًا ما بين المرسِل والمتلقي لكي تصبح الجمل الملفوظة مفهومة. لنتخيل مثلًا أنّ رجلًا يذهب إلى قبيلة في الصحراء ويقول لها: بدأ العرض، قد يثير الاستغراب أو الضحك أو الغضب. فهؤلاء ربما لم يروا عرضًا مسرحيًا في حياتهم.

لكي نوضح أكثر الأفعال التي أرادها **أوستن** جوهرية في الملفوظ يمكن التوقف عند خمسة أنماط منها تشمل الكثير من جوانب الكلام أو الخطاب، وقد اختصرتها الباحثة اللسانية الفرنسية فرانسواز أرمانغو على النحو التالي:

- (الحكمية) (Les veridictifs)، تتمحور حول النطق بحكم ما يرتكز على أسباب جيدة تتعلق بقيمة أو حدث. مثلًا: تخلية سبيل، وصف، تحليل، تقدير، تصنيف، تقييم....الخ.
- (التنفيذية) (Les exercitifs)، هدفها صوغ قرار لمصلحة أو ضدّ مجموعة من الأفعال، مثلًا: أمر، قيادة، مرافعة لأجل، ترجّ، دعاء، نصح، وأيضًا: تسمية، الإعلان عن افتتاح عرض، التحذير، الإعلان... الخ.
- (الإلزامية أو الإخضاعية) (Les commissifs)، وهي التي

= المرجع السابق ذكره.

تجبر المتحدث على القيام بسلسلة من الأفعال المحددة، مثلًا: الوعد، الالتزام بعقد، الضمان، القسم، الالتحاق بحزب... الخ.

- (العرضية) (Les expositifs)، تُستخدم لعرض المفاهيم، لتقديم ذرائع وحجج، توضيح استخدام الكلمات، تأمين مراجع مثلًا: التأكيد، النفي، الإجابة، الاعتراض، نقل كلام معين... الخ.
- (السلوكية) (Les comportementaux)، تتعلق بردة الفعل على تصرفات الآخرين، وعلى الأحداث المرتبطة بهم، وهي تعبير عن مواقف حيال تصرفهم ومصائرهم، مثلًا: تقديم الاعتذار، الشكر، التهنئة، الترحيب، النقد، التعزية، المباركة، اللعنة، رفع الأنخاب، وأيضًا: الاعتراض، التحدي... الخ[1].

بعد أوستن جاء تلميذه الفيلسوف اللساني الأميركي جون سيرل (John Searl) الذي بنى نظرياته بالأساس على فكرة أستاذه، ليحاول تطويرها وتصحيح ما بدا فيها من خلل. أضاف سيرل خصوصًا في كتابه «Speech Acts 1969» عددًا من الشروط لنجاح فعل القول، منها مثلًا أن يكون الاتصال صريحًا وجادًا بين المرسِل والمتلقي اللذين ينبغي أن تتوافر بينهما قدرة التواصل على المستويات العضوية والنفسية وغيرها، ومنها أيضًا أن يكون فعل

(1) Armengaud Françoise, la Pragmatique, Kindle, emplacement 1015, Op.cit..

التلفظ معبِّرا عن قضية ما، وإدراك المرسِل بأنّ المتلقي على استعداد للقيام بالفعل المنشود وذلك من خلال تصديقه لملفوظ المتكلم. وإضافة إلى ذلك شرط الصدق (The Sincerity Condition).

وحدد سيرل هو الآخر خمسة أصناف من الأفعال الكلامية هي: التمثيلية (Representatives) والتوجيهية (Directives) والإلزامية (Commissives) والتعبيرية (Expressives) والإعلانية (Declaratives).

نفهم من خلال أوستن ثم سيرل وغيرهما أنّ نجاح فعل الكلام يفترض توافر القدرة والإمكانية لدى المتلقّي للقيام بالفعل الذي يريده المرسِل، بحيث لا يظهر كلامه على أنّه أمرٌ مثلًا. بمعنى أدق: إنّ أفعال الكلام أو الخطاب تخضع للشروط التي تجعلها مناسبة للسياق التلفّظي أو النطقي في إطار محدّد خاضع هو الآخر لشروط العلاقة ما بين المرسِل والمتلقي. فلا يمكن لفعل خطاب أن ينجح ما لم تتوافر فيه تلك الشروط، ومنها مثلًا أن يكون الخطاب متضمنًا عبارات قابلة للفهم من قِبل المتلقي، وأن يكون الخطيب موحيًا بالصدق والثقة أمام جمهوره، ومالكًا للمعرفة التي يتحدث عنها، ومدركًا لرغبات ومتطلبات واستعداد وقدرات من يوجه إليه خطابَه.

لو طلب بشار الأسد مثلًا من الجمهور الجالس أمامه أن يعترض على سياسة تركيا حيال بلاده، فيجب أن يدرك سلفًا أنّ هذا الجمهور مستعد لتنفيذ هذه الرغبة في التوجه مثلًا إلى السّفارة التركية أو الخروج بتظاهرة منددة بسياسة أنقرة... الخ.

٢. تطوير أفعال الكلام

الأنماط الخمسة لفعل الكلام (Speech Acts) التي تحدّث عنها سيرل، أي: الفعل التمثيلي والتوجيهي والإلزامي والتعبيري والفعل الإعلاني، إنَّما أراد لها أن تشمل معظم حالات القول، وأن تنتج أفعالًا خصوصًا في جانبها التوجيهي. وقد طرح سيرل ومعه عالم المنطق الكندي دانيال فاندرفيكن (Daniel Vanderveken) جملة من الأسئلة على نظرية أوستن حول أفعال الخطاب. تمحورت هذه الأسئلة حول كيفية التوصل إلى تحليل علمي جدي وموثوق به وثابت لهذا النوع من أفعال الخطاب؛ ذلك أنَّ الخطيب يستطيع التلاعب، مثلًا، عبر إستراتيجية لغوية وخطابية بالعبارات بقصد أو بغير قصد، بغية إنتاج أفعال خطاب متناقضة انطلاقًا من جملة واحدة. كما أنّ بعض الملفوظات أو المنطوقات يفترض تفسيرين اثنين؛ فمثلًا حين يقول الضيف لمضيفه «إنَّ الجو بارد» فقد لا يكون القصد هنا هو إخباره بما يراه، وإنَّما هو طلب «غير مباشر» لكي يفتح له مضيفه النافذة. ثم هناك قضية الأولويات في «أفعال الكلام»، أي البحث عن الفعل الأهم والذي يستحق الأولوية. يقول فاندرفيكن في كتابه «أفعال الخطاب»: «بمجرد أن يكون لبعض أفعال الكلام شروط محددة للنجاح أو للإرضاء أقوى من غيرها فإنّ هذا يشير، بوضوح، إلى وجود نظام أولويات للفكر والعالم»[1].

---

(1) Vanderveken Daniel, *Les actes de discours*. Pierre Mardaga, Belgique, 1988, P. 10.

لم يكن مطلوبًا من أوستن، وهو المبادر إلى طرح نظريه أفعال الخطاب، إيجاد كلّ ما تحتاج إليه هذه النظرية؛ فالبدايات غالبًا ما تحتمل نقدًا وخللًا قبل تطورها ووصولها إلى شيء من الاستقرار. ثم إنَّ سيرل الذي طرح أسئلة كثيرة في محاولة لتطوير نظرية أوستن، عجز هو الآخر عن إيصال النظرية إلى مرحلة علمية راسخة. لذلك نجد مثلًا أنّ الفيلسوف اللساني البريطاني جيوفري ليش (Geoffrey Leech) (١٩٣٦-٢٠١٤) قد انتقد نظرية أفعال الكلام معيبًا عليها في الأساس «خلطها بين الفعل النحوي أو الفعل الوظيفي وبين الفعل الإنجازي، ثم إنَّه ربط لاحقًا في طرحه لمفهوم التأدب (Politness) نوعين من الأفعال الإنجازية التي صنّفها سيرل وهي الأفعال التوجيهية والأفعال الإلزامية بالأهداف التنافسية في مبدأ اللباقة (Tact maxim) مشيرًا إلى أنّه كلّما كانت قوة القول غير مباشرة كانت أكثر تأدبًا»[١].

في تطويره لأفعال الكلام في البراغماتية، قدَّم سيرل أيضًا مجموعة من الأفعال التي غابت عن أستاذه أوستن، وهي الأفعال الكلامية غير المباشرة التي لا تظهر على نحو صريح ومباشر وإنّما يمكن فهمها من خلال السّياق الذي جاءت فيه. فلو سأل مثلًا شخص أحد العابرين أمامه: هل لديك ساعة؟، فهو لا يسأله لكي يعرف إذا كان يحمل ساعة أو لا، وإنّما يريد معرفة الوقت في تلك

(١) بودرع عبد الرحمن، أفعال الكلام، عرض وترجمة منصور العجالي، موقع: العرب أونلاين، ٣٠/ ٧/ ٢٠٠٣.

اللحظة والمكان. هنا يصبح السّياق هو الأساس الاستدلالي وليس الجملة الملفوظة فقط.

من جهته أشار الفيلسوف اللساني الفرنسي جاك دريدا (Jacques Derrida)[1] إلى وجود عدد من الأخطاء في نظرية أفعال الكلام حيث يرى أنّ كلّ العلامات، بما في ذلك أفعال الكلام القابلة للتكرار أو الاقتباس، كان من الممكن اقتباسها خارج سياقها بل اقتباسها على نحو خاطئ، وبالتالي فإنّ أفعال الكلام شيء يستحيل معرفته والجزم به، وإنّ أثر التلفظ لقول ما لا يمكن التنبؤ به على غرار كلّ نظرية فلسفية جديدة، تعرضت نظرية «أفعال الكلام» إلى ردود فعل ناقدة ومشككة. لا بل ثمة من شكك أصلًا بأن يكون أوستن وسيرل هما المبادرين إلى وضع نظرية «أفعال الكلام»، وخصوصًا ما يتعلق منها بفعلي التلفّظ وقوة التلفّظ؛ ذلك أنّ مثل هذه الأفعال قد تكون وردت قبلهما عند الفيلسوف النمسوي لودفيغ ويتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein) في كتابه «ألعاب الكلام».

أمّا الفيلسوف اللساني البريطاني (بول غرايس هربير) (١٩١٣- ١٩٨٨)، فقد استند إلى البراغماتية وأفعال الكلام، لكنه سعى إلى تطويرها عبر إضافة نظرية جديدة أسماها بـ(Conversational-implicature) الاقتضاء التخاطبي أو الاستلزام التخاطبي أو الاستلزام التحاوري. تمحورت نظريته حول الشروط

---

(١) ديريدا جاك، فيلسوف وعالم لسانيات فرنسي ولد في الجزائر عام ١٩٣٠ وتوفي في فرنسا عام ٢٠٠٤ ، ووضع نظريات فلسفية تشكك في علم الظواهر والماورائيات.

والقوانين الواجب توافرها ما بين المرسِل والمتلقّي، والتي وصفها بأنّها المبدأ التعاوني. بحيث يستطيع المتلقّي إدراك أو تلمّس الرغبة التواصلية عند المرسِل، ولكي يستطيع يجب أن يكون متمتعًا سلفًا بمبادئ السّياق وقوانينه التي تجمع بين الطرفين في آن معًا.

يقول غرايس إنّ مبدأ التعاون التحاوري يظهر حين «تكون مساهمتك في التحادث (أو التحاور أو التخاطب) في لحظة حدوثها مطابقة لما يتطلبه الهدف أو الاتجاه المقبول للتبادل الكلامي الذي تنخرط أنت فيه»(١).

وقد حدّد غرايس لنجاح التحاور أربعة مستلزمات أو ما أسماها بـ(Maxims) وهي:

١. «القيمة (أو القدر والكم): أن تكون مساهمتك حاملة كمية المعلومات الضرورية، وأن لا تحمل معلومات أكثر من الضرورية.
٢. النوعية: لا تَقُل ما تعتقده خطأ، ولا تَقُل ما ليس لديك من الأسباب الكافية لاعتباره صحيحًا.
٣. العلاقة: كونَا على صلة (المرسل والمتلقي).
٤. الأسلوب (أو الطريقة): تحاشَ الكلام بأسلوب ظلامي، تفادَ الغموض، كن مختصِرًا، كن منظمًا(٢).

---

(1) Grice Paul Herbert, Logic and conversation, In Syntax and Semantics, Vol 3. Speech Acts, ed. by Peter Cole and Jerry L, Morgan, New York: Academic Press 197, P. 45.

(2) Deirdre Wilson et Dan Sperber, Communication, Paris, 1979, Volume 30. Numero1, P.P. 80-94.

تطرق غرايس إلى التواصل المباشر وغير المباشر، فمثلًا لو «سأل بيار صديقته ماري أتريدين قهوة؟ تجيبه إنّ القهوة تمنعني من النوم»، هذا يعني إمّا أنّ ماري تريد النوم وإما أنّها لا تريد قهوة. من هذا المنطلق تحدث غرايس عن «النيّات» في التحاور، أو ما يمكن ترجمته بـ«الافتراض المسبق» (وفق د. محمد سعيد ربيع الغامدي) ؛ ذلك أنَّ المضمون غير الظاهر لأي تواصل يبقى عصيًا على الفهم من دون معرفة نية المتحدث؛ ففهم نية المتحدث وحالته النفسية والعقلية وظرفه وسياق كلامه هي العوامل التي تساعد على فهم المقاصد.

الواضح من خلال نظرية غرايس التي تجد أيضًا صداها في أعمال سيرل، أنّ هذا الفيلسوف والمحاضر في أوكسفورد يحاكي «فعل الكلام غير المباشر».

فهنا لم يعد التفسير الحرفي والمباشر للجملة الملفوظة هو الذي يعطيها المعنى ويُنتج فعلها، وإنّما ما هو «مضمر»، وهو ما يقترب أيضًا من نظرية الفيلسوف الفرنسي أوسفالد دوكرو (Oswald Ducrot) بشأن المعلومات المخفية في عبارة منطوقة... هنا نعود إلى فكرة «المسكوت عنه» في النّص، وهذا يفترض أنّ المتلقي يستطيع إدراك نيّات المرسِل في لحظة تلقّيه الخطاب.

في دفاعها عن استمرارية نظرية «أفعال الكلام» وأولويتها، تعتبر اللسانية الفرنسية كاثرين كربرات أوركيوني (Catherine Kerbrat-Orecchioni) أنّ التحليل التحاوري (أو التخاطبي) لا

يقدّم شيئًا لنظرية «أفعال الكلام» ولا يشكّل، مطلقًا، تخطيًا للنموذج البراغماتي المعروف. إنّ المدرسة الفرنسية التي تأثرت كثيرًا بنظرية «أفعال الخطاب» هذه، قد سعت هي الأخرى إلى شرح محاضرات أوستن وتطويرها خصوصًا وأنّ ما قاله في محاضراته، بقي يفترض أسئلة كثيرة حول الأفعال وتكاملها أو تناقضها.

انطلاقًا من ذلك، شرحت أوركيوني «أفعال الكلام» التي ذكرها أوستن على النحو التالي:

Acte locutoire: «هو فعل قول شيء ما»[1] أي إنّه إنتاج الأصوات، وتركيب الكلمات في جمل منطوقة (أو ملفوظة). وهذا هو أساس الخطاب، لأنّه بدون هذه الجمل المنطوقة لا يمكن أصلًا وجود خطاب.

Acte Illocutoire: «هو الفعل المنتج أثناء قولنا شيئًا ما»[2]. مثلًا إنتاج معلومة تفيد بأنّ الجيش السّوري ربح معركة ما.

Acte perlocutoire: «الفعل المنتج بمجرد أن نقول شيئًا»[3]. هذا ما سنراه كثيرًا في تحليلنا لخطاب الرئيس بشار الأسد لأنّه يوضح لنا ما هي الآثار التي خلفتها أفعال الخطاب الرئاسي على الجمهور المتلقّي (التأييد، التصفيق، القلق، الغضب...).

إنّ أوركيوني التي تُعتبر من المنظّرين الجدد للبراغماتية،

---

(1) Orecchioni Catherine-Kerbrat, *Les actes de langage dans le discours,* Armand colin, Paris, 2014, P. 22.

(2) Ibid,.

(3) Ibid,.

سعت إلى تقديم نقد رحيم إذا صحّ التعبير لنظرية «أفعال الخطاب»؛ فهي من جهة تبدو متمسكة بأهمية هذه النظرية وفرادتها في تحليل الخطاب، ومن جهة ثانية تشير إلى بعض الخلل الذي أصابها.

تقول مثلًا: «إنّ الأفعال المختلفة تستطيع ليس أن تتوالى في الجملة الملفوظة نفسها فقط، وإنّما تتخالط أيضًا فيها. وإنّ المقاربة المعروفة لأفعال الكلام تصف أفعالًا معزولة من دون الأخذ في الاعتبار إمكانية تتابعها. ففي المجال التفاعلي (بين المرسِل والمتلقي) نجد العكس، أي إنّ القول لا يعني الفعل فقط ولكن أيضًا الحث على القيام بفعل ما (Faire faire)، وهنا ليست الوحدة الأساسية للوصف في الفعل المعزول وإنّما فعلان مزدوجان: فمثلًا فلان «١» يحيِّي فلان «٢»، هذا يفترض أنّ فلان «٢» يرد التحية»[1] نحن هنا إذًا أمام فعلين كلاميين، قد يكونان بالملفوظ أو بالإشارات والإيماءات وغيرها.

هذه العلاقة المعقّدة ما بين المرسِل والمتلقّي في «أفعال الكلام»، شهدت تطورات كثيرة مع دخول ثورة شبكات التواصل الاجتماعي عليها، فهدف التأثير الذي ينشده الملقي من مستقبلي خطابه ما عاد مقتصرًا على الملقي فقط، وإنّما بات باستطاعة المتلقي أيضًا أن يدفع الخطيب إلى تغيير بعض قناعاته واتجاهاته. لعل المثال البارز على ذلك هي المحاولة الانقلابية الفاشلة التي تعرض لها الرئيس التركي رجب طيب أردوغان في مطلع شهر تموز/ يوليو

(1) Ibid, P. 24.

٢٠١٦. فبمجرد لجوئه إلى إحدى وسائل هذا التواصل الاجتماعي «فايستايم» وتسجيل كلمات قليلة، اضطر المنقلبون عليه إلى تغيير إستراتيجيتهم التي أثبتت فشلها بعدما تبيَّن أنَّ أردوغان ليس معتقلًا وأنَّ الناس تجاوبوا مع ندائه. بات الملقي هنا، أي الضباط الذين سعوا إلى الانقلاب، عاجزين عن دفع الناس إلى القيام بـ«فعل الفعل» وإنّما انقلب الأمر عليهم.

نلاحظ أنّ بعض فلاسفة اللّغة تناولوا بدقة هذه العلاقة ما بين الملقي والمتلقي قبل ثورة تكنولوجيا التواصل. هذا مثلًا عالم اللسانيات البريطاني جيوفري ليش (Geoffrey Leech) (١٩٣٦ - ٢٠١٤) يقترح أفعالًا لغوية تستند إلى وظائف هذه الأفعال من زاوية العلاقات التواصلية والاجتماعية، ويمكننا حصرها بالتالي: «**فعل التنافس** (Competitive)، ولهذا الفعل غلبة للهدف الإنجازي على الاجتماعي. (إنجاز أمر ما).

فعل التكافل (Collaborative) أي الأفعال ذات الطبيعة التعاونية ولا تتأثر أهدافها الخطابية بالاجتماعية (التصريح، التعليمات، التبليغ عن أمر ما).

فعل الخصومة (Conflictive) أو أفعال التناقض والمعارضة، بحيث إنّ أهدافها تتعارض مع أهداف المجتمع الذي تنتج فيه، ومنها مثلًا الوعيد والتهديد والغضب والانتقام وغيرها.

فعل المناسبات الحميمة (Conviviale) وهذا على عكس فعل الخصومة، يسعى إلى المزج ما بين الهدفين الاجتماعي والإنجازي

(ففي مناسبة الأعياد مثلًا يوجد هدف اجتماعي، وحين تتمّ التهنئة بالعيد يتمّ إنتاج فعل إنجازي) [1].

ثمَّة أفعال خطاب عديدة تتفرع من الأفعال الرئيسة، فصّلتها أريكيوني على النحو التالي:

- الأفعال الإعلانية (Actes déclaratifs): التي يتمّ من خلالها إعلان شيء ما مثلًا: الحكم على فرد أو مجموعة، الإعلان (عن حالة حرب أو مفاوضات)، تشريع الزواج (من قبل شيخ أو راهب...).
- الأفعال الإخبارية أو التبليغية (Actes informatifs ou d'assertion): التي يجري عبرها الإخبار بشيء ما أو التبليغ عنه... مثلًا أن يقول الرئيس الأسد: لقد وقعت أمس مجزرة جسر الشغور وسقط خلالها ١٨٠ شهيدًا من ضباطنا وجنودنا. لو توقفت الجملة عند هذا الحد لكانت إخبارية حيث إنّها تتضمن كلّ عناصر الملفوظ الإخباري الذي يجيب عن الأسئلة التالية: ماذا، متى، أين؟ أمّا لو أضيف تعليق الرئيس فإنّ التعليق قد ينتج أفعالًا أخرى.
- «الأفعال التوجيهية: (Actes directifs) هي التي يستخدمها الخطيب لدفع المخاطَب للقيام بعمل ما... منها مثلًا: الطلب، الأمر، التمني، الدعوة إلى، السّماح، النّصح، التحدي، السّؤال إضافة إلى التساؤل والأسئلة.

(1) Leech Geoffrey, Principles of pragmatics, longman, New York, 1983, P. 104.

- الأفعال التعبيرية (Actes expressifs): هي التي يمرُّ من خلالها التعبير عن حالة نفسية خاصة بشرط الصراحة بشأن وصف حالة أشياء محدّدة في المضمون الكلامي «ومنها مثلًا: «الشكر، التهنئة، الاعتذار، التعزية، الأسف، الترحيب»[1].

من جانبنا، نقترح أن نضيف إلى الأفعال الآنفة الذكر، فعلًا لم يتمّ تناوله في نظريات أفعال الكلام والخطاب وهو:

- فعل الصّمت: لنفترض أنّ رئيس الدولة، كان يخطب بحضور رئيس وزرائه ورئيس مجلس الشّعب ووزير الخارجية، ونوه بعمل رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشّعب، وذلك بعد أيام على إشاعات تتعلق بغضب الرئيس من وزير خارجيته، وكان وزير الخارجية موجودًا أمامه، فنظر إليه الرئيس بغضب ولم يذكره. إنّ مجرد الصّمت والنظرة هنا سيكونان كافيين لإنتاج فعل تعبيري هو النقمة والغضب وإنتاج فعل توجيهي بحيث أنّ الكثير من المحيطين بالرئيس سيلجأون، ابتداء من هذه اللحظة، إلى التعاطي بحذر شديد مع رئيس الوزراء لأنّ الصّمت كبير التعبير. فلنسمِّ إذًا هذا الفعل بـ«فعل الصّمت في الخطاب»، ذلك أنّه مرتبط عضويًّا بالخطاب لكنه خارج عن مضمونه اللغوي ومندرج في سياقه العام.

---

(1) Thierry Bulot, Genèse et champ de l'analyse du discours, CREA/ CIM - Université Rennes 2, 2011, P. 4.

إنّ فعل الصّمت هذا، لا يرتبط بـ«الملفوظ» في الخطاب، وإنّما بـ«اللاملفوظ» وهو بذلك يكتسب أهمية خاصة لكونه غالبًا ما يرد في الخطابات السّياسية المهمة؛ لكن الغريب أنّ فلاسفة البراغماتية لم يلحظوه كفعل أصيل ومهم. سنرى في بحثنا هذا أنّ الرئيس بشار الأسد قد استخدم هذا الفعل مرارًا في خطاباته، وفي معظم المرات كان الهدف هو تهميش خصومه في المعارضة وغيرها.

من البديهي أن لا يعتمد السّياسي دائمًا على الأفعال المباشرة في خطابه، وأن يتجنَّب الإيحاء بأنّه يعطي أوامر للتنفيذ. كلما كان كلامه قريبًا من الناس وموحيًا بأنّه يعبِّر عن همومهم كان إنتاج الأفعال المؤيدة أكبر. هذا ربما ما قصده البروفسور اللساني في جامعة رين الثانية الفرنسية تييري بولو (Thierry Bulot) في تقسيمه الأفعال إلى مباشرة وغير مباشرة وعرَّفها كالتالي:

أفعال الخطاب المباشرة هي: «المنطوقات المنجزة (التي تتضمن فعلًا منجزًا) تشير إلى فعل لغوي مكتمل. يتعلق الأمر خصوصًا بأفعال تسمى منجزة، والتي لها عدد محدود مثل (الأمر، التأكيد، الوعد...) تستخدم من قبل شخص المتكلم وبالحاضر وتستكمل بما يتم إرساله إلى المتلقي، لإنتاج جملة منطوقة منجزة مثلًا: إنّي آمرك بأن ترحل»[1].

أفعال الخطاب غير المباشرة: «هي أفعال اللّغة التي تتمّ عبر منطوقات تحتوي على شكل مرافق ومتعمَّد لفعل لغوي آخر

(1) La pragmatique, emplacement 1267, Op. cit.

غير الذي أُنتج. مثلًا: الجوّ بارد. هذا يعني طلب إغلاق الباب أو النافذة[1]».

وذهب الفيلسوف البلجيكي ليو أبوستيل (Leo Apostel) إلى تطوير نظرية فريدة تقول إنّ الأولوية هي للخطاب على اللّغة وليس العكس. اعتبر، وهو محق تمامًا بذلك، أنّ فكرة الخطاب تسبق الكلام الذي سيصاغ لأجل التعبير عن تلك الفكرة، أو بمعنى آخر فإنّ «اللّغة ليست إلّا نظامًا تمَّ الحصول عليه من خلال التجريد عبْر مجموعة من أفعال الخطاب»[2]، بهذا المعنى نفسه فإنّ: «العبارة ليست معزولة مطلقًا».

يلجأ السّياسي إلى الجمل الملفوظة التي تحمل معاني مباشرة، أو يختبئ خلف جمل تتضمن مقاصد أكثر أهمية من ظواهرها. لذلك نجد أنّ المذهب البراغماتي المستند إلى أفعال الخطاب وما تبعه من تطوير لهذا المذهب ونظرياته... قادر على معرفة الكثير من المعلن والمسكوت عنه في الخطاب السّياسي، خلافًا لعدد لا بأس به من المذاهب السّابقة في التحليل والتي تمحورت حول الجمل لا الفعل. هذا بالضبط ما دفعنا لاعتماد التحليل البراغماتي عبر «أفعال الخطاب» قاعدة لتحليل خطاب الرئيس الأسد، من دون أن نُغفل طبعًا المرور في التحليل على النظريات والمذاهب التحليلية، وتحديدًا ما يتعلق منها بالكمِّي والنوعي لإسناد النظرية البراغماتية

---

(1) Ibid.

(2) La pragmatique، Ibid, 999, 1138, 1145.

التي شكلت، كما رأينا، تقاطعًا للكثير من العلوم الإنسانية والفلسفية والمنطقية والاجتماعية وغيرها.

بناءً على كلّ ما تقدم نقترح تعريفًا خاصًا للبراغماتية هو التالي: «**إنّها مذهب من مذاهب الفلسفة اللسانية، شكّل تقاطعًا لعلوم مختلفة لسانية وفلسفية ونفسية واجتماعية وتواصلية؛ يهدف إلى تحليل الكلمات والجمل الملفوظة (أو المنطوقة) لرصد مقاصدها ومعرفة الأفعال المتوخاة منها، كما يبحث عن المسكوت عنه والنيّات والمقاصد الخفية في الجمل الملفوظة غير المباشرة ويأخذ في الاعتبار السّياق العام للملفوظات وعلاقة المرسِل بالمتلقّي والزمان والمكان اللذين يشكلان الإطار العام لهذا الخطاب**».

القسم الثاني

البراغماتية عند العرب:
خبر وإنشاء

١. البراغماتية بين الخبر والإنشاء

أ. الخبر والإنشاء عند العرب

عرّف العرب كما أسلفنا البراغماتية بأفعال الكلام قبل الغرب بسنوات طويلة، فهم كانوا سبّاقين في فصل الكلام بين «خبر» و«إنشاء»، وطوروا ذلك في دراساتهم حول علم المعاني. يقول د. مسعود صحراوي إنّ ظاهرة الأفعال الكلامية تندرج «ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنْونة بالخبر والإنشاء وما يتعلق بها من قضايا وفروع وتطبيقات، ولذلك تعتبر نظرية الخبر والإنشاء عند العرب من الجانب المعرفي العام مكافئة لمفهوم الأفعال الكلامية».

لا ندري إذا كان أوستن أو سيرل أو غيرهما قد تعرّفا إلى هذا التراث العربي، لكنّ اللافت للنظر أنّ ثنائية الخبر/ الإنشاء التي تعمّق بها العرب تجد صداها في كتابات عدد من الفلاسفة الغربيين وبينهم أوستن حين تحدَّث عن ثنائية الأفعال الإنجازية والأفعال التقريرية. ففي الحالتين، العربية والغربية، ثمة وصف وإنجاز في الملفوظات. وكما كان الشأن عند أوستن في فصله بين الفلسفات السّابقة التي تضع الجمل أمام ثنائية الصدق/ الكذب من جهة، أو

ثنائية التلفظ/الإنجاز من جهة أخرى؛ نجد عند العرب أنّ الجملة الخبرية تحتمل الصدق والكذب، بينما الجملة الإنشائية تحمل في ذاتها فعل الإنجاز.

ذكر العالم اللّغوي العربي يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السّكاكي (المعروف اختصارًا بـالسّكاكي) في كتابه «مفتاح العلوم»[1]. ما يشبه هذه الثنائية بين الخبر والإنشاء والتي أُطلق عليها اسم ثنائية «قانونَيْ الخبر والطلب».

هنا أيضًا ثمة تطابق كبير بين ما ذكره السّكاكي وما رأيناه عند أوستن بشأن صدق الجمل أو صحتها. أراد السّكاكي أن يربط الخبر ببيئته الخارجية بحيث يكون صادقًا أو كاذبًا وفق تطابقه مع هذا الخارج أو تناقضه معه. أمّا الإنشاء (أو الطلب وفق تعريف السّكاكي) والمنفصل تمامًا عن الخارج فيستدعي مطلوبًا (أي إنّه وفق تعريف أوستن، أو سيرل لاحقًا، يستدعي ردة فعل أو فعل الفعل من المتلقّي).

يقول باديس الهويمل في أطروحته المعمّقة حول أفعال الكلام عند السّكاكي: «إذا قابلنا تصوّر الخطابين الخبري والإنشائي بعامة بما جاء به سيرل، نجد أن الخبر بما يحويه من أضرب، يندرج ضمن صنف التقريريات (Assertifs) بمعاييره، وعرضها المتضمَّن في القول هو التقرير، ويعني إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ

(١) السّكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧، ص١٦٩.

به، وشرطها امتلاك الأسس القانونية أو الأخلاقية التي تؤيد صحة محتواها؛ أمّا الطلب فيندرج ضمن بقية الأصناف ويتوزع عليها»[1].

من الأمثلة الكثيرة التي يوردها السّكاكي الآية الكريمة القائلة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، بحيث تتضمَن فعل «النهي».

وإذْ قسّم السّكاكي المعاني الإنشائية (أو معاني الطلب وفق تعريفه) إلى خمسة هي «النداء، الاستفهام، التمني، الأمر والنهي» فهو سبق أيضًا، وبقرون طويلة، أوستن وسيرل وغيرهما في وضع قواعد إنجاز مثل هذا الإنشاء أو الطلب، ومجالات فشل أو نجاح الجمل الإنشائية والعناصر المتحكمة فيها بين الملقي والمتلقّي.

يقول السّكاكي: «فإذا ألقى الجملة الخبرية (أي الخطيب) إلى من هو خالي الذهن عما يلقي إليه... تستغني الجملة عن مؤكدات الحكم، وسُمي هذا النوع من الخبر ابتدائيًا»[2]. يثبت ذلك أنّ هذا العالم اللّغوي كان، منذ القرن السابع عشر، قد ربط إمكانية نجاح أو فشل الجملة الخبرية باختلاف متلقّيها، وهو تمامًا ما وجدناها لدى منظّري البراغماتية الغربيين بعد السّكاكي بأكثر من ثلاثة قرون، ما يشير إلى أنّ العرب عرفوا... أفعال الكلام منذ زمن غابر حتى ولو أنّهم ربّما لم يطوروها كعلم منفصل تمامًا عن العلوم الأخرى.

---

(١) لهويمل باديس، نظرية أفعال الكلام في مفتاح العلوم للسّكاكي، قانون الخبر نموذجًا، جامعة بسكرة، الجزائر، ٢٠١٢، ص ١٣.

(٢) السّكاكي، مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص ١٧٠.

لنأخذ على سبيل المثال قول ابن رشد إنّ «الطلاق يقع إذا كان بنية أو لفظ صريح»[1]. هذا هو بالضبط جوهر فعل الكلام الإنجازي الذي تحدّث عنه أوستن ومن تلاه. معروف أنّه عند المسلمين يكفي نطق الرجل بعبارة «أنت طالق» ثلاث مرات حتى يصبح «القول» «فعلَ الانفصال» الزوجي. ما عادت الجملة هنا مقتصرة على معرفة ما إذا كانت صادقة أو كاذبة، هي تنتج فعلًا صريحًا لا يمكن للجانب الآخر إلّا إنجازه بالقبول طوعًا أو قسرًا. وكما ابن رشد كذلك ابن خلدون حين يقول: «إعلم أنَّ اللّغة في المتعارف عليه، هي عبارة المتكلم عن مقصوده»[2] فإنّما يتخطى الجملة بتراكيبها اللغوية والبلاغية ليصل إلى نقطة مهمة في معرفة مقاصد «أفعال الكلام». واللافت عند ابن خلدون، أنّه قد سبق بقرون فلاسفة الغرب في ربطه «فعل الكلام» بسياقه الخارجي. بحيث يعتبر أنّ الجملة الإسنادية تكون خبرية إذا ما كان لها خارجٌ تطابقه أو إنشائية وهي التي تفتقر إلى الخارج مثل الطلب وأنواعه.

أمّا مسعود صحراوي وقد شرح لأسبقية التعمّق لدى العرب في «أفعال الكلام» حول «الخبر والطلب» ثمّ «الخبر والإنشاء»[3]،

(١) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار القلم، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ١٧٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٤١.

(٣) صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ٢٠١٤، ص ٦١.

وكذلك حول تأخر العرب بوضع منهاج علمي مستقل لدراسة الأفعال الكلامية... فهو يقول: «لم يتحقق الاستقرار في معايير التصنيف، كما في الجهاز المفاهيمي، إلّا في مراحل لاحقة بعد اعتماد أدوات التحليل التي اصطنعها المناطقة العرب ثم ألحقوا بها -في مرحلة لاحقة- أدوات تداولية»[١].

وكما كان الشأن حيال نظريات أوستن وسيرل وغيرهما، فإنّ العرب تأخروا حتى اتفقوا على تحديد بعض المفاهيم المتعلقة بـ«الإنشاء» الذي حلّ مكان «الطلب». وأجمعوا نهاية المطاف على أنّ الخبر هو ما تنطبق عليه ثنائية الصدق/ الكذب، أمّا الباقي فهو إنشاء. وفي هذا الصّدد يقول نجم الدين الكاتبي القزويني: «... الكلام التام إنْ احتمل الصدق والكذب فهو الخبر والقضية، وإنْ لم يحتمل فهو الإنشاء»[٢]، لكنّ الشريف علي بن محمد الجرجاني يناقض هذا التعريف، فيقول عن الإنشاء في تفسيره للرسالة الشمسية بأنّه «كلام لا يصحّ أن يقال... صادق أو كاذب»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٤.

(٢) القزويني نجم الدين الكاتبي، الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٤٢.

(٣) الشريف الجرجاني، اسمه الحقيقي علي بن محمد بن علي الشريف الحسني الجرجاني هو فيلسوف ولغوي وفلكي وفقيه وموسيقي. يمكن قراءة النسخة الأصلية للكتاب على موقع جامعة الملك سعود، عبر مكتبة المصطفى الإلكترونية:

http://www.al-mostafa.info/data/arabic/depot3/gap.php?file=i000431.pdf.

يرى الجرجاني أنّ الصدق والكذب لا يميزان بين الخبر والإنشاء، وإنّما هما سمتان من سمات الخبر، لا بل إنّه يذهب إلى حدّ المزج ما بين الخبر والإنشاء مقدمًا الأول على الثاني بحيث أنّ الخبر هو الأصل وأمّا الإنشاء فطارئ عليه.

إلى هذه الثنائية الخبر/الإنشاء، فإنّ العرب قد اهتموا أيضًا بسياق المقال حين تحدثوا عن مقامِه (لكلّ مقال مقام) كما تعمقوا في بحث تأثير الخطاب في المتلقّي (أي أفعال التأثير التي وجدناها لاحقًا لدى الفلاسفة الغربيين)، ووقفوا عند مقاصد الكلام وفوائده والأهداف الكامنة خلفه. يمكننا أن نقرأ مثلًا كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ لنكتشف كم كان متعمقًا في شرح أهداف الإقناع والتأثير حين تحدث عن «التأثير والمقام». نكاد نشك بأنّ بعض الفلاسفة الغربيين أخذوا هذه المفاهيم نفسها وطوروها لاحقًا دون ذكر مراجعها عمدًا أو بسبب عدم معرفة أصولها. فحين نقرأ للجاحظ مثلًا أنّ للبيان وظائف ثلاثًا هي: «الوظيفة الإخبارية، والوظيفة التأثيرية، والوظيفة الحجاجية»[1]، نجد أنّ مثل هذه الوظائف، تقريبًا، هي التي ذكرها فلاسفة البراغماتية و«أفعال الكلام والخطاب» في منتصف القرن العشرين.

إنّ البلاغة نفسها، إذا ما اعتمدنا تعريفها عند الفلاسفة

(١) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، الكتاب الثاني، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الجاحظ، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٧٥.

والبلاغيين والمناطِقَة العرب، تحمل في ذاتها أفعالًا إخبارية وتأثيرية، فهي توصل المعنى إلى قلب السّامع فيفهمه كما يقول أبو هلال العسكري؛ وهذا المعنى البلاغي أو التبليغي يفترض وجود مُلقٍ ومتلقٍّ وسياقٍ ورسالةٍ لكي تُحدث الأثر المطلوب. فما هو الفرق هنا بين مثل هذا التعريف وبين تعريف تأثير الخطاب عبر «أفعال الكلام» لدى الفلاسفة الغربيين؟ لا يوجد فرق كبير سوى في بعض التعريفات ليس إلّا.

إنَّ التشابه الكبير بين البلاغة العربية وبين المنهج البراغماتي أو التداولي هو الذي ذهب إليه لهويمل باديس في قوله: «إنّ البلاغة العربية والتداولية: يشتركان في الاعتماد على اللّغة بكونها أداة لممارسة الفعل على المتلقي في سياق مخصوصة»[1].

هذا طبعًا غيض من فيض الفلسفات العربية التي قاربت البراغماتية و«أفعال الكلام» دون تسميتها بأسمائها المتداولة اليوم، وقد تعمّدنا المرور عليها دون التوقف طويلًا عندها لأنّ كثيرين تعمقوا في هذه الأصول العربية لأفعال الكلام ولا داعي لتكرار ما قالوه. لكن: لا بدّ من التذكير بهذه الأصول العربية بغية عدم الانجرار على نحو أعمى خلف كلّ الدراسات والأبحاث الغربية على أنّها طليعية، وأنّ منشأ كلّ ما تقوله هو الغرب. يمكننا بالتالي الجزم بأنّ التداولية وأفعال الخطاب موجودة عند العرب لكنّ أسماءها كانت مختلفة.

---

(١) لهويمل باديس، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، عدد ٧-٢٠١١، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ص ١٦٨.

ب. شرعية إنتاج فعل الكلام ومؤثراته

هناك مجموعة من الأسئلة التي لا بدّ من طرحها حول فعل الخطاب: أبرزها التالي: من يحقّ له إنتاج فعل الخطاب؟ متى يكتسب هذا الفعل شرعية؟ هل الفروق التي تحدَّث عنها بعض الفلاسفة عن فعل ضعيف وفعل قوي، تبقى هي نفسها إذا كان منتج الفعل الخطابي رئيس دولة أو ناطقًا باسمه أو ممثلًا له في مناسبة ما؟ هل شخص الخطيب هو الذي يحدّد قوة الفعل الخطابي أم الفعل بذاته؟ هل ثمة أفعال متفق عليها وغير قابلة لتفسيرات مغايرة بين شخصين مختلفين في سعيهما لتفسير الخطاب وتفكيكه إلى أفعال؟ هل يمكن حصر أفعال الخطاب؟ أم أنّها قد تتوالد على نحو لا نهاية له؟

لا توجد إجابات ثابتة عن كلّ هذه الأسئلة. هي لا تزال حتى اليوم تحتمل تفسيرات كثيرة. فلو قال مثلًا رئيس الجمهورية: «إنّ الحرب ستطول»، فقد تُنتِج هذه الجملة أفعالًا لا متناهية: منها ما هو مباشر: الهتاف للرئيس، ومنها ما هو علني: التصفيق أو الهتاف، ومنها ما هو مضمر مثل الخوف أو القلق، ومنها ما هو موزع على أوقات متباعدة أو متقاربة، مغادرة البلاد، شراء سلاح، سحب النقود من المصرف، البحث عن ملجأ... الخ

في حالة هذا الملفوظ من قبل الرئيس، هل يريد الرئيس من شعبه أن يسانده في الحرب، أم يستبق أي محاسبة له لو طالت الحرب، أم يسعى لأن يبدو صادقًا وغير مغالٍ في الكلام؟.

كيف يمكن تفسير هذا الملفوظ: ثقة زائدة بالنفس، أم تعبير عن ضعف. هل إذا فسره مؤيد مثلًا للرئيس سينظر إلى أفعال الخطاب بالطريقة نفسها التي ينظر إليها معارض؟

كلّ هذه الأسئلة وتفرعاتها مشروعة طبعًا، لكن قد يكون منطقيًا أكثر حصر دراستنا حول الخطاب السّياسي بالأفعال الأساسية الثلاثة التي ذكرها أوستن وطوّرها سيرل ومن عاصرهما أو من جاء بعدهما: فمثلًا حين يقول بشار الأسد في خطاب القسم الأول في ١٧ تموز ٢٠٠٠: «نحن بحاجة ماسة إلى النقد البنَّاء»، هو ينطق الجملة فينتج فعل القول أو النطق أو التلفظ، وهو ينتج فعل الرغبة في التغيير أثناء قوله، ويؤثر في المستمع من حيث إنتاج الفعل التغييري وما سيتبعه من تغييرات في المجتمع والدولة. وإذا كان فعل التلفظ أو النطق بالجملة أساسيًا لإنتاج هذه الأفعال، فهي قد تكون متعددة لا بل أكثر من أن تحصى في خطاب سياسي طويل. كلّما كان رجل السّياسة بحاجة إلى إقناع جمهوره بصوابية طروحاته، سيجد نفسه بحاجة إلى تكثيف الأفعال الخطابية وتنويعها.

يريد السّياسي الخطيب أولًا وأخيرًا الوصول إلى الفعل الأهم: «فعل الفعل»، أي دفع الجمهور نحو تبنّي خطابه والعمل بموجبه، أو إلى فعل «عدم الفعل» أي دفع هذا الجمهور إلى عدم تنفيذ ما يريده الخصوم.

ومع ذلك فإنّ نظرية فعل الخطاب تطرح عددًا من العقبات المتعلقة بمكان إنتاج هذا الفعل... هذه أبرزها:

١. الثقافات والمجتمعات والموروثات الاجتماعية: يمكنها التأثير في الفعل الخطابي أو الكلامي إلى درجة يصبح ما هو مفهوم في مجتمع ما، غريبًا في مجتمع آخر، لا بل قد يؤدي إلى فعل الجريمة. مثالنا على ذلك زواج المثليين في المجتمعات الغربية، وحيث صار الأمر في عدد من الدول مسألة طبيعية، يمكن أن نسمع خطابًا حول ذلك في البلدية حيث يتمّ فيها إحياء مراسم الزواج أو من قِبل الشخص المشرف على هذا الزواج. بينما لو حصل الأمر على نحو علني أو سري في دولة عربية، فقد يُحدث فضيحة أو أكثر. إذًا الخطاب في المجتمع الغربي يؤدِّي في هذه الحالة إلى فعل «الإنجاز» من خلال تزويج اثنين من المثليين بمجرد النطق بالإعلان عن قبول الزواج، بينما قد يؤدِّي في مجتمع عربي إلى فعل فاضح مرشح لأن يصل إلى حد الاعتقال أو العقاب أو القتل.

٢. الفعل الكلامي أو الخطابي: قد يفقد معناه، ما لم تكن أرضية فهمِه مشتركة ما بين منتجه ومتلقيه. فمثلًا لو قال زائر غربي لمجموعة من البدو داخل خيمتهم في الصحراء، إنّ زعيم قبيلتكم رجل تُرفع له القبعة. لا شكَّ أنّ كثيرًا منهم سينتج فعلًا واحدًا هو «الاستغراب»، ذلك أنّ معظمهم أو جميعهم لا يعرف ماذا يعني أن ترفع القبعة. الأمر نفسه لو قرأ أجنبي مثلًا أنّ المشكلة في

درعا السورية تفاقمت حين رمى مسؤولو العشائر عُقُلَهم وكوفياتهم على طاولة مدير الأمن بعد اعتقال مجموعة من المراهقين عام ٢٠١١. هذه الحركة هي أقصى أنواع التعبير عن الغضب من الإهانة ضمن المجتمع الحوراني في سوريا، بينما قد لا تعني شيئًا في المجتمع الغربي. مثل هذا الفعل يمكن أن يؤدِّي إلى فعل «القتل» أو «الانتقام الجسدي» في سوريا، بينما في فرنسا قد يثير الضحك. هنا أرضية الفهم المشتركة هي التي تؤدِّي إذًا إلى نجاح فعل الخطاب أو فشله، بينما قد لا يُعار أي اهتمام في مجتمع غربي لا يعرف مثل هذه التقاليد.

٣. بعض أفعال الخطاب أو الكلام يفترض سلطة عند منتجها تمنحه شرعية هذا الفعل. فلو قال شاهد في المحكمة مثلًا، «رُفعت الجلسة»، فهو حتمًا سيثير الاستغراب أو الضحك. أمَّا لو قالها رئيس المحكمة أو القاضي المكلَّف إنهاء القضية، فهو حتمًا ينتج فعل إنهاء الجلسة ويفرض هيبته على القضاة والمحامين والمتهمين والحضور.

٤. يصعُبُ الفصل دائمًا بين عدد من أفعال الخطاب. فمثلًا قد يكون الفعل إخباريًا ولكنه قد يتضمن في الوقت نفسه فعلًا توجيهيًا faire faire؛ فمثلًا حين يخبر الخطيب جمهوره بشيء ما أو يُعْلمه بأمر ما، فهو لا يهدف إلى مجرد الإعلام أو الإخبار فقط، وإنَّما إلى الحثِّ على القيام بفعل faire

(faire) أو الامتناع عن القيام بفعل آخر faire ne pas faire. حين يقول مثلًا رئيس البلاد: «لقد أعلنّا الحرب، أو الانتخابات ستبدأ بعد شهر» فهو يحثُّ جمهور متلقيه على الاستعداد للحرب أو للانتخابات، أي للقيام بأفعال تناسب الأمر، كما أنّه يطلب من فريق مفاوضيه أن يتوقفوا عن التفاوض، أو لعلَّه يحثّ المجتمع الدولي على التحرك سريعًا خشية انهيار كلّ شيء، وهنا يكون قد أنتج فعلًا تعبيريًا شعوريًا هو: القلق.

٥. يكتسب فعل الخطاب أهميته القصوى في زمان ومكان محدّدين إذا كانا مناسبين له، ويفقد كلّ أهميته في زمان ومكان مختلفين وغير مناسبين لمضمون الخطاب. هذا يعني أنَّ الفعل الخطابي لا يجد قوَّته في ذاته فقط وإنّما في سياقه أيضًا. فحين يقول الرئيس الأسد من قلب أحد خنادق حي جوبر عام ٢٠١٥ وفي محيط دمشق «سننتصر في نهاية المطاف»، فهو ليس بصدد إعلان شيء عابر في لحظة ومكان عاديين، وإنّما يريد رفع معنويات جنوده، ومن خلالهم رفع معنويات شعبه. هو يعبِّر بخطابه عن فعل التحدي للظروف الأمنية التي تهدد حياته وسط استمرار قصف دمشق واحتمال استهدافه شخصيًا، ذلك أنّ العام المذكور شهد عمليات قصف متواصلة وعنيفة على دمشق، كما أنّ حي جوبر يُعتبر من الناحية الأمنية

خطيرًا جدًا. لو قال الأسد الجملة نفسها، في خلال لقائه مثلًا مجموعة من مستشاريه في القصر الرئاسي لكان وقع أفعال كلامه في تلك اللحظة مختلفًا جذريًا.

٦. المؤثرات الصوتية والجسدية في فعل الخطاب تؤسس أيضًا لنجاحه أو فشله. إنّ أيَّ تعبير عن توتر في الحركات أو الصوت خلال إعلان شيء ما من قِبل رجل السّياسة، يؤدِّي حتمًا إلى إضعاف الفعل الذي يسعى إلى إنتاجه. ورفع الصوت وحدّته والحركات المهددة... كلّ ذلك قد يحتمل وجهَيْ نجاح الفعل أو فشله. في هذه الحال يمكن أن نفهم أكثر أولوية الملفوظ على الجملة المكتوبة أو النّص. فالنّص قد يصبح أقوى أو أضعف إذا ما تحول إلى خطاب، لأنّ «أفعاله» في حالة الخطاب ترتبط بشخصية وصوت وحركات ولغة جسد قائله، وترتبط أيضًا بمستوى اللّغة والنطق... كم من الخطابات فقدت معناها وبالتالي «أفعالها» حين تلعثم أصحابها في خلال نطقها. وكم من الخطابات فقدت أهميتها حين ارتكب ملقوها أخطاء لغوية فادحة أو بدت فادحة. وكم من الخطابات ضعيفة المضمون اكتسبت قوتها من خلال التلفظ المتقَن بها ولها.

٢. البراغماتية والخطاب السياسي

يشكِّل الخطاب السّياسي برأينا تقاطعًا بين علوم كثيرة، فهو لغويٌّ بلاغيٌّ من حيث اللّغة والأدب، وله أبعاد وتأثيرات نفسية من

حيث العلوم النفسية، وله ارتدادات اجتماعية وسياسية واقتصادية من حيث علوم السّياسة والاقتصاد والمجتمع، وله مؤثرات دعائية واضحة أو مضمرة من حيث علم الدعاية السّياسية، وله سياقه العام في الشكل والإطار من حيث علم الجسد وعلوم التكنولوجيا البصرية الحديثة وإسنادات التاريخ والجغرافيا، وله أبعاد لسانية ومنطقية من حيث علوم اللسانيات والمنطق.

من الطبيعي إذًا أن يكون تشريح الخطاب السّياسي وتفكيك رموزه وشيفراته و«كوداته» خاضعَيْن لمجموعة من العلوم وليس لعلم واحد. ذلك أنّ من يسعى إلى تحليل خطاب سياسي، عليه بتفكيك رموز اللّغة والبلاغة والصورة والصوت والحركات والإضاءة وتعبيرات الخطيب والإطار العام، وعلاقة الخطيب بجمهوره.

يقول باتريك شارودو: «بما أنّ للخطاب السّياسي بالدرجة الأولى أهدافًا إقناعية، فمن الضروري إظهار المسارات التلفظية فيه، ذلك أنّ معظم المؤثرات الإقناعية تمرُّ من خلال كيفية تظهير الخطباء لخطاباتهم على المسرح، لكنّ هذه المؤثرات الممسرحة لا تضمن إحداث تأثيرات فعلية عند الناخبين مثلًا، لأنّ هؤلاء يشعرون بها ويفسرونها من خلال ما هم عليه ومن خلال تاريخهم ومراجعهم»[1].

مع التطور التكنولوجي وثورة المعلوماتية تضاعفت أساليب

---

(1) Charaudeau Patrick, *La Conquête du pouvoir*, L'Harmattan, Paris, 2013, P.1 8.

التحليل، وتعقدت إستراتيجيات الإقناع. فما عاد الخطاب يعتمد على القدرات البلاغية عند الخطيب وعلى حسن إطلالته وجودة لسانه فقط، وإنّما صار كأي سلعة يراد ترويجها على أوسع نطاق، يخضع لشروط السّوق والتسويق أو إلى ما يسميه الغربيون بـ(Marketing politique). هذا النوع من التسويق السّياسي يأخذ أبعاده القصوى خلال الحملات الانتخابية أو الحملات الترويجية لتلميع صورة شخص أو دولة.

رأينا سابقًا أنَّ الخطاب السّياسي هو مجموعة من الجمل والعبارات التي تُنتج أفعالًا هدفها التأثير في المتلقي في سياق اجتماعي وثقافي ونفسي، وفي إطار زمني وجغرافي محددين. إنّ المذهب «البراغماتي» يعني كلّ هذه المؤثرات التي تحملها ملفوظات الخطاب، ولكن أيضًا المسكوت عنه. يبدو لنا بالتالي أنّه الأكثر جدوى من حيث تفكيك هذا الخطاب إلى أفعال، وبحث المقاصد الفعلية للعبارات المنطوقة أو الملفوظة، واستخلاص الأفعال التوجيهية التي يريد السّياسي الخطيب إقناع جمهوره بها أو دفعه لتبنّيها والتصرف على أساسها.

بما أنّ الخطاب السّياسي هو وسيلة التواصل السّياسي ما بين المرسل والمتلقي، -بغض النظر عن حجم الخطاب وعدد عباراته وكلماته- فإنّ المذهب البراغماتي نظر إلى هذا الخطاب على أنه يُجمل مجموعة من الأفعال التي لا يمكن فهم مقاصد الخطيب إلّا من خلال الوقوف عندها وليس عند الجمل المكتوبة. ذلك أنَّه من خلال الأفكار الأساسية التي يتضمنها الخطاب السّياسي يمكن رصد

الأفعال الأساسية التي تنتجها تلك الأفكار أثناء التلفظ بها، وبعد الانتهاء من التلفظ أو النطق بها مباشرة أو على المديين المتوسط والطويل، بالرغم من أنّه غالبًا ما يكون الزمن المباشر والآني هو المقصود وليس المدى الطويل.

قد تتحول فكرة من أفكار الخطاب السّياسي إلى شعار لحملة أو معركة أو حرب أو سلام؛ تصبح الفكرة Slogan[1]. يقول الفيلسوف الفرنسي أوليفييه ريبول: «إنّ الوظيفة الفعلية لهذه الجملة المنطوقة (الشّعار) ليست موجودة في مغزاها وإنّما في تأثيرها. هذا التأثير ليس محصورًا بما تريد العبارة قوله وإنّما بما تريد فعله، أي دفع الناس إلى الفعل من دون أن تكون لديهم القدرة على كشف القوة التي تدفعهم، ذلك أنّ الشّعار يهدف إلى منع متلقيه من التفكير في مضمونه وإعاقة شكوكه وعدم يقينه، وأيّ تفكير نقدي لمصلحة الفعل»[2]. لا بدَّ إذًا من تفكيك الشّعار إلى الأفعال المنشودة من خلاله، وذلك لإدراك مجمل مقاصده أو أبرزها.

الشّعار الدعائي أو الانتخابي يشبه الخطاب، أو هو خطاب مختصر، لذلك فهو يخاطب المشاعر والعقل الباطن والرغبات، ويُنتج أفعالًا شعورية تعبيرية وإعلامية وتبليغية. والشّعار هو كالأفكار

---

(١) Slogan كلمة فرنسية قديمة كانت عبارة عن صرخة يطلقها أبناء قبيلة ما إيذانًا بالحرب ثم صارت لاحقًا تستخدم للتعبير عن شعار حزب أو حملة أو منتوج سياسي أو تجاري.

(2) Reboul Olivier, *Le slogan,* Editions Complexe, Bruxelles, 1975, P. 10 et 11.

الكبرى في الخطاب السّياسي التي تستند إلى قاعدة الإعلان التجاري التي سبق وذكرناها AIDA، وهي اختصار لأربع كلمات: الانتباه والمصلحة والرغبة والشراء. فالأفكار الكبرى تلفت الانتباه من خلال الفعل التبليغي أو الإعلامي، وتثير المصلحة وتُنتج فعل الرغبة والتأييد أو الامتناع عن التأييد.

لا يختلف الهدف التأثيري المنشود من الخطاب السّياسي كثيرًا عن الهدف التجاري في الخطاب الإعلاني. فهما يستندان إلى إستراتيجية الإقناع والذرائع والحيل اللّغوية، ويستميلان الغرائز والعقل. ربّما يكون الفرق الوحيد بينهما في أنّ الخطاب الإعلاني قد يميل أكثر إلى الغرائز، بينما الخطاب السّياسي لا يزال حتى اليوم يعتمد طريق الإقناع أي العقل، لكنَّه في جوانب كثيرة من إستراتيجياته يلجأ إلى إثارة الغرائز.

هذا ما قصده الشهري عبد الهادي بن ظافر بقوله إنّ الخطاب «يستخدم آلياتٍ متعددة وحيلًا لغوية مختلفة، منها ما يخاطب العواطف ومنها ما يتعامل مع عقل المرسَل إليه مثل الآليات الحجاجية التي يمكنه عن طريق البراعة فيها أن يتَّخذ الأقوال أدلَّة تُساق أمام المرسَل إليه حتى يُقنعه دون التلاعب بعواطفه، أو التغرير به، ويوظف له جميع العمليات شبه المنطقية التي تتجسّد باللّغة الطبيعية»(١).

تبدو البراغماتية الأكثر قدرة على تفكيك هذه الإستراتيجيات

(١) الشهري عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ٢٠٠٤، ص VIII.

العاطفية والغرائزية والعقلية من خلال استخلاص أفعال الخطاب ودراستها في سياقها اللّغوي وما فوق اللّغوي وفي سياقاتها المكانية والزمنية والظرفية.

وفي توقفها عن الدور المركزي لسياق الخطاب، تستطيع البراغماتية تفكيك عامل مهم من عوامل الخطاب وتأثيراتها وهو العامل الخارجي، ذلك أنّ الدخول إلى عوالم الخطيب وجمهوره وعلاقتهما معًا وموروثات ومكتسبات تلك العلاقة والأبعاد النفسية والاجتماعية والتربوية وغيرها، لا يمكن إغفالها لفهم المقاصد الحقيقية للخطيب. وهذه جميعها تكوّن جزءًا أساسيًّا من المنهج البراغماتي في توقفه عند مفهوم «السّياق»، الذي تقول فيه الباحثة الفرنسية المتخصصة بالبراغماتية فرنسواز أرمانغو إنّه: «الظرف الحسي الذي يتمّ فيه إرسال عبارات معينة، أو التلفظ بها، إضافة إلى المكان والزمان وهوية المخاطِب... إلخ. أي كلّ ما نريد معرفته لنفهم أو نقيِّم ما قيل، ونفهم كم أنّ السّياق ضروري حين نُحرم منه، مثلًا حيث يتمّ نقل ما قيل عبر طرف ثالث، فتصبح العبارات بشكل عام أكثر غموضًا وغير قابلة للتقدير»[1].

استطاعت البراغماتية من خلال «أفعال الخطاب» التقدم على المذاهب والنظريات الأخرى في تحليل الخطاب السّياسي، وتقدمت كذلك على الفلسفات التي سبقتها من خلال ثلاثة مبادئ،

---

(1) Armengaud Françoise, *La pragmatique,* Puf, Edition 2007, Paris, P. 128.

أولها مبدأ الفعل، وثانيها مبدأ السّياق، وثالثها مبدأ إنجاز الفعل في سياقه، ما يعني عمليًا إدراج العبارات والجمل المنطوقة في إطار تواصلي ما بين المرسِل والمتلقي. لعلها بذلك تمايزت عن مناهج التحليل السّابقة مثل الكمِّي والنوعي، وتقدمت عليها لكن من دون إغفال دورها؛ فتكرار بعض الكلمات مثلًا (التحليل الكمِّي) وتكرار أو تكامل المعاني (كما في حالة التحليل النوعي) يخدمان إدراك «فعل» الخطاب ومقاصد الخطيب. لذلك فإنّ فرانسواز أرمانغو وغيرها من الفلاسفة الذين طوّروا المذهب البراغماتي في الغرب: تحدثوا عن «تقاطع» علوم وفلسفات ونظريات في البراغماتية وليس عن علم قائم بذاته ومنفصل كليًا عمّا سبق. البراغماتية إذًا هي منهج فلسفي لساني يشكلُ ساحة تلاقٍ للكثير من المناهج السابقة واللاحقة لتحليل الخطاب، لكنه يضيف فعل القول وكذلك يذهب أبعد من الجملة المكتوبة والمنطوقة فيساهم، أكثر من غيره، في سبر المقاصد الحقيقية للخطيب وخطابه.

نموذج لتحليل براغماتي

خطاب العاهل السعودي الملك سلمان لمناسبة الدورة السابعة لمجلس الشورى في ٤١ كانون الأول/ ديسمبر ٦١٠٢.

(نص الخطاب في الملحق)

المفردات والقيم	عدد مرات ترددها
الله	٢٩ مرة
اقتصاد ومشتقاته	١٥
أمن وأمنية	١١
تنمية ومشتقاتها	١٠
إسلام وإسلامية	٩
وطن	٨
يمن ويمنية	٨
دين	٧
استقرار	٦
شورى	٥
إرهاب	٤
حل	٤

المفردات والقيم	عدد مرات ترددها
النفط	٤
فلسطين وفلسطينية	٤
تطلع وتطلعات	٤
إصلاح وإصلاحات	٣
مستقبل	٣
صراع وصراعات	٣
تطوير	٣
هيكل وهيكلية	٣
حوار وحوارات	٣
عربي وإسلامي	٢
تدخل وتدخلات	٢
تحسين	٢
خطط	٢
حروب	١
إسرائيلية	١
عربي وإسلامي	٢
تدخل وتدخلات	٢
تحسين	٢
خطط	٢
حروب	١
إسرائيلية	١

أولًا في المضمون

جاء هذا الخطاب بعد عام تقريبًا على تولي الملك سلمان شؤون العرش في بلاده خلفًا للملك الراحل عبدالله. جاء أيضًا بعد نحو تسعة أشهر عن بدء «عاصفة الحزم» ضد أنصار الله الحوثيين وقوات الرئيس السابق علي عبدالله صالح. كانت الأسئلة كثيرة حول مصير الحرب في اليمن، وتزامنت مع ارتفاع حدة المواجهة الكلامية بين الرياض وطهران. جاء كذلك بعد نحو ٦ أشهر على الاتفاق النووي بين إيران والدول الخمس في ما سمي باتفاق ٥+١.

هذه أبرز الملاحظات حول المضمون

الملاحظة الأولى: هي أن الملك السعودي لم يذكر ولا مرة واحدة إيران في هذا الخطاب وإنما أشار إليها تلميحًا، وتضمن التلميح تحذيرًا. قال سلمان: «بالنسبة لليمن الشقيق فنحن في المملكة العربية السعودية نرى أن أمن اليمن الجار العزيز من أمن المملكة، ولن نقبل بأي تدخل في شؤونه الداخلية، أو ما يؤثر على الشرعية فيه، أو يجعله مقرًا أو ممرًا لأي دول أو جهات تستهدف أمن المملكة والمنطقة والنيل من استقرارها».

الملاحظة الثانية: أن مفردة «التدخل» جاءت للحديث تلميحًا عن إيـران، وتصريحًا عن إسرائيل، طالب: «بالتدخل العاجل لوقف الاعتداءات والممارسات الإسرائيلية العدوانية والمتكررة ضد الشعب الفلسطيني»... ربما لم يكن هذا الاستخدام المزدوج مقصودًا لكن في خلفية الصراع السعودي الإيراني قد يكون ورد عمدًا أو عن غير قصد. الاحتمالان واردان.

الملاحظة الثالثة: أن الخطاب كشف الهاجس الأول عند العرش السعودي في تلك الفترة والمتعلق بالاقتصاد وكيفية النهوض به وعدم حصر تحسينه بالنفط (مفردة نفط وردت ٤ مرات)، بل على العكس تمامًا من خلال قطاعات غير نفطية. نلاحظ هنا أن مفردة الاقتصاد ومشتقاتها وردت ١٥ مرة، هي احتلت النسبة الأولى من مفردات الخطاب بعد مفردة الجلالة (الله ٢٩ مرة)، ما يعني أنّ الاهتمام سينصب من الآن فصاعدًا على البحث عن كيفية النهوض بالاقتصاد.

الملاحظة الرابعة: تتعلق بالمستقبل وبالخطط والتطوير والتحسين، لو جمعنا المفردات المتعلقة بالخطط والآمال والتنمية والتطوير والإصلاح والهيكلة والتطلعات، نجدها قد وصلت الى ٣٠ مفردة. هذا رقم قياسي في خطاب من المفترض أن تكون أولوياته في تلك الفترة أمنية أو سياسية.

الملاحظة الخامسة: أن اليمن بقي القضية السياسية والأمنية الأولى بحيث حاز من الخطاب ٨ مفردات، لكن فلسطين والفلسطينية أيضًا حضرت بـ ٤ مفردات والإرهاب بـ ٤ مفردات أيضًا، ما يشير الى أن الإرهاب صار بالنسبة إلى السياسة السعودية أيضًا أولوية داخلية وخارجية توازي ما صارت إليه فلسطين.

الملاحظة السادسة: أن الخطاب وازن تمامًا بين صراع وصراعات من جهة (٣ مفردات) وبين حوار وحوارات، هذا يشير إلى أن السعودية المنخرطة في عددٍ من الحروب في المنطقة لا تزال

تميل أيضًا إلى الحلول السلمية وإلى الحوار لإخماد بؤر النار. قال الملك: «لا يخفى ما تمر به منطقتنا من تعدد الصراعات والأزمات، مما أوجد حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار وزيادة المخاطر، الأمر الذي دعا حكومتكم إلى أن تبذل أقصى جهودها على الساحتين الإقليمية والدّولية، من خلال الحوار والتشاور، من أجل حلّ تلك الصراعات والأزمات بالوسائل السلمية».

الملاحظة السابعة: أنّ الخطاب السعودي، وهذا طبيعي في المملكة، بقي تحت مظلة الإسلام، فإلى عبارات البسملة والحمدلة والشكر في البداية، فإن مفردات دين وإسلام وإسلامية وردت ١٨ مرة. واسم «الله» ورد ٢٩ مرة. هذا ليس أمرًا عابرًا أو بسيطًا ذلك أنّ شرعية العرش تستند أصلًا إلى هذه العلاقة مع الدين، ولم يكن مصادفة تسمية الملك بـ«خادم الحرمين الشريفين».

الملاحظة الثامنة: أنّ مفردات مثل «ديمقراطية» أو «حرية» أو «انتخابات» بقيت غائبة عن الخطاب، بينما حلت مكانها مفردة «شورى» ٥ مرات. ما يعني أن كل الضغوط الدولية التي مورست على المملكة لم تنجح في جعل «كلمة» ديمقراطية مستساغة في خطاب ملكي. أما في إيران مثلًا فنلاحظ أنه جرى دائمًا التذاكي عليها من خلال إقرانها بالدين بحيث يقال «الديمقراطية الدينية» وقد نظّر مرشد الثورة الإسلامية السيد علي خامنئي كثيرًا حول البعد الديني لهذه الديمقراطية وعدم إسقاط الدّيمقراطية الغربية على الدول الإسلامية لأنها لا تناسبها.

في أفعال الخطاب وفق البراغماتية

- في تحليلنا لخطاب الملك سلمان، نستند إلى الأفعال الأســاسية الثلاثة التي تحدث عنها (Austin) ومنظرو البراغماتية اللسانية (أوالقولفعلية كما أسميناها)، وهي الأفعال التالية: (Locutionary act) فعل التلفظ مع ما يحتويه من قواعد لغوية وغيرها متفق عليها و(Illocutionary act) الفعل التحقيقي أو الإنجازي و(perlocutionary act) الفعل التأثيري الهادف إلى إحداث تأثير أو إنتاج فعل عند المتلقي).
- الفعل التلفظي أو النطقي أو إخباري (locutionary act): هو مجموع ملفوظات الخطاب وقواعدها اللغوية والبنيوية والبلاغية المفهومة من الخطيب وجمهوره، وهي التي تخبر شيئًا ما بمجرد النطق بها. الخطاب يوفي هذه الشروط.

١- الفعل الإنجازي (illocutionary act). حين يقول العاهل السعودي: «إن هذه المناسبة التي تجمعنا اليوم، وقد مضى ٢٤ عامًا على هذا المجلس في تكوينه الحديث، لتؤكد مضي هذه الدولة في الأخذ بهذه الممارسة الشورية التي بدأها جلالة المؤسس الملك عبد العزيز... وإنه لمن دواعي سروري في هذا اللقاء السنوي المتجدد أن أعرض أهم ما تمّ إنجازه.... ولقد تبوأت المملكة العربية السعودية، ولله الحمد مكانةً اقتصاديةً عاليةً بين دول العالم». فهو هنا يستهل خطابه

بفعل إنجازي بامتياز، حيث أنه لا يخبر لمجرد الخبر، وإنما ليؤكد أن ما تحقق من إنجازات سوف يستمر وأنّ مبدأ الشورى مستمر. هنا الوعد يقترن بفعل الإنجاز ولكنه يبقى بحاجة إلى التحقق منه لاحقًا بعد إنجازه.

٢- الفعل التأثيري؛ (Perlocutionary act). (هو مبتغى كل خطاب وأهم مقاصده، بحيث لا يوجد خطاب دون الرغبة في التأثير، هذا مستمر كما رأينا منذ أرسطو حتى اليوم). نجد في خطاب الملك سلمان هذا أن الدين والملك والمؤسس والإنجازات كلها أمور خدمت مقدمة الخطاب وساهمت في جذب الحضور وأحدثت فعل التأثير. فالملك هنا يخاطب أعضاء مجلس الشورى ويذكرهم بأن هذه الشورى هي من المقدسات لأنها من تركة المؤسس. وهو إذ يستهل خطابه بكلام الله وبالتركيز على مبدأ الشورى في القرآن الكريم (وشاورهم في الأمر) إنما يستثير كل مؤثرات التاريخ والموروث الديني والإنساني والحضاري والتقاليد عند متلقي خطابه، فيجعلهم في مكانة تليق بما يعتقدونه حقهم في الشورى. الأمر الذي يخلق تعاطفًا كبيرًا من الخطيب لأنه يخاطب العقل والعاطفة والموروثات الدينية والاجتماعية والنفسية.

كذلك الأمر حين يقول: «لقد تبوأت المملكة العربية

السعودية، ولله الحمد- مكانةً اقتصاديةً عاليةً بين دول العالم، وسجلت حضورًا قويًا على الساحة الدولة والاقتصادية، فأصبحت ضمن مجموعة العشرين التي تضم أكبر ٢٠ دولة اقتصادية»، فإن الملك سلمان، يستخدم «فعل التأثير» في أعلى درجاته. ذلك أن الإنسان بشكل عام يحب النجاح وأفعال البطولة، والإنسان السعودي (والخليجي عمومًا) متعلق بالنجاح الاقتصادي لبلاده لأن في هذا الجانب تكمن رفاهيته. هنا الملك يبث الكثير من الطمأنينة وكأنه يقول للحاضرين: «لا تقلقوا فإن وضعنا الاقتصادي ممتاز».

هذا استهلال ذكي لخطاب يُلقى أمام صفوة المجتمع السعودي في مجلس الشورى ويـراد له أن يشرح ويفصل حاضر ومستقبل الوضع الاقتصادي (الذي هو في حقيقة الأمر صعب، نظرًا إلى تراجع سعر النفط والتكاليف الباهظة لحرب اليمن ومكافحة الإرهاب وغيرها).

لنلاحظ هنا أن الملك لم يذكر كلمة «تقلبات اقتصادية شديدة عانت منها معظم الدول» إلا بعد مرور ما يقارب ٥٥٦ كلمة. كان من الواضح إذن أنه مهّد بـ«فعل التأثير» ولعله أرخى على الحضور جوًا من الاطمئنان قبل أن يبدأ بعرض المشاكل وكيفية حلها.

الفعل التأثيري الذي طوره (John Searle) ثم عدد من اللسانيين وفلاسفة اللغة والبراغماتية بعده يهدف إلى إحداث تأثير مباشر أو بعيد المدى في المتلقي، لكن الشرط الضروري لإحداث مثل هذا التأثير يتعلق أيضًا بقدرة المتلقي على أن ينفذ هذا التأثير. هذا يتطلب قواسم مشتركة بين الملقي والمتلقي، هنا بين الملك وجمهوره المباشر في مجلس الشورى، أو الشعب السعودي من خلال المجلس أو بقية العالم عبر التلفزات ووسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي.

٣- فعل الوعد: يجب الإشارة هنا إلى أن خطاب الملك أمام مجلس الشورى، جاء بعد نشر المملكة خطة اقتصادية تنموية اجتماعية طموحة تحت عنوان «رؤية المملكة ٢٠٣٠». طبيعي إذن أن يكون فعل «الوعد» هو الأكثر حضورًا لأن الملك هنا يتحدث عن المستقبل وعن خطط وعن تطوير. لذلك نجده يقول: «إن هذه الرؤية شملت خططًا واسعة وبرامج اقتصادية واجتماعية تنموية تستهدف إعداد المملكة للمستقبل، ويأتي ضمن أولوياتها تحسين مستوى الأداء للقطاعين الحكومي والخاص، وتعزيز الشفافية والنزاهة، ورفع كفاءة الإنفاق من أجل رفع جودة الخدمات المقدمة بما يحقق الرفاهية للمواطن». لاحظوا هنا كم من

أفعال الوعد تتضمن هذه الجمل. إنه وعد بـ«إعداد المملكة للمستقبل»، ووعد بـ«تحسين الأداء الحكومي والخاص» ووعد بـ«تعزيز الشفافية والنزاهة» ووعد بـ«رفع كفاءة الإنفاق من أجل جودة الخدمات» ووعد بـ«تحقيق الرفاهية للمواطن»... نحن هنا أمام ثورة من التحولات لو تحققت فعلًا تصبح المملكة أهم دولة على مستوى العالم وليس فقط في محيطها. (لا بل تصبح دولة فاضلة كما أرادها أفلاطون) فلماذا رفع الملك منسوب الوعود إلى هذه الدرجة؟ هل في الأمر آمال ورغبات وإرادة فعلية، أم أن خلف الوعود أيضًا تمهيدًا للإجراءات التي قد تكون قاسية في مرحلتيها القصيرة والمتوسطة المدى؟

الواقع هو بين الأمرين. ذلك أن الملك الذي ذكّر بـ«رؤية المملكة ٢٠٣٠» وطمأن إلى أنها ستنقل البلاد إلى المستقبل، سرعان ما انتقل إلى نقطة كبيرة الأهمية والحساسية في المملكة، إنه النفط، هذا الذهب الأسود الذي عاشت دول الخليج مرفهة بفضل مداخيله. ها هو الملك يقول لشعبه الآن وعبر مجلس الشورى ما هو مقبل بشأن الثروة النفطية التي تراجعت أسعارها من جهة وقد تفقد أهميتها في أميركا لاحقًا بسبب استخراج النفط الصخري الذي لا يكفي أميركا فقط وإنما يجعلها

الدولة الأولى عالميًا في مجال التحكم في هذا الذهب الأسود.

٤- هنا جاءت «المصارحة لأجل فعل الفعل» فأخذت مكانها الطبيعي في خطاب الملك سلمان. قال بوضوح: «تستهدف هذه الرؤية رفع نسبة الصادرات غير النفطية» وتحدث عن «زيادة الإيـرادات غير النفطية» ثم فتح الباب للحديث عن كارثة تراجع أسعار النفط بقول: «لا يخفى عليكم ما يمر بالعالم من تقلبات اقتصادية شديدة عانت منها معظم الـدول، وأدت إلى ضعف بالنمو وانخفاض في أسعار النفط، مما أثر على بلادنا»... من خلال شرحه لما أصاب النفط من وهن وتراجع، فإن العاهل السعودي يريد من الجالسين أمامه وكذلك من الذين يشاهدونه أو يسمعونه عبر التلفزات والإذاعات ووسائل التواصل الاجتماعي، أن يهيّئوا أنفسهم للبدء بالتأقلم مع المرحلة الجديدة وأن يقوموا بما يلزم لمواجهة تلك المرحلة والتعامل معها. هو يحثهم من خلال مصارحتهم على القيام بهذا الفعل. وهو ما عرفته مدارس البراغماتية الفرنسية بـ«Faire Faire» أو (فعل الفعل). لكن الملك، ومن خلال المصارحة أيضًا يطلب من سامعيه ومشاهديه وقرّائه أن يُحجموا عن الاعتماد فقط على النفط ومباشرة التفكير الجدي

في مداخيل وقطاعات أخرى منتجة وغير نفطية، وهذا ما عرفته المدرسة الفرنسية بـFaire ne pas faire أي (فعل عدم الفعل).أو (فعل الإحجام عن القيام بفعل)

٥- فعل الطمأنية: لا شك أن العاهل السعودي كان يُدرك وهو يصارح أعضاء مجلس الشورى والسعوديين بشأن المستقبل غير النفطي، بأن الأمر قد يبث كثيرًا من القلق حيال المصير. لذلك نراه في المقطع التالي من الخطاب يعود إلى إثارة فعل الطمأنية، فيُذكّر بأن السعودية عاشت مثل هذه العقبات الاقتصادية سابقًا ولكنها تخطتها، وذلك بقوله: «لقد مرّ على بلادنا خلال العقود الثلاثة الماضية ظروف مماثلة اضطرت فيها الدولة لتقليص نفقاتها، واستطاعت بحمد الله تجاوز تلك الظروف باقتصاد قوي ونمو متزايد مستمر»

٦- فعل الوعيد: من المهم الإشارة إلى أن الملك سلمان كان يلقي خطابه هذا فيما الغموض يحيط بأسباب ارتفاع الضغوط الأميركية والأوروبية على السعودية وتسليط الضوء عليها. (حديث غير مريح لأوباما مع مجلة أتلانتيك. نقاشات في الكونغرس حول علاقة الوهابية بالإرهاب، قرار في الاتحاد الأوروبي بمنع بيع أسلحة... إلخ). الإشارة مهمة أيضًا إلى أن المملكة كانت في تلك الفترة قد انخرطت جديًا في محاربة

الإرهاب خصوصًا بعد أن ضربها غير مرة ووافقت على وضع عدد من التنظيمات التكفيرية في خانة المنظمات الإرهابية وأصدر مفتي السعودية عددًا من الفتاوى تؤكد أنَّ داعش «فرقة ضالة».

في هذا المناخ نجد أن «فعل الوعيد» الذي ذهب إليه الملك سلمان جاء في وقته وزمانه. قال: «وسوف نواجه كل من يدعو إلى التطرف والغلو امتثالًا لقول المصطفى ﷺ (إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)، وبالقدر نفسه سوف نواجه كل من يدعو إلى التفريط بالدين، وإن المملكة ماضية في مواجهة ظاهرة الإرهاب بكل قوة وحزم، وتتطلع إلى تكاتف جهود دول العالم لمحاربته والقضاء عليه باعتباره آفة عالمية، فلقد سعى الإرهابيون إلى زعزعة الأمن والاستقرار في معقل من أهم معاقل الإسلام وفي أطهر البقاع وجوار مسجد الرسول ﷺ، وفي هذا الصدد فإن تطبيق شرع الله، والتعاون بين الشعب والحكومة، ويقظة الأجهزة الأمنية وشجاعة منسوبيها، كل ذلك بعد توفيق الله تعالى سوف يحول دون تحقيق هؤلاء المجرمين مقاصدهم وأهدافهم، ونحن عازمون وبكل حزم على التصدي للإرهاب وأخطاره».

نلاحظ أن الملك كان من خلال «فعل الوعيد» هذا

يوجه على ما يبدو رسائل كثيرة إلى الداخل والخارج، وكأنه يريد القول لكل المشككين بأن المملكة ماضية بكل حزم وقوة لضرب الإرهاب، وهو بذلك يسعى إلى سحب الذرائع من الدول التي كانت تتهم تلميحًا أو تصريحًا المملكة أو بعض الجمعيات ورجال الأعمال فيها بدعم تنظيمات إرهابية.

نلاحظ أيضًا أنّ «فعل الوعيد» هنا، يكتسب في خطاب الملك شرعية دينية، من خلال دعم هذه الخطوات بحديث عن نبي الإسلام وأيضًا من خلال التذكير بأن السعودية هي «دولة الإسلام» وأن ما تفعله ضد الإرهـاب إنما هو «تطبيق شرع الله». كما أن «فعل الوعيد» هنا يقترن بـ«فعل الطلب»، ذلك أن العاهل السعودي يطلب من الشعب أن يساند الأجهزة الأمنية في مواجهة آفة الإرهاب بقوله: «والتعاون بين الشعب والحكومة، ويقظة الأجهزة الأمنية وشجاعة منسوبيه»

٧- فعل التهدئة. إذا كان الملك سلمان سلّط الضوء على إيران دون أن يسميها من خلال كلامه عن التدخلات التي لن يسمح بها، كما شجب الاعتداءات الإسرائيلية العدوانية، فإنه في المقابل استخدم مفردات تنحو صوب استثارة فعل التهدئة عند مواطنيه ولكن أيضًا لدى الخارج. ففي العلاقة مع إسرائيل ذكّر بـ«مبادرة السلام

العربية وقرارات الشرعية الدولية»، وهو إذا تحدث عمّا «تمر به منطقتنا من تعدد الصراعات والأزمات، مما أوجد حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار وزيادة المخاطر» فإنه طلب من الحكومة السعودية: «أن تبذل أقصى جهودها على الساحتين الإقليمية والدولية، من خلال الحوار والتشاور، من أجل حل تلك الصراعات والأزمـات بالوسائل السلمية» لا بل إنه ذهب نحو مخارج تفاؤلية بقوله: «رغم ما تمر به المنطقة من مآس وقتل وتهجير إلا أنني متفائل بغدٍ أفضل- إن شاء الله»، كذلك الأمر بالنسبة إلى اليمن فهو وبعد أن استخدم فعل «الوعيد» بالقول: «لن نقبل بأي تدخل في شؤونه الداخلية أو ما يؤثر على الشرعية فيه، أو يجعله مقرًا لأي دول أو جهات تستهدف أمن المملكة والمنطقة والنيل من استقرارها»، عاد يقول: «موقف المملكة من الأزمة اليمنية هو المطالبة بحل سياسي».

٨- «فعل الإقناع»: في كل مرة كان الملك يتحدث عن أمر أو عقبة، كان يسعى لإقناع شعبه بأن ما تمر به البلاد حاليًا عابر وأنها سوف تنهض من جديد وتصبح أفضل. وحين يتحدث عن الإرهاب فهو هنا أيضًا يريد إقناع شعبه والأجهزة بأن ما يفعلونه ضد هذه الآفة إنما هو من فعل الإيمان وتعاليم القرآن الكريم والرسول.

وأما الأهم في استخدام هذا الفعل، فهو أن الملك أراد من خطابه هذا إقناع السعوديين بأن ما يُخطط له حاليًا وخصوصًا «رؤية المملكة ٢٠٣٠» إنما هو لإعداد البلاد للدخول إلى المستقبل. معروف أن هذه الرؤية حملت بنودًا جذرية في بنية المجتمع تتعلق بالمرأة ومكانتها وبالفن والمسرح والدين والتربية والتعليم.

لعل الملك سلمان المدرك لحساسية مثل كل هذه الأمور المضافة إلى مكافحة الإرهاب، أراد من خطابه قبل كل شيء تهدئة القلق والمخاوف، ولذلك رأينا خطابه متفائلًا وذاهبًا نحو التسويات والحلول، وليس خطابًا تصعيديًا.

هنا كان الملك سلمان يستخدم البراغماتية وأفعالها بأفضل ما يكون في رسائل تحمل بعدين داخليًا وخارجيًا.

٩- فعل التوجيه: حضر هذا الفعل في خلال حث الملك سلمان شعبه على التعاون مع الأجهزة، لكنه حضر خصوصًا في القسم الأخير من الخطاب وذلك حين أصدر الملك توجيهاته إلى المؤسسات الرسمية قائلًا: «ومجلسكم الموقر عليه مسؤوليات عظيمة تجاه الوطن والمواطنين، وإنني أطالبكم جميعًا أن تضعوا مصالح الوطن والمواطنين نصب أعينكم دائمًا، وإبداء المرئيات

حيال ما تتضمنه تقارير الحكومة المعروضة على المجلس، والتشاور مع المسؤولين، وعلى المسؤولين في الجهات كافة، والتعاون مع المجلس، وتزويده بما يحتاجه من معلومات». هنا يعود الملك إلى ممارسة وظيفته الأولى أي صاحب الكلمة الفصل الذي يصبح كلامه أوامر لا تمنيات.

١٠- «فعل الصمت»، يمكننا رصد الكثير من الأمور المسكوت عنها في الخطاب. فالملك لم يشر مثلًا إلى ارتفاع نسبة البطالة، ولم يتحدث عن بعض الشركات والقطاعات التي تعاني مشاكل، ولم يذكر قضية السعي لبيع جزء من أهم شركة نفطية سعودية «أرامكو»، ولم يذكر شيئًا عن الحرب في سوريا ولا عن الجوار العراقي، ولم يتحدث عن العلاقة المعقدة مع الأميركيين (آنذاك)... كل هذه الأمور كان فيها الصمت أبلغ من الكلام، ذلك أن الملك أراد خطابًا مطمئنًا لا خطابًا ينكأ الجراح. في تلك الأثناء كان الخطاب مناسبًا للمكان والزمان. لكن وكما لاحظنا سرعان ما تغير. ارتفعت لهجة التحدي مع إيران لاحقًا خصوصًا على لسان ولي ولي العهد الأمير محمد بن سلمان. في تلك الأثناء تغيرت معطيات كثيرة صبت في مصلحة السعودية. أبرزها التقارب

الكبير الذي أبداه الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب مع الرياض بعد أن كانت تصريحاته الانتخابية قد بثت كثيرًا من القلق في السعودية والخليج. تغيرت المعطيات فتغير الخطاب. هذا أكثر من طبيعي. فالخطاب وكما رأينا آنفًا مرتبط بسياق ومكان وزمان، لو خرج عنها سقط.

النّص الكامل لخطاب الملك سلمان أمام مجلس الشورى ٦١٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز (وشاورهم في الأمر)، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، وعلى بركة الله وبعونه وتوفيقه نفتتح أعمال السنة الأولى من الدورة السابعة لمجلس الشورى، سائلين الله العزيز القدير أن يوفقنا جميعًا لخدمة الدّين ثم الوطن والمواطن.

أيها الإخوة والأخوات

إن هذه المناسبة التي تجمعنا اليوم، وقد مضى أربعة وعشرون عامًا على هذا المجلس في تكوينه الحديث، لتؤكد مضي هذه الدولة في الأخذ بهذه الممارسة الشورية التي بدأها جلالة المؤسس الملك عبد العزيز رحمه الله امتثالًا لقول الله -عز وجل- (وأمرهم شورى بينهم)، وعلى هذا المنهج المبارك سارت هذه البلاد وتبنت الشورى نهجًا لإدارة شؤون الدولة، وإنه لمن دواعي سروري في هذا اللقاء السنوي المتجدد أن أعرض أهم ما تمّ إنجازه على الصعيد الداخلي

من مكتسبات تنموية وأمنية، وما تبنته الدولة من سياسات ومواقف خارجية كان لها الأثر الملموس في الحفاظ على المصلحة الوطنية وتعزيز الأمن والسلام والاستقرار على الصعيدين الإقليمي والدولي.

ولقد تبوأت المملكة العربية السعودية ولله الحمد مكانة اقتصادية عالية بين دول العالم، وسجلت حضورًا قويًا على الساحة الدولية الاقتصادية، فأصبحت ضمن مجموعة العشرين التي تضم أكبر عشرين دولة اقتصادية، وتشهد المملكة بفضل الله نهضة اقتصادية واجتماعية هي نتاج للخطط التنموية الطموحة التي استطاعت أن تحقق أهدافًا كثيرة، ومكتسبات عديدة، والتوجه الآن يسير نحو التحول إلى تنويع مصادر الدخل، وعدم الاعتماد كلية على النفط سعيًا لرسم مستقبل واعد للوطن، وذلك من أجل استمرار وتسريع وتيرة النهضة التنموية الشاملة في جميع القطاعات بالاستفادة من المقومات الاقتصادية والفرص الاستثمارية الواعدة في المملكة، ومن أجل ذلك تبنينا «رؤية المملكة ٢٠٣٠» التي تعكس قوة ومتانة الاقتصاد السعودي وفق رؤية إصلاحية جديدة من شأنها الانتقال بالمملكة إلى آفاق أوسع وأشمل؛ لتكون قادرة بإذن الله تعالى على مواجهة التحديات وتعزيز موقعها في الاقتصاد العالمي، وذلك من خلال تنويع مصادر الدخل واستغلال الطاقات والثروات المتوافرة، والإمكانات المختلفة المتاحة لتوفير الحياة الكريمة للمواطنين.

إن هذه الرؤية شملت خططًا واسعة وبرامج اقتصادية واجتماعية تنموية تستهدف إعداد المملكة للمستقبل؛ ويأتي ضمن

أولوياتها تحسين مستوى الأداء للقطاعين الحكومي والخاص، وتعزيز الشفافية والنزاهة، ورفع كفاءة الإنفاق من أجل رفع جودة الخدمات المقدمة بما يحقق الرفاهية للمواطن.

كما تستهدف هذه الرؤية رفع نسبة الصادرات غير النفطية، ورفع نسبة الاستثمارات الأجنبية المباشرة، والانتقال إلى مراكز متقدمة في مؤشر التنافسية العالمي، وتخفيض معدل البطالة، وزيادة الطاقة الاستيعابية لاستقبال ضيوف الرحمن، وزيادة الإيرادات غير النفطية ورفع نسبة تملك السعوديين للمساكن، ورفع نسبة مشاركة المرأة في سوق العمل.

واستهدفت هذه الرؤية عدة قطاعات مهمة، كقطاع الصحة الذي بذلت الدولة خلال العقود الماضية جهودًا كبيرة لتطويره، وتحقيق الاستفادة المثلى من مدننا الطبية ومستشفياتنا ومراكزنا الطبية في تحسين جودة الخدمات الصحية بشقيها الوقائي والعلاجي، وتقديمها من خلال شركات حكومية تمهيدًا لتخصيصها، كما سنعمل على توسيع قاعدة المستفيدين من نظام التأمين الصحي، وفي قطاع التعليم سيستمر بإذن الله الاستثمار في التعليم والتدريب وتزويد أبنائنا وبناتنا بالمعارف والمهارات اللازمة لمتطلبات التنمية والحصول على فرص التوظيف ليحصلوا على التعليم الجيد وفق خيارات متنوعة، وسيكون تركيزنا أكبر على مراحل التعليم المبكر، وعلى تأهيل المعلمين والقيادات التربوية وتدريبهم وتطوير المناهج الدراسية، كما سنعزز الجهود في مواءمة مخرجات المنظومة التعليمية مع احتياجات سوق العمل.

وتحقيقًا لهذه الرؤية تمت إعـادة هيكلة بعض الـوزارات والأجهزة والمؤسسات والهيئات العامة بما يتوافق مع متطلبات هذه المرحلة، ويحقق التطلعات في ممارسة أجهزة الدولة لمهامها واختصاصاتها على أكمل وجه، وبما يرتقي بمستوى الخدمات المقدمة للمواطن والمقيم وصولًا إلى مستقبل زاهر وتنمية مستدامة - بإذن الله تعالى-.

أيها الإخوة والأخوات

لا يخفى عليكم ما يمر بالعالم من تقلبات اقتصادية شديدة عانت منها معظم الدول، وأدت إلى ضعف بالنمو وانخفاض في أسعار النفط، مما أثر على بلادنا، وقد سعت الدولة إلى التعامل مع هذه المتغيرات بما لا يؤثر على ما تتطلع إلى تحقيقه من أهداف، وذلك من خلال اتخاذ إجراءات بعضها مؤلمة مرحليًا، ورغم ذلك حافظ اقتصادنا - بفضل الله - على متانته وقوته، وقد وجهنا بعدة إصلاحات اقتصادية ومالية وهيكلية شاملة، منها رفع كفاءة الإنفاق الرأسمالي، ورفع كفاءة الإنفاق التشغيلي في الدولة، والعمل على الاستفادة المثلى من الإيرادات وكذلك اتخاذ مجموعة من السياسات والإجراءات الرامية إلى تحقيق إصلاحات هيكلية واسعة في الاقتصاد الوطني وتنويع مصادر الدخل وعدم الاعتماد فقط على البترول وإعطاء الأولوية للاستثمار في المشاريع والبرامج التنموية التي تخدم المواطن بشكل مباشر، وذلك من أجل تقوية وضع المالية العامة وتعزيز استدامتها ومواصلة اعتماد المشاريع التنموية والخدمية الضرورية للنمو الاقتصادي، بما يسهم في تفعيل

دور القطاع الخاص وزيادة مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي، ومن جانب آخر تبذل المملكة جهودًا متواصلة لتحقيق الاستقرار في سوق النفط من خلال التعاون مع الدول المنتجة داخل وخارج الأوبك، ولقد مر على بلادنا خلال العقود الثلاثة الماضية ظروف مماثلة اضطرت فيها الدولة لتقليص نفقاتها، واستطاعت بحمد الله تجاوز تلك الظروف باقتصاد قوي ونمو متزايد مستمر.

أيها الإخوة والأخوات

إن ما نعيشه اليوم من إنجازات تنموية ما هو إلا امتداد للنهج الذي أرساه المؤسس الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وسار على إثره أبناؤه البررة - رحمهم الله- وفق منهج مستمد من الشريعة الإسلامية، وقائم على مبادئ العدل والمساواة وتكافؤ الفرص، وحماية حقوق الإنسان.

وإننا على ثقة في المواطن السعودي وجديته، وهي ثقة لا حدود لها، ونعقد عليه الآمال الكبيرة في بناء وطنه بالعمل المخلص الجاد، والشعور بالمسؤولية الوطنية، وهذا ما نعرفه عن مواطنينا ونأمله منهم، ونحن بعون الله ثم بمساندة أبنائنا المواطنين ماضون في مواجهة المخاطر والتحديات، وتطوير بلادنا ورقيها بما يتفق مع قيم الإسلام وتعاليمه السامية.

أيها الإخوة والأخوات

إن دولتكم دولة الإسلام، الدين القويم الذي نزل على رسول

البشرية محمد ﷺ، دين الوسطية والتسامح نعمل به، ونسعى لتطبيقه على ما كان عليه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده -رضي الله عنهم-، فهو قدوتنا ومثلنا الأعلى، وسوف نواجه كل من يدعو إلى التطرف والغلو امتثالًا لقول المصطفى ﷺ (إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)، وبنفس القدر سوف نواجه كل من يدعو إلى التفريط بالدين، وإن المملكة ماضية في مواجهة ظاهرة الإرهاب بكل قوة وحزم، وتتطلع إلى تكاتف جهود دول العالم لمحاربته والقضاء عليه باعتباره آفة عالمية، فلقد سعى الإرهابيون إلى زعزعة الأمن والاستقرار في معقل من أهم معاقل الإسلام وفي أطهر البقاع وجوار مسجد الرسول ﷺ، وفي هذا الصدد فإن تطبيق شرع الله، والتعاون بين الشعب والحكومة، ويقظة الأجهزة الأمنية وشجاعة منسوبيها، كل ذلك بعد توفيق الله تعالى سوف يحول دون تحقيق هؤلاء المجرمين مقاصدهم وأهدافهم، ونحن عازمون وبكل حزم على التصدي للإرهاب وأخطاره، ولن نتساهل في تطبيق الأنظمة على كل من تسول له نفسه العبث بأمن ومقدرات بلادنا الغالية.

وانطلاقًا من أحكام اتفاقية منظمة التعاون الإسلامي لمكافحة الإرهاب بجميع أشكاله ومظاهره، والقضاء على أهدافه ومسبباته، وأداء لواجب حماية الأمة من شرور الجماعات والتنظيمات الإرهابية المسلحة، أيًا كان مذهبها وتسميتها، التي تعيث في الأرض قتلًا وفسادًا، وتهدف إلى ترويع الآمنين، فقد تم تشكيل تحالف

عسكري إسلامي لمحاربة الإرهاب بمبادرة من المملكة، وذلك لتوحيد وتنسيق ودعم الجهود الإسلامية في مكافحة الإرهاب.

أيها الإخوة والأخوات

في مجال السياسة الخارجية سنستمر بالأخذ بنهج التعاون مع المجتمع الدولي لتحقيق السلام العالمي، وتعزيز التفاعل مع الشعوب لترسيخ قيم التسامح والتعايش المشترك، ونرى أن خيار الحل السياسي للأزمات الدولية هو الأمثل لتحقيق تطلعات الشعوب نحو السلام، وبما يفسح المجال لتحقيق التنمية.

والجميع يدرك أن الدولة السعودية الأولى قامت منذ ما يقارب الثلاثمائة عام، والدولة السعودية الثالثة منذ قرابة المائة عام، ومرت عليها ظروف صعبة وتهديدات كثيرة تخرج منها دائمًا بحمد الله أكثر صلابة وأقوى إرادة بتوفيق الله وعونه ثم بعزم رجالها وإراداتهم الصلبة، ولعل الظروف التي أحاطت بالمملكة وشقيقاتها دول الخليج في العقود القريبة الماضية خير مثال على ذلك، فقد استمرت فيها الحياة والنمو الاقتصادي على طبيعته، وهذه الظروف التي نمر بها حاليًا ليست أصعب مما سبق، وسنتجاوزها إلى مستقبلٍ أفضل وغدٍ مشرق بإذن الله، أقول ذلك وكلي ثقة بالله ثم بأبناء هذا الوطن، ولن نسمح لكائن من كان من التنظيمات الإرهابية أو من يقف وراءها أن يستغل أبناء شعبنا لتحقيق أهداف مشبوهة في بلادنا أو في العالمين العربي والإسلامي.

أيها الإخوة والأخوات

إن من أولويات سياسة المملكة ومبادئها السعي لإيجاد حل عادل ودائم للقضية الفلسطينية وفق مبادرة السلام العربية، وقرارات الشرعية الدولية، ومطالبتها الدائمة للمجتمع الدولي بالتدخل العاجل لوقف الاعتداءات والممارسات الإسرائيلية العدوانية والمتكررة ضد الشعب الفلسطيني، وستواصل المملكة جهودها دعمًا لهذه القضية من أجل إقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف، وإعادة الحقوق للشعب الفلسطيني الشقيق.

ولا يخفى ما تمر به منطقتنا من تعدد الصراعات والأزمات، مما أوجد حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار وزيادة المخاطر، الأمر الذي دعا حكومتكم إلى أن تبذل أقصى جهودها على الساحتين الإقليمية والدولية، من خلال الحوار والتشاور، من أجل حل تلك الصراعات والأزمات بالوسائل السلمية ورغم ما تمر به المنطقة من مآسٍ وقتل وتهجير إلا أنني متفائل بغدٍ أفضل - إن شاء الله-. وبالنسبة لليمن الشقيق فنحن في المملكة العربية السعودية نرى أن أمن اليمن الجار العزيز من أمن المملكة، ولن نقبل بأي تدخل في شؤونه الداخلية، أو ما يؤثر على الشرعية فيه، أو يجعله مقرًا أو ممرًا لأي دول أو جهات تستهدف أمن المملكة والمنطقة والنيل من استقرارها، وموقف المملكة من الأزمة اليمنية هو المطالبة بحل سياسي وفق المرجعيات الثلاث وهي (المبادرة الخليجية وآلياتها التنفيذية، ومخرجات مؤتمر الحوار اليمني الشامل، وقرار مجلس

الأمن رقم ٢٢١٦، ولا نزال نأمل بأن تحقق الجهود الدولية من خلال المبعوث الأممي نتائج إيجابية تنهي معاناة الشعب اليمني، وتحقق الأمن والاستقرار في اليمن الشقيق، وفي هذا السياق نعبر عن تنديدنا واستنكارنا لمحاولة الانقلابيين الحوثيين استهداف الأماكن المقدسة، الذي لاقى شجبًا واستنكارًا عالميين لما في هذه الخطوات الإجرامية من استفزاز لمشاعر المسلمين في أنحاء العالم كافة.

أيها الإخوة والأخوات

سعت المملكة وما زالت تسعى لمد يد العون والمساعدة الإنسانية للدول العربية والإسلامية والصديقة للإسهام في التخفيف من معاناتها، جراء الكوارث الطبيعية والصراعات، فهي لا تتوانى عن تقديم مساعداتها الإنسانية الداعمة للمتضررين شعورًا منها بالواجب وإعمالًا لمبادئ الدين الحنيف، وقد سجلت المملكة أولوية بمبادراتها المستمرة في المساعدات والأعمال الإنسانية على مستوى العالم.

وفي هذا السياق وفي ظل ما يجري في الجمهورية اليمنية الشقيقة بادرت المملكة وما زالت تقدم المساعدات تباعًا للأشقاء في اليمن، فيما قدمت الحملة السعودية لإغاثة النازحين السوريين كثيرًا من المساعدات الإنسانية للأشقاء المتضررين من وطأة الحروب، وما تزال هذه المساعدات تتواصل لهذا الشعب المنكوب.

أيها الإخوة والأخوات أعضاء مجلس الشورى

إننا إذ نقدر ما يقوم به مجلس الشورى من جهود متميزة في إطار مسؤولياته، فإننا نقدر كذلك مساهمته في بيان حقيقة مواقف المملكة تجاه مختلف القضايا من خلال إجراء الحوارات واللقاءات المتعددة مع البرلمانات الدولية المختلفة وفي الاتحادات والمنتديات البرلمانية الإقليمية والدولية، ومجلسكم الموقر عليه مسؤوليات عظيمة تجاه الوطن والمواطنين، وإنني أطالبكم جميعًا أن تضعوا مصالح الوطن والمواطنين نصب أعينكم دائمًا، وإبداء المرئيات حيال ما تتضمنه تقارير الحكومة المعروضة على المجلس، والتشاور مع المسؤولين، وعلى المسؤولين في الجهات كافة، التعاون مع المجلس، وتزويده بما يحتاجه من معلومات، متمنيًا لكم التوفيق في عملكم الذي نعقد عليه آمالًا كبيرة، ونحن على يقين بأنكم - إن شاء الله - أهل لذلك.

في الختام، أسأل المولى القدير لكم العون والتوفيق في دورتكم الجديدة، وأدعو الله العلي العظيم أن يحفظ بلادنا وأمتنا من كل مكروه، وأن يديم علينا نعمه الظاهرة والباطنة ويوفقنا لما يحبه ويرضاه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحليل خطاب الرئيس الأميركي دونالد ترامب في القمة العربية الأميركية في الرياض ٧١٠٢.

(النص الكامل للخطاب في الملاحق)

أولًا: الإطار العام للخطاب

- جاء هذا الخطاب للرئيس الأميركي دونالد ترامب، في لحظة تاريخية، أمنية وسياسية حساسة جدًا لا بل خطيرة. فهو خطابه الأول خارج الولايات المتحدة الأميركية ومن قلب العالم العربي والإسلامي حيث خصّ الرياض بأولى زياراته إلى الخارج ما يشير إلى الأهمية القصوى التي يوليها للسعودية في إستراتيجيته المقبلة. فاختيار الرياض وليس مصر مثلًا كان لافتًا، ما دفع صحف إسرائيل وبينها صحيفة «إسرائيل هيوم» إلى القول إن: «اختيار العاصمة السعودية منبرًا لتوجيه دعوة لاجتثاث الإرهاب قوبل بدهشة». لا ننس أن الغالبية الحاسمة من الإرهابيين التسعة عشر الذين نفّذوا هجمات ١١ سبتمبر/ أيلول كانوا سعوديين. أضف

إن وكالات الاستخبارات الغربية تشكو منذ عقود بأن السعودية تلعب لعبة مزدوجة في دعمها للغرب في حربه ضد الإرهاب، وفي الوقت نفسه تدعم القاعدة، ظاهريًا ضد.. الشيعة.

- جاء الخطاب أيضًا بعد سلسلة من المواقف التي أطلقها ترامب في خلال حملته الانتخابية، والتي زرعت القلق حتى في قلوب السعوديين. فهو تارة كان يصف السعودية بـ«البقرة الحلوب» وتارة ثانية يقول: «سأجعل دول الخليج تدفع الدين العام الأميركي»، ومرة ثالثة يشير إلى الإسلام على أنه الخطر المحدق وسبب الإرهاب. ساعد على إثارة القلق هذا أيضًا تعيين بعض المستشارين لترامب والمعروفين بعدائهم للإسلام والمسلمين، وبينهم ستيف بانون مساعد الرئيس الأميركي وكبير المخططين الإستراتيجيين والمستشارين والذي رافقه في زيارته إلى الرياض.
- جاء الخطاب ثالثًا فيما الجبهات العربية مشتعلة من سوريا والعراق إلى اليمن وليبيا، وفيما الصراع الإيراني السعودي في أوجه.
- جاء الخطاب رابعًا، وسط أسئلة وغموض حيال العلاقات الروسية الأميركية. فبعد كل الكلام الانفتاحي الذي قاله ترامب بشأن موسكو، بدأت حملة التشكيك في علاقته

بروسيا فقام بخطوات عديدة تراجعية في الداخل والخارج، وأقدم على قصف مطار عسكري سوري ثم قوات حليفة للجيش السوري. كان مطار الشعيرات الذي تم قصفه يضم أيضًا طائرات روسية. تم النظر إلى الأمر على أنه رسالة من ترامب إلى الداخل والخارج للتحلل من الاتهامات التي سيقت ضده بشأن علاقة مشتبه فيها مع الروس. أعقب ذلك غيابه عن المفاوضات السورية السورية برعاية روسيا في آستانا وجنيف. والعودة أيضًا إلى الكلام عن مناطق آمنة في سوريا، وعن أن الرئيس بشار الأسد «مجرم».

- جاء الخطاب خامسًا وسط تسريبات ومعلومات كثيرة عن تقارب يجري بين دول خليجية وإسرائيل، وعن أن الإدارة الأميركية الجديدة تريد الدفع أكثر باتجاه علاقات علنية. وترددت معلومات عن رسالة حملها ترامب لاحقًا من السعودية إلى إسرائيل بشأن السلام.
- جاء الخطاب سادسًا بعد الأسئلة الكثيرة الغامضة عن مستقبل الجبهة اليمنية عند الحدود السعودية وكيفية إنهاء تلك الحرب مع حفظ ماء وجه الرياض.
- جاء الخطاب سابعًا، متزامنًا مع أسئلة داخلية وخارجية عن مستقبل المملكة العربية السعودية بسبب صحة الملك سلمان، وما قيل حينذاك عن تفضيل أميركي لولي ولي العهد الأمير محمد بن سلمان على ولي العهد الأمير محمد بن نايف.

- جاء الخطاب ثامنًا وأخيرًا، في ظل الاحتمالات التي كانت تكبر في تلك الفترة حول إمكانية منع ترامب من الحكم بسبب القضايا الكثيرة التي أثيرت ضده، ولكن أيضًا العداوات الكبيرة التي أحدثها مع أجهزة الاستخبارات الداخلية ووسائل الإعلام وغيرها.

ثانيًا: أبرز مفردات خطاب ترامب

المفردة أو القيمة	عدد مرات ترددها
يجب وينبغي	٢٠
أمن وأمنية	١٤
مستقبل ومستقبلية	١٣
إيران	١١
إرهاب	١٠
إسلام وإسلامية	١٠
السلام	٧
داعش	٥
قضاء على: التطرف، التهديد، داعش	٤
مصالح	٤
تعاون	٤
حزب الله	٣
ازدهار	٢
حماس	١
النصرة	صفر

ثالثًا: في مضمون الخطاب وأفعاله

- منذ مستهل كلامه، سعى ترامب إلى الإيحاء بأن ما يفعله اليوم في السعودية «الرائعة» إنما هو تأسيس للشراكة الإستراتيجية الثانية بعد تلك التي أسسها الملك عبد العزيز مع الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت. إن مثل هذا الاستهلال يراد له أن يغري سامعيه السعوديين بأنهم أمام مرحلة تاريخية مفصلية تتطلب بالتالي ثمنًا كبيرًا لها. كأن ترامب بذلك يريد محو كل ما قام به الرؤساء الأميركيون والملوك السعوديون منذ عبد العزيز وروزفلت، ويقدم نفسه على أنه هو والملك الحالي من يؤسسان للشراكة الثانية وليس أي شخص آخر. بمعنى آخر هو ألغى التاريخ واختار لنفسه كتابة تاريخ جديد على مقياسه.
- استخدم ترامب مفردَتَيْ «صداقة وأمل» ليشرح أنه اختار المملكة العربية السعودية كأول محطة في زياراته الخارجية، لأنها «قلب العالم الإسلامي» ولأنها «تخدم أقدم موقعين في الدين الإسلامي». ليس معروفًا عن الرئيس الأميركي الجديد في كل تاريخه تعلّقه بالعالم الإسلامي ولا بالأماكن الإسلامية المقدسة ولا بالدين الإسلامي، ولا عُرف عنه غرامه بالسعودية، بل على العكس تمامًا هو في معظم خطاباته الانتخابية كان يلصق الإرهاب والتطرف ومعظم مشاكل العالم مباشرة أو بصورة غير مباشرة بهذا الدين أو

بممارسيه. هو أراد هنا إسباغ «شرعية» خاصة على السعودية في موقع الريادة الإسلامية، مدركًا سلفًا أن في ذلك ما يجعل سامعيه أكثر استعدادًا لتلبية كل طلباته. فلم تعد القاهرة أو الأزهر هما الأساس وإنما الرياض. هو لذلك تمامًا استخدم مفردة إسلام ومشتقاتها عشر مرات في خطابه هذا ليؤكد حرصه «المستجد» على الإسلام والمسلمين.

- سعى ترامب إلى طمأنة سامعيه في السعودية والخليج والدول الإسلامية الحاضرة القمة، على أنه لم يأتِ ليدك صرح ما هو قائم. قال: «لن نسعى لفرض طريقة حياتنا على الآخرين بل سنمد أيدينا بروح التعاون والثقة». هو بذلك يضع حدًا لكثير من التدخلات المباشرة وغير المباشرة التي كانت في السنوات القليلة الماضية، وتحديدًا منذ الاعتداءات الإرهابية على برجَيْ التجارة في نيويورك، تطالب المملكة بتغيير الكثير من سلوكها الديني والتربوي والاجتماعي الداخلي. ساعده على ذلك أن المملكة التي وضعت خطة تنموية بعنوان «رؤية السعودية ٢٠٣٠» كانت قد ضمّنتها الكثير من الوعود الإصلاحية في ما يتعلق بالمرأة والفن والمسرح والمناهج التربوية والدينية وغيرها.
- كان واضحًا أن مكافحة الإرهـاب أولوية في رحلته، فهو استخدم عبارات تتعلق بالإرهاب وداعش والأمن والاستقرار ٣٣ مرة. لم يكن الأمر مفاجئًا ذلك أنه، منذ

حملته الانتخابية، وضع هذا الهدف في صلب إستراتيجيته.

- كما كان متوقعًا، فإن ترامب سلط هجومه على إيران. استخدم مفردتها ١١ مرة. هو يدرك تمامًا أنه بتوجيه النقد والهجوم والوعيد صوب النظام الإيراني، إنما يُرضي السعودية وعددًا من الدول الخليجية والإسلامية، تمامًا كما يُرضي إسرائيل، ويخاطب العقل الجمعي السني بعد سنوات من الحرب في المنطقة التي تم في خلالها تصوير ما يجري على أنه فتنة سنية شيعية.

من المهم ربما الإشارة هنا إلى أن الرئيس الأميركي كان قد وصل إلى السعودية عقب الانتخابات الإيرانية التي جددت الثقة بالرئيس الإصلاحي حسن روحاني لولاية ثانية ضد مرشح المحافظين المتشددين. لكن هذا لم ينفع في تخفيف اللهجة الأميركية ولا السعودية، وبقي الطرفان يعتبران أن إيران هي أحد أهم مصادر الإرهاب ودعمه في المنطقة.

- في حديثه عن إيران، لم يقصر ترامب اتهاماته عليها بمسألة الإرهاب وإنما ربطها بإسرائيل. هي بالنسبة إليه: «حكومة تتحدث صراحة عن القتل الجماعي وتتعهد بتدمير إسرائيل والموت لأميركا»... أي إنه هنا يعيد عقارب الساعة إلى الوراء وإلى ما قبل الاتفاق النووي الغربي الإيراني، وكأنه بذلك يلغي مفاعيل هذا الاتفاق حتى ولو أنه لم يلغه رسميًا.

- بدت إسرائيل أولوية أيضًا في هذا الخطاب. لم يكن مصادفة أن يزورها مباشرة بعد السعودية. كان يريد على ما يبدو أخذ الإشارة الخضراء من مضيفيه حيال احتمال فتح علاقات مباشرة مع إسرائيل، أو أقلّه أخذ وعد بإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي. وهكذا بدا ترامب في خطابه ممهّدًا لتسوية مقبلة بين إسرائيل والعرب أو دافعًا دفعًا باتجاهها. قال إنه: «لقرون عديدة كان الشرق الأوسط موطنًا للمسيحيين والمسلمين واليهود الذين يعيشون معًا. ويجب أن نمارس التسامح والاحترام المتبادل مرة أخرى، وأن نجعل هذه المنطقة مكانًا يمكن فيه لكل رجل وامرأة، بصرف النظر عن إيمانهما أو عرقهما، أن يتمتعا بحياة كريمة يملأها الأمل. وإذا أمكن لهذه الديانات الثلاث أن تتعاون معًا، فإن السلام في هذا العالم سيكون ممكنًا - بما في ذلك السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين».

هو يريد أن تلعب السعودية دور المحرّك في هذا الاتجاه. فالرياض التي كانت صاحبة المبادرة العربية الشهيرة في قمة بيروت في العام ٢٠٠٢ للتطبيع في مقابل السلام والتي رفضها شارون شر رفض، هي التي يعتمد عليها سيد البيت الأبيض الآن لإنهاء ما بقي من صراع. هو لذلك أشار إلى أمرين لافتين تمامًا، أولهما أن السعودية هي منطلق السلام وأرض السلام، وثانيهما أن حزب الله وحماس حركتان إرهابيتان.... لا بل هما مثل داعش.

بناء على ما تقدم يمكن القول إن ترامب أراد من السعودية أمرين بالغَيْ الأهمية، أولهما الحصول على صفقات مالية واقتصادية هائلة (تم الإعلان في خلال الزيارة عن ٣٨٠ مليار دولار بينها ١١٠ تدفع فورًا والباقي يمتد على ١٠ سنوات)، وثانيهما حماية إسرائيل وإقامة علاقات خليجية مباشرة معها، لذلك فهو استخدم جزرة إيران.

أما الباقي، أي ما يتعلق بالإرهاب ومكافحته فإن ترامب كان أكثر من واضح بأن المسؤولية الأولى في ذلك تقع على الدول الإسلامية نفسها، وفي مقدمها السعودية التي عليها محاربته وتجفيف مصادر تمويله وعدم توفير ملاذات له.

رابعًا: في أفعال الخطاب

فعل الوعد: أكثر ما في هذا الخطاب، هو فعل الوعد. لم يترك الرئيس الأميركي دونالد ترامب وعدًا إلا قطعه منذ بداية خطابه حتى نهايته. هذه بعض الأمثلة: «نبدأ اليوم فصلًا جديدًا يحقق فوائد دائمة لمواطنينا»، «إن وقتنا معًا سيجلب العديد من الفوائد لشعبكم ولشعبي»، «كما وعدت، لن نسعى لفرض طريقة حياتنا على الآخرين، سنمد أيدينا بروح التعاون والثقة»، «رؤيتا تتمحور حول السلام والأمن والازدهار في المنطقة وفي العالم»، «هدفنا هو تحالف الأمم التي تشترك في القضاء على التطرف، وتزويد أطفالنا بمستقبل متفائل يحترم الله»، «إن الولايات المتحدة حريصة على إقامة روابط للصداقة والأمن والثقافة والتجارة»، «سنتأكد من

مساعدة أصدقائنا السعوديين للحصول على صفقة جيدة من شركات الدفاع الأميركية الكبرى. وستساعد هذه الاتفاقية الجيش السعودي على القيام بدور أكبر في العمليات الأمنية»... الخ.

نلاحظ إذًا أن **فعل الوعد** هو الفعل الأبرز في هذا الخطاب، لا بل إن الرئيس الأميركي وصل في حماسته إلى حد القول: «في وقت لاحق سنصنع التاريخ مرة أخرى...»، وذلك بعد أن كان قد استهل خطابه بالوعد بتأسيس ثاني شراكة استراتيجية مع المملكة بعد تلك التي وضع أسسها الملك عبد العزيز والرئيس روزفلت كما أسلفنا.

فعل التحذير: استخدم ترامب هذا الفعل ليحث سامعيه على العمل ضد الإرهاب، فهو حذرهم قائلًا: «إذا لم نتصرف ضد هذا الإرهاب المنظم، فإننا نعرف ما سيحدث. وسيستمر انتشار تدمير الإرهاب للحياة. ستتحول الجماعات السلمية إلى العنف. وسيضيع للأسف مستقبل أجيال عديدة»..

فعل الوعيد: استخدمه في مواقع عديدة من هذا الخطاب. فتارة كان وعيده ضد الإرهاب وتارة أخرى ضد إيران وحزب الله وحماس حين وضعهم جميعًا في سلة واحدة. قال: «لن يشك أعداؤنا أبدًا في عزمنا»، وتارة أخرى ضد موجهي هذا الإرهاب من رجال دين وغيرهم، فقال: «على القادة الدينيين أن يوُضحوا أن البربرية لن تجلب لك أي مجد - تبجيل الشر لن يجلب لك أي كرامة. إذا اخترت مسار الإرهاب، ستكون حياتك فارغة، ستكون حياتك قصيرة، وستكون روحك مدانة»... ماذا يعني بعبارة «ستكون حياتك قصيرة»؟ يعني ببساطة أن المستهدف بالعبارة سيُقتل. ولمن

يريد وضوحًا أكثر فإن ترامب يضيف في عبارة ثانية: «إن حرمان الإرهابيين من أراضيهم وتمويلهم والجاذبية الكاذبة لإيديولوجياتهم الجبانة، ستكون أساسًا لهزيمتهم»، أو عبارة أخرى تقول: «إذا لم نواجه هذا الإرهاب القاتل، فإننا نعرف ما سيحدث في المستقبل - المزيد من المعاناة واليأس».

فعل التوجيه: لعله أيضًا من أكثر أفعال الخطاب حضورًا. فرغم أن ترامب حاول «التواضع» في مستهل خطابه بقوله: «لسنا هنا لنملي على الآخرين كيفية عيش حياتهم أو التصرف أو ممارسة دينهم، وإنما نحن هنا لعرض الشراكة»، إلا أنه ما كاد ينتهي من جملته هذه، حتى راح يحدد طبيعة النقاش ويعدد الفروض الواجب تنفيذها من قبل سامعيه. هذا أولًا جزء من طبيعة الرجل الذي لم يعرف في حياته سوى إدارة الشركات وبالتالي إعطاء الأوامر والتعاطي بغرور، وثانيًا لأنه وضع نفسه في موضع قائد «الخير» في مواجهة «الشر» تمامًا كما فعل سلفه جورج بوش الابن قبيل اجتياح العراق وخلاله.

بناء على ذلك بدأ يحدد مواضيع النقاش، فقال: «هنا في هذه القمة سنناقش العديد من المصالح التي نتشارك فيها». وها هو يستخدم ٢٠ مرة مفردتي «يجب وينبغي» بدلا من نتمنى أو نأمل، خصوصًا أنه أمام حشد عربي وإسلامي يضم ٥٥ ملكًا وأميرًا ورئيسًا ورئيس حكومة. أراد أن يقدّم نفسه على أنه الأب الموجّه أو أستاذ المدرسة أمام طلاب يعتقد أنهم سينفذون كل ما يطلب بمجرد أنه طلب.

لم يكتف ترامب بمفردات من نوع «يجب» و« ينبغي» و«عليكم» بل راح يُصدر الأوامر وكأنه ضابط أمام جنود. ها هو يقول: «المستقبل الأفضل سيكون محتملًا فقط في حال طردت أممكم الإرهابيين والمتطرفين. اطردوهم من أماكن العبادة. أخرجوهم من مجتمعاتكم وأراضيكم المقدسة. اطردوهم من الأرض». هذه أوامر فعلًا غريبة لرئيس دولة يخاطب رؤساء دول وليس مستشارين عنده في البيت الأبيض. هنا يخرج فعل التوجيه من أسلوبه المخفف أو غير المباشر ليصبح أمرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

فعل إثارة التعاطف: استطاع الرئيس الأميركي محو جزء كبير مما قاله في حملته الانتخابية حيال المسلمين والمهاجرين والدول الخليجية من خلال كلام عاطفي في قمة الرياض. هو، كما الكثير من المسؤولين الأميركيين والغربيين، يعرف أن للعاطفة في الخطاب السياسي، ولدغدغة المشاعر والتلاعب بها، دورًا كبيرًا في جذب سامعيه صوب تبنّي إستراتيجيته.

كانت أولى رسائله إلى الملك سلمان نفسه المضيف ورئيس القمة وراعي زيارة الرئيس الأميركي. فكان نصيبه من ضيفه في مستهل الخطاب الشكر والامتنان. قال: «أود أن أشكر الملك سلمان على كلماته الاستثنائية....» ثم أضاف: «أيها الملك سلمان، والدك كان سيفخر جدًا برؤية أنك تواصل إرثه...» ثم أضاف أيضًا: «إن اجتماعاتي مع الملك سلمان، وولي العهد، وولي ولي العهد، قد ملأها الدفء وحسن النيّة والتعاون الهائل». وختم الخطاب

بتوجهه إلى الملك قائلًا: «أيها الملك سلمان، أشكرك على خلق هذه اللحظة العظيمة في التاريخ، ولاستثماركم الضخم في أميركا وصناعاتها ووظائفها. كما أشكركم على الاستثمار في مستقبل هذا الجزء من العالم»، وبين المستهل والخاتمة، قال ترامب كلامًا عاطفيًا عميقًا عن السعودية نفسها فهي «أرض العجائب القديمة والحديثة»، وهي «قلب العالم الإسلامي» وهي: «التي تخدم أقدس موقعين في الدين الإسلامي».

كان كل هذا كفيلًا بجذب تعاطف الحاضرين جميعًا وتأييد كل ما قاله ترامب والتصفيق الطويل له. اللافت أن كلامه عن بلد العجائب في السعودية كان هو نفسه تقريبًا الذي قاله عن إسرائيل حين زارها بعد أقل من ٢٤ ساعة على خطابه في الرياض.

فعل الصمت: إن ما صمت عنه ترامب في خطابه بدا مدروسًا بدقة وكبير الأهمية، وربما يوازي أهمية ما أفصح عنه. فهو لم يحمّل أي دولة مباشرة مسؤولية الإرهاب سوى إيران. صمت عن كل الدول الأخرى رغم أن في بلاده نفسها ثمة مسؤولين كبارًا وأعضاء في الكونغرس كانوا قد اتهموا دولًا أخرى، لا بل إن ثمة قرارات في الكونغرس الأميركي تسمح لعائلات ضحايا الاعتداءات الإرهابية في نيويورك بملاحقة السعودية للحصول على تعويضات. ثم إنه لم يذكر شيئًا عن الدولة الفلسطينية العتيدة، تمامًا كما لم يشر مطلقًا إلى احتمال نقل السفارة الأميركية إلى القدس رغم أنه هو نفسه كان قد وعد صراحة بذلك في خلال حملته الانتخابية. ورغم أن الرئيس

الأميركي اتهم الرئيس السوري بالقيام بـ«جرائم حرب» بدعم من إيران، إلا أنه صمت عن مصير الأسد. لم يستخدم العبارة الأميركية أو السعودية المعهودة بأن على الأسد أن يرحل، أو أن لا حل في سوريا بوجود الأسد. ربما لأن موجبات العلاقة مع روسيا تفترض ذلك، أو لأن ترامب فعلًا كما قال مرارًا يعتبر أن ثمة أولويتين في سوريا، محاربة داعش، وتوفير حلول إنسانية.

خامسًا: مقارنة خطاب ترامب بخطاب الملك سلمان

الملك سلمان: أبرز المفردات		ترامب: أبرز المفردات	
إرهاب ومشتقاته	٢١	إرهاب ومشتقاته	١٠
إيران	٥	إيران	١١
إسرائيل ومشتقاتها	١	إسرائيل ومشتقاتها	١
فلسطين ومشتقاتها	١	فلسطين ومشتقاتها	٢
السلام	٤	السلام	٧
داعش	١	داعش ومشتقاته	٩
القاعدة	١	القاعدة	١
الحوثيون	١	الحوثيون	١
حزب الله	١	حزب الله	٣
حماس	صفر	حماس	١
تعاون	٥	تعاون	٤
النصرة	صفر	النصرة	صفر
يجب وينبغي	صفر	يجب وينبغي	٢٠

أبرز الملاحظات

- إن الملك سلمان لم يستخدم ولا مرة عبارات الأوامر أو التوجيه «يجب» أو«ينبغي» وإنما تعاطى بكثير من الاحترام وأصول الضيافة مع ترامب وخاطبه ٤ مرات بعبارات الفخامة. بينما ترامب استخدم مفردَتْي «يجب وينبغي» كما أسلفنا ٢٠مرة.
- إن الملك والرئيس حصرا الكلام عن إسرائيل بمفردات السلام وبالصراع «الفلسطيني الإسرائيلي» وليس العربي الإسرائيلي، وفيما استخدم ترامب ٧ مرات مفردة «سلام» فإن الملك استخدمها ٤ مرات لكن بينها واحدة فقط تتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي.
- ترامب وضع في خانة الإرهاب كلًا من داعش والقاعدة والحوثيين وحزب الله وحماس، بينما الملك تجنب ذكر حماس، كما أن الطرفين لم يذكرا قطّ جبهة النصرة.
- استخدم ترامب ١٠ مرات مفردة «إرهاب» بينما استخدمها الملك سلمان ٢١ مرة، ما يشير بوضوح إلى أن الملك كان عازمًا فعلًا على تقديم صورة أخرى عن المملكة لضيفه مفادها أن السعودية وحلفاءها عازمون فعلًا على محاربة الإرهاب وتجفيف مصادر تمويله ومحاكمة من يشجع أو يمول، وقد اتفق الطرفان في نهاية الأمر على تأسيس مركزين في الرياض، الأول لاستهداف تمويل الإرهاب والثاني لمكافحة التطرف.

- مسائل التعاون والصداقة والشراكة تشابهت كثيرًا في الخطابين.
- أما البارز في الخطابين فهو إيران رغم الفرق الواضح في استخدام مفردة «إيران» ومشتقاتها، فترامب استخدمها ١١ مرة بينما الملك سلمان اكتفى بـ ٥ مرات. لكن الطرفين ربطاها بالإرهاب وبضرورة مواجهتها تماما كأي طرف إرهابي..

في الحصيلة فإن تجديد التحالف والشراكة الإستراتيجيين بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأميركية، استند وفق تحليل خطاب الملك والرئيس، إلى ثلاثة أمور أساسية، المصالح المشتركة وما تضمنها من صفقات، ومواجهة إيران ومحاربة الإرهاب، وقد بدا واضحًا أن الرئيس الأميركي قرر اعتماد الرياض أساسًا لإستراتيجيته في الشرق الأوسط... لكن السؤال إلى متى؟

خطاب ترامب وفق ترجمته الحرفية على موقع CNN في ٢٢ أيار/ مايو ٧١٠٢.

ألقاه في القمة العربية الإسلامية الأميركية في الرياض

النص الكامل للخطاب

«أود أن أشكر الملك سلمان على كلماته الاستثنائية، والمملكة العربية السعودية الرائعة لاستضافتها قمة اليوم.. لقد سمعت دائمًا عن روعة بلدكم ولطف مواطنيكم، ولكن الكلمات لا تنصف عظمة هذا المكان الرائع والضيافة المذهلة التي أظهرتموها لنا منذ لحظة وصولنا.

استضفتموني في بيت الملك عبد العزيز، مؤسس المملكة الذي وحّد شعبكم العظيم. وقد بدأ الملك عبد العزيز، إلى جانب زعيم آخر محبوب - الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت - الشراكة الدائمة بين دولتينا. أيها الملك سلمان، والدك كان سيفخر جدًا برؤية أنك تواصل إرثه - وكما فتح هو الصفحة الأولى في شراكتنا، نبدأ اليوم فصلًا جديدًا يحقق فوائد دائمة لمواطنينا.

واسمحوا لي الآن أن أعرب عن امتناني العميق والصادق لكل رؤساء الدول الموقرين الذين قطعوا هذه الرحلة إلى هنا اليوم. إنكم تشرفوننا كثيرًا بحضوركم، وأرسل أحر التحيات من بلدي إلى بلادكم. وأنا أعلم أن وقتنا معًا سيجلب العديد من الفوائد لشعبكم ولشعبي.

إنني أقف أمامكم وأنا أمثل الشعب الأميركي، لأقدم رسالة صداقة وأمل. وهذا هو سبب اختياري أن تكون أول زيارة خارجية لي إلى قلب العالم الإسلامي، إلى الأمة التي تخدم أقدس موقعين في دين الإسلام.

في خطاب تنصيبي أمام الشعب الأميركي، تعهدت بتعزيز أقدم الصداقات الأميركية، وبناء شراكات جديدة سعيًا لتحقيق السلام. كما وعدت بأننا لن نسعى لفرض طريقة حياتنا على الآخرين بل سنمد أيدينا بروح التعاون والثقة.

رؤيتنا هي رؤية تتمحور حول السلام والأمن والازدهار في هذه المنطقة، وفي العالم.

وهدفنا هو تحالف الأمم التي تشترك في هدف القضاء على التطرف، وتزويد أطفالنا بمستقبل متفائل يحترم الله.

ولذلك، فإن هذا التجمع التاريخي وغير المسبوق للقادة - الفريد في نوعه في تاريخ الأمم - هو رمز للعالم يعكس عزمنا المشترك واحترامنا المتبادل. وبالنسبة إلى قادة ومواطني كل بلد اجتمعوا هنا اليوم، أريدكم أن تعرفوا أن الولايات المتحدة حريصة على إقامة روابط أوثق للصداقة والأمن والثقافة والتجارة.

إن هذا وقت مثير للأميركيين. وتجتاح دولتنا روح جديدة من التفاؤل: إذ في غضون أشهر قليلة، أنشأنا ما يقرب من مليون وظيفة جديدة، وأضفنا أكثر من ٣ تريليونات دولار من القيمة المضافة الجديدة، وخففنا الأعباء على الصناعة الأميركية، وسجلنا استثمارات قياسية في جيشنا ما سيحمي سلامة شعبنا ويُعزز أمن أصدقائنا وحلفائنا الرائعين - وكثير منهم هنا اليوم.

الآن، هناك المزيد من الأخبار السارة التي يسعدني أن أتشاركها معكم. إن اجتماعاتي مع الملك سلمان، وولي العهد، وولي ولي العهد، قد ملأها الدفء وحسن النية والتعاون الهائل.

لقد وقعنا أمس (السبت) اتفاقيات تاريخية مع المملكة تستثمر ما يقرب من ٤٠٠ مليار دولار في بلدينا وتخلق آلافًا من فرص العمل في أميركا والسعودية.

وتشمل هذه الاتفاقية التاريخية الإعلان عن مبيعات دفاعية للسعودية بقيمة ١١٠ مليارات دولار، وسنتأكد من مساعدة أصدقائنا السعوديين للحصول على صفقة جيدة من شركات الدفاع الأميركية الكبرى. وستساعد هذه الاتفاقية الجيش السعودي على القيام بدور أكبر في العمليات الأمنية.

وقد بدأنا أيضًا مناقشات مع العديد من البلدان الحاضرة اليوم بشأن تعزيز الشراكات الحالية وتشكيل شراكات جديدة لتعزيز الأمن والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط وخارجها.

في وقت لاحق اليوم، سنصنع التاريخ مرة أخرى بافتتاح مركز

عالمي جديد لمكافحة الأيديولوجيا المتطرفة - وسيكون المركز موجودًا هنا، في هذا الجزء المحوري من العالم الإسلامي. ويمثل هذا المركز الجديد الرائد إعلانًا واضحًا بأنه يجب على الدول ذات الأغلبية المسلمة أن تأخذ زمام المبادرة في مكافحة التطرف، وأود أن أعرب عن امتناننا للملك سلمان على هذا الاستعراض القوي للقيادة.

وقد كان من دواعي سروري أن أرحب بالعديد من القادة الحاضرين اليوم في البيت الأبيض، وأتطلع إلى العمل معكم جميعًا.

إن أميركا دولة ذات سيادة، وأولويتنا الأولى هي دائمًا سلامة مواطنينا وأمنهم. نحن لسنا هنا لنُحاضر - لسنا هنا لنملي على الآخرين كيفية عيش حياتهم أو التصرف أو ممارسة دينهم. وإنما نحن هنا لعرض الشراكة - على أساس المصالح والقيم المشتركة - بهدف الوصول إلى مستقبل أفضل لنا جميعًا.

هنا في هذه القمة سنناقش العديد من المصالح التي نتشارك فيها. ولكن قبل كل شيء يجب أن نتّحد في السعي إلى تحقيق هدف واحد يتجاوز كل اعتبار آخر. وهذا الهدف هو مواجهة اختبار التاريخ العظيم - القضاء على التطرف وقهر قوى الإرهاب.

وينبغي أن يستطيع الفتيان والفتيات من الشباب المسلم أن يكبروا بعيدًا من الخوف، وفي مأمن من العنف، ولا تحرمهم الكراهية من البراءة.

وينبغي أن يتاح للمسلمين والمسلمات فرصة بناء حقبة جديدة من الازدهار لأنفسهم ولشعوبهم.

وبمساعدة الله، ستشكل هذه القمة بداية النهاية لأولئك الذين يمارسون الإرهاب وينشرون عقيدته الخبيثة. وفي الوقت نفسه، ندعو أن يُذكر هذا التجمع الخاص يومًا ما باعتباره بداية السلام في الشرق الأوسط - وربما حتى في جميع أنحاء العالم.

ولكن هذا المستقبل لا يمكن تحقيقه إلا من خلال هزيمة الإرهاب والأيديولوجيا التي تدفعه. وقد نجا عدد قليل من الدول من انتشاره العنيف.

عانت أميركا هجمات بربرية متكررة - من الفظائع التي وقعت في ١١ أيلول/ سبتمبر إلى دمار تفجير بوسطن، إلى عمليات القتل الرهيبة في سان برناردينو وأورلاندو.

لقد عانت دول أوروبا أيضًا رعبًا لا يُوصف. كما الحال في دول إفريقيا وحتى أميركا الجنوبية. ووقعت الهند وروسيا والصين وأستراليا ضحايا.

ولكن، بأعداد هائلة، حلّت أكثر الخسائر فتكًا بالشعوب العربية والإسلامية والشرق أوسطية البريئة. لقد تحملوا العبء الأكبر من أعمال القتل وحلت بهم أسوأ أشكال الدمار بهذه الموجة من العنف المتعصب.

وتشير بعض التقديرات إلى أن أكثر من ٩٥ في المائة من ضحايا الإرهاب من المسلمين.

إننا نواجه الآن كارثة إنسانية وأمنية في هذه المنطقة تنتشر عبر كوكبنا. إنها مأساة ذات أبعاد ملحمية. ولا يمكن لأي وصف للمعاناة والفساد أن يبدأ في استيعابه بالكامل.

التأثير الحقيقي لتنظيم داعش والقاعدة وحزب الله وحماس والعديد من التنظيمات الأخرى، لا يجب أن يُقاس فقط بعدد القتلى. يجب أن يُقاس أيضًا بأجيال من الأحلام المتلاشية.

الشرق الأوسط غني بالجمال الطبيعي، والثقافات النابضة بالحياة، وكميات هائلة من الكنوز التاريخية. وينبغي أن يصبح أحد المراكز العالمية الكبرى للتجارة والفرص. ولا ينبغي أن تكون هذه المنطقة مكانًا يفر منه اللاجئون، وإنما يتدفق إليها القادمون الجدد.

المملكة العربية السعودية هي موطن لأقدس المواقع لأحدى أكبر الديانات في العالم. كل عام يأتي الملايين من المسلمين من جميع أنحاء العالم إلى السعودية لأداء الحج. وبالإضافة إلى العجائب العتيقة، هذه الدولة هي أيضًا موطن لعجائب حديثة - بما في ذلك الإنجازات المذهلة في الهندسة المعمارية.

كانت مصر مركزًا مزدهرًا للتعليم والإنجازات منذ آلاف السنين، وسبقت أجزاء أخرى من العالم. عجائب الجيزة والأقصر والإسكندرية هي مصدر فخر لهذا التراث القديم.

في جميع أنحاء العالم، يحلم الناس بزيارة أنقاض البتراء الأثرية في الأردن. وكان العراق مهد الحضارة وهو أرض الجمال الطبيعي. وقد وصلت الإمارات العربية المتحدة إلى ارتفاعات لا تصدق بالزجاج والصلب، وحوّلت الأرض والمياه إلى أعمال فنية مذهلة.

وتقع المنطقة بأكملها في قلب الممرات الرئيسة في قناة السويس والبحر الأحمر ومضيق هرمز.

وإمكانات هذه المنطقة أكبر الآن من أي وقت مضى. إذ إن ٦٥ في المائة من سكانها تحت سن الثلاثين. وكما الحال مع جميع الشباب والشابات، فهم يسعون لبناء مستقبل كبير، وللانضمام إلى مشاريع وطنية، وإيجاد منازل لعائلاتهم.

ولكن هذه الإمكانات غير المستغلة، هذا السبب الهائل للتفاؤل، يكبحه سفك الدماء والإرهاب. ولا يمكن أن يكون هناك تعايش مع هذا العنف. لا يمكن أن يُحتمل، أو يُقبل، أو يُعذر، أو يُتجاهل.

في كل مرة يقتل إرهابي شخصًا بريئًا، ويستخدم اسم الله على نحو كاذب، ينبغي أن يمثل ذلك إهانة لكل شخص مؤمن.

الإرهابيون لا يعبدون الله، إنهم يعبدون الموت.

وإذا لم نتصرف ضد هذا الإرهــاب المنظم، فإننا نعرف ما سيحدث. وسيستمر انتشار تدمير الإرهاب للحياة. ستتحول الجماعات السلمية إلى العنف. وسيضيع للأسف مستقبل أجيال عديدة. إذا لم نقف في إدانة موحّدة لهذا القتل، فلن تحاسبنا شعوبنا فحسب، ولن يحاسبنا التاريخ فحسب، وإنما سيحاسبنا الله.

هذه ليست معركة بين مختلف الديانات أو الطوائف المختلفة أو الحضارات المختلفة. هذه معركة بين المجرمين الهمجيين الذين يسعون إلى طمس حياة الإنسان، والناس الكرماء من جميع الأديان الذين يسعون إلى حمايته.

هذه معركة بين الخير والشر.

عندما نرى مشاهد الدمار في أعقاب الإرهاب، لا نرى أي علامات على أن القتلة كانوا من اليهود أو المسيحيين، من الشيعة أو السنة. عندما ننظر إلى تيارات الدماء البريئة التي أغرقت الأراضي القديمة، لا يمكننا أن نرى دين أو طائفة أو قبيلة الضحايا - كل ما نراه فقط أنهم كانوا أبناء الله الذين يُعد موتهم إهانة لكل ما هو مقدّس.

ولكننا لا نستطيع التغلب على هذا الشر إلا إذا كانت قوى الخير متحدة وقوية - وإذا قام كل فرد في هذه القاعة بنصيبه العادل وتحمل جزءًا من العبء.

لقد انتشر الإرهاب في جميع أنحاء العالم. ولكن الطريق إلى السلام يبدأ هنا، في هذه الأرض العتيقة، في هذه الأرض المقدسة.

الولايات المتحدة مستعدة للوقوف معكم من أجل المصالح المتبادلة والأمن المشترك.

لكن دول الشرق الأوسط لا يمكنها انتظار تدمير القوة الأميركية لهذا العدو (الإرهاب) بالنيابة عنهم. على أمم الشرق الأوسط أن تقرر نوع المستقبل الذي تريده لنفسها، وبصراحة، لعائلاتها وأطفالها.

إنه خيار بين مستقبلين - وهو خيار لا يمكن لأميركا أن تأخذه بالنيابة عنكم.

المستقبل الأفضل سيكون محتملًا فقط في حال طردت أممكم الإرهابيين والمتطرفين. اطردوهم من أماكن العبادة. أخرجوهم من مجتمعاتكم وأراضيكم المقدسة. اطردوهم من الأرض.

ومن جانبنا، فإن أميركا ملتزمة بتعديل إستراتيجياتها لمواكبة تطور التهديدات والحقائق الجديدة.

سنتخلى عن الإستراتيجيات التي لم تنجح، وسنطبق نهجًا جديدًا مستنيرًا بالخبرة والفطنة. نحن نعتمد الواقعية الأخلاقية، المتجذرة في القيم والمصالح المشتركة.

إن أصدقاءنا لن يشككوا أبدًا في دعمنا، ولن يشك أعداؤنا أبدًا في عزمنا. إن شراكاتنا ستعزز الأمن من خلال الاستقرار، وليس من خلال الاضطراب الجذري. وسنتخذ قراراتنا على أساس النتائج في العالم الحقيقي - وليس بناءً على أيديولوجيا غير مرنة. سنسترشد بدروس الخبرة، ولن ننحصر ضمن حدود التفكير المتزمت. وسنسعى، حيثما أمكن، إلى إجراء إصلاحات تدريجية - وليس التدخل المفاجئ.

ويجب علينا أن نسعى للشراكة، وليس إلى الكمال، وأن نسعى للتحالف مع من يشاركنا في أهدافنا.

وفوق كل شيء، تسعى أميركا للسلام وليس للحرب.

ويجب أن تكون الدول الإسلامية مستعدة لتحمل العبء، إذا أردنا أن نهزم الإرهاب ونرسل أيديولوجياته الشريرة إلى غياهب النسيان.

المهمة الأولى في هذا الجهد المشترك هي أن تحرم أممكم جنود الشر من الأراضي، ويجب على كل دولة في المنطقة أن تضمن ألا يجد الإرهابيون ملاذًا آمنًا فيها.

الكثير يقدمون بالفعل مساهمات كبيرة في الأمن الإقليمي: الطيارون الأردنيون شركاء حاسمون ضد «داعش» في سوريا والعراق. وقد اتخذت السعودية والتحالف الإقليمي تحركات قوية ضد المسلحين الحوثيين في اليمن. الجيش اللبناني يلاحق عناصر «داعش» الذين يحاولون التسلل إلى أراضي لبنان. وتدعم القوات الإماراتية شركاءنا الأفغان. في الموصل، تدعم القوات الأميركية الأكراد والسنة والشيعة الذين يقاتلون معًا من أجل وطنهم. وتعتبر قطر، التي تستضيف القيادة المركزية الأميركية، شريكًا إستراتيجيًا حاسمًا. وتواصل شراكتنا الطويلة الأمد مع الكويت والبحرين تعزيز الأمن في المنطقة. والجنود الأفغان الشجعان يقدمون تضحيات هائلة في الكفاح ضد حركة طالبان، وغيرها، ضمن جهود الكفاح من أجل بلدهم.

وبينما نمنع المنظمات الإرهابية من السيطرة على الأراضي والسكان، يجب علينا أيضًا تجريدهم من إمكانية حصولهم على الأموال. يجب علينا قطع القنوات المالية التي تسمح لداعش ببيع النفط، والسماح للمتطرفين بالدفع لمقاتليهم، ومساعدة الإرهابيين على تهريب إمداداتهم.

إنني فخور بأن أعلن أن الأمم هنا اليوم ستوقع اتفاقًا لمنع تمويل الإرهاب، بمسمى «مركز استهداف تمويل الإرهاب»، الذي تشترك في رئاسته الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية وينضم إليه جميع أعضاء مجلس التعاون الخليجي. إنها خطوة تاريخية أخرى في يوم سيُذكر على مدى طويل.

وأثني أيضًا على مجلس التعاون الخليجي لحجبه الممولين عن استخدام بلدانهم كقاعدة مالية للإرهاب، وتصنيفه «حزب الله» منظمة إرهابية العام الماضي. كما انضمت المملكة العربية السعودية إلينا هذا الأسبوع في فرض عقوبات على أحد كبار قادة «حزب الله».

وبطبيعة الحال، لا يزال هناك الكثير مما يجب القيام به.

وهذا يعني مواجهة أزمة التطرف الإسلامي والجماعات الإسلامية الإرهابية، كما يعني الوقوف معًا ضد قتل الأبرياء المسلمين، وقمع النساء، واضطهاد اليهود، وذبح المسيحيين.

يجب على القادة الدينيين أن يوُضحوا أن البربرية لن تجلب لك أي مجد - تبجيل الشر لن يجلب لك أي كرامة. إذا اخترت مسار الإرهاب، ستكون حياتك فارغة، ستكون حياتك قصيرة، وستكون روحك مدانة.

ويجب على القادة السياسيين أن يتحدثوا لتأكيد الفكرة نفسها: الأبطال لا يقتلون الأبرياء؛ بل يحمونهم. وقد اتخذت دول كثيرة هنا اليوم خطوات هامة لنشر هذه الرسالة. إن رؤية السعودية ٢٠٣٠ يُعدّ تصريحًا هامًا ومشجعًا حول التسامح والاحترام وتمكين المرأة والتنمية الاقتصادية.

كما شاركت الإمارات العربية المتحدة في المعركة من أجل القلوب والنفوس، وأطلقت مع الولايات المتحدة مركزًا لمواجهة انتشار الكراهية على الإنترنت. كما تعمل البحرين على تقويض التجنيد والتطرف.

كما أشيد بالأردن وتركيا ولبنان لدورهم في استضافة اللاجئين. إن تدفق المهاجرين واللاجئين الذين يغادرون الشرق الأوسط يستنزف رأس المال البشري اللازم لبناء مجتمعات واقتصادات مستقرة. وبدلًا من حرمان هذه المنطقة من إمكانات بشرية كبيرة، يمكن لبلدان الشرق الأوسط أن تعطي الشباب الأمل في مستقبل أكثر إشراقًا في دولهم ومناطقهم.

وهذا يعني تعزيز تطلعات وأحلام جميع المواطنين الذين يسعون إلى حياة أفضل - بمن فيهم النساء والأطفال وأتباع جميع الديانات. وقد قال العديد من العلماء العرب والإسلاميين ببلاغة إن حماية المساواة تقوّي المجتمعات العربية والإسلامية.

لقرون عديدة كان الشرق الأوسط موطنًا للمسيحيين والمسلمين واليهود الذين يعيشون معًا. ويجب أن نمارس التسامح والاحترام المتبادل مرة أخرى، وأن نجعل هذه المنطقة مكانًا يمكن فيه لكل رجل وامرأة، بصرف النظر عن إيمانهما أو عرقهما، أن يتمتعا بحياة كريمة يملأها الأمل.

وبهذه الروح، في ختام زيارتي للرياض، سأسافر إلى القدس وبيت لحم، ثم إلى الفاتيكان، حيث سأزور العديد من أقدس الأماكن في الأديان الإبراهيمية الثلاثة. وإذا أمكن لهذه الديانات الثلاث أن تتعاون معًا، فإن السلام في هذا العالم سيكون ممكنًا - بما في ذلك السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وسأجتمع مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، والرئيس الفلسطيني، محمود عباس.

إن حرمان الإرهابيين من أراضيهم وتمويلهم والجاذبية الكاذبة لإيديولوجياتهم الجبانة، ستكون أساسًا لهزيمتهم.

ولكن لن يكون هناك نقاش حول القضاء على هذا التهديد بالكامل، دون الإشارة إلى الحكومة التي تعطي الإرهابيين الملاذ الآمن، والدعم المالي، والمكانة الاجتماعية اللازمة للتجنيد. إنه نظام مسؤول عن عدم الاستقرار في المنطقة. أنا أتكلم عن إيران.

من لبنان إلى العراق إلى اليمن، تقوم إيران بتمويل وتسليح وتدريب الإرهابيين والميليشيات والجماعات المتطرفة الأخرى التي تنشر الدمار والفوضى في المنطقة. على مدى عقود، غذّت إيران حرائق الصراع الطائفي والإرهاب.

إنها حكومة تتحدث صراحة عن القتل الجماعي، وتتعهد بتدمير إسرائيل والموت لأميركا، والخراب لكثير من القادة والأمم في هذه القاعة.

ومن بين أكثر التدخلات زعزعة للاستقرار، تدخل إيران في سوريا. إذ ارتكب (الرئيس السوري، بشار) الأسد، بدعم من إيران، جرائم لا توصف، واتخذت الولايات المتحدة إجراءات حازمة ردًا على استخدام نظام الأسد للأسلحة الكيماوية المحظورة، حيث أطلقت ٥٩ صاروخًا من طراز توماهوك على القاعدة الجوية السورية (الشعيرات) حيث نشأ هذا الهجوم القاتل.

يجب على الدول المسؤولة أن تعمل معًا لإنهاء الأزمة الإنسانية في سوريا، والقضاء على داعش، واستعادة الاستقرار في المنطقة.

وأكبر ضحايا النظام الإيراني هو شعبه. لدى إيران تاريخ وثقافة غنية، ولكن الشعب الإيراني عانى المشقة واليأس في ظل سعي قادته بتهور للصراع والإرهاب.

وحتى يرغب النظام الإيراني في أن يكون شريكًا في السلام، يجب على جميع الدول أن تعمل معًا لعزل إيران، ومنعها من تمويل الإرهاب، وأن تدعو أن يأتي اليوم الذي يتمتع فيه الشعب الإيراني بالحكومة العادلة الصالحة التي يستحقها.

إن القرارات التي نتخذها ستؤثر في حياة أعداد لا حصر لها.

هذه المنطقة الخصبة لديها كل المكونات لتحقيق نجاح استثنائي - تاريخ غني وثقافة، وشعب شاب ينبض بالحياة، وروح المبادرة. ولكن لا يمكن لهذا المستقبل أن يتحقّق إلا إذا تم تحرير مواطني الشرق الأوسط من التطرف والإرهاب والعنف.

ونحن في هذه القاعة قادة شعوبنا. إنهم يتطلعون إلينا للحصول على إجابات ولاتخاذ إجراءات. وعندما ننظر إلى وجوههم، نرى وراء أعينهم روحًا تتوق إلى العدالة.

واليوم، تنظر مليارات الوجوه إلينا الآن، في انتظار أن نتخذ إجراءً بشأن أعظم سؤال في عصرنا.

هل سنكون غير مبالين بوجود الشر؟ هل سنحمي مواطنينا من أيديولوجيته العنيفة؟ هل سنترك سمّه ينتشر عبر مجتمعاتنا؟ هل سنتركه يدمر معظم الأماكن المقدسة في الأرض؟

إذا لم نواجه هذا الإرهاب القاتل، فإننا نعرف ما سيحدث في المستقبل - المزيد من المعاناة واليأس.

ولكن إذا تصرفنا - إذا تركنا هذه الغرفة الرائعة متحدين وعازمين على القيام بما يلزم لتدمير الإرهاب الذي يهدد العالم - فلا يوجد حد للمستقبل العظيم الذي سيحظى به مواطنوننا.

مسقط رأس الحضارة ينتظر بداية نهضة جديدة. تخيلوا فقط ما يمكن أن يحققه الغد.

عجائب العلوم والفنون والطب والتجارة لإلهام البشرية. المدن الكبرى التي بنيت على أنقاض المدن المحطمة. وظائف وصناعات جديدة من شأنها أن ترفع من معيشة الملايين من الناس. الآباء والأمهات الذين لم يعودوا بحاجة إلى القلق على أطفالهم، والأسر التي لم تعد في حالة حداد على أحبائها، والمؤمنون الذين يستطيعون أخيرًا ممارسة دياناتهم دون خوف.

هذه هي بركات الرخاء والسلام. هذه هي الرغبات الجامحة في قلب كل إنسان. وهذه هي المطالب العادلة لشعوبنا الحبيبة.

أطلب منكم أن تنضموا إلي، الانضمام معًا، للعمل معًا، والقتال معًا - لأنه إذا اتحدنا، فلن نفشل.

شكرًا. حماكم الله وبارك في بلادكم. وبارك الله الولايات المتحدة الأميركية.

نص خطاب العاهل السعودي الملك سلمان بن عبد العزيز في القمة العربية الأميركية في الرياض:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

فخامة الرئيس دونالد ترمب رئيس الولايات المتحدة الأميركية الصديقة؛ أصحاب الجلالة والفخامة والسمو:

أحييكم في بلدكم الثاني المملكة العربية السعودية، وليسمح لي قادة العالمين العربي والإسلامي، أن أرحب بفخامة الرئيس الصديق / دونالد ترمب، رئيس الولايات المتحدة الأميركية، في قمة تاريخية غير مسبوقة، تنعقد في وقت شديد الأهمية، وبالغ الخطورة.

إن لقاءنا هذا بفخامة رئيس الولايات المتحدة الأميركية التي تربطها بالكثير من دولنا أواصر الصداقة والعلاقة الوطيدة يجسد اهتمام فخامته وحرصه على توثيق التعاون والاستمرار في تنسيق المواقف بمختلف المجالات، وله دلالة كبيرة على أن دولنا العربية والإسلامية، المجتمعة اليوم وقد بلغت خمسًا وخمسين دولة،ويتجاوز عدد سكانها المليار ونصف المليار نسمة، تعد

شريكًا مهمًا في محاربة قوى التطرف والإرهاب، وفي تحقيق الأمن والاستقرار والسلم العالمي، ويحمل فخامته في جعبته الكثير من الآمال والطموحات للتعاون مع العالم العربي والإسلامي.

وإننا إذ نتقدم بالشكر والتقدير لفخامته لاستجابته للحضور والمشاركة في هذه القمة لنؤكد سعادتنا وامتناننا باختياره بلادكم المملكة العربية السعودية وقمتكم هذه كأول رحلة ومشاركة خارجية لفخامته مما يعكس ما يوليه فخامته وبلاده من اهتمام في قمتكم المباركة، كما نؤكد في الوقت ذاته أننا نبادله المشاعر السامية نفسها في التعاون البنّاء لنبذ التطرف والعمل على مكافحة الإرهاب بجميع صوره وأشكاله وتجفيف منابعه ووقف كل سبل تمويله أو نشره، والوقوف بحزم في التصدي لهذه الآفة الخطيرة على الإنسانية جمعاء.

ونجتمع اليوم في هذه القمة لنعبر عن الجدية في اتخاذ الخطوات الحثيثة لتعزيز شراكة حقيقية مع الولايات المتحدة الأميركية الصديقة بما يخدم مصالحنا المشتركة ويساهم في تحقيق الأمن والسلام والتنمية للبشرية كلها وهو ما يؤكده ديننا الإسلامي الحنيف.

أيها الأخوة والأصدقاء الأعزاء

إن مسؤوليتنا أمام الله ثم أمام شعوبنا والعالم أجمع أن نقف متحدين لمحاربة قوى الشر والتطرف أيًا كان مصدرها، امتثالًا لأوامر ديننا الإسلامي الحنيف. لقد كان الإسلام وسيبقى دين

الرحمة والسماحة والتعايش تؤكد ذلك شواهد ناصعة، ولقد قدم الإسلام في عصوره الزاهية أروع الأمثلة في التعايش، والوئام بين أتباع الأديان السماوية والثقافات، لكننا اليوم نرى بعض المنتسبين إلى الإسلام الذين يسعون لتقديم صورة مشوهة لديننا، تريد أن تربط هذا الدين العظيم بالعنف.

نقول لإخواننا وأخواتنا وأبنائنا وبناتنا من المسلمين في كل مكان، بأن أحد أهم مقاصد الشريعة الإسلامية هو حفظ النفس، وأن لا شرف في ارتكاب جرائم القتل، فالإسلام دين السلام والتسامح، وقد حث على إعمار الأرض وحرم التهلكة والإفساد فيها، واعتبر قتل النفس البريئة قتلًا للناس جميعًا، وأن طريقنا لتحقيق مقاصد ديننا والفوز بالجنة هو في نشر قيم الإسلام السمحة التي تقوم على السلام والوسطية والاعتدال وعدم إحلال الدمار والإفساد في الأرض.

وإننا جميعًا شعوبًا ودولًا، نرفض بكل لغة، وندين بكل شكل الإضرار بعلاقات الدول الإسلامية مع الدول الصديقة، وفرز الشعوب والدول على أساس ديني أو طائفي، وما هذه الأفعال البغيضة إلا نتيجة محاولات استغلال الإسلام كغطاء لأغراض سياسية تؤجج الكراهية والتطرف والإرهاب والصراعات الدينية والمذهبية، كما يفعل النظام الإيراني والجماعات والتنظيمات التابعة له مثل حزب الله والحوثيين، وتنظيمَيْ داعش والقاعدة، وغيرها.

فالنظام الإيراني يشكل رأس حربة الإرهاب العالمي منذ ثورة

الخميني وحتى اليوم، وإننا في هذه الدولة منذ ٣٠٠ عام لم نعرف إرهابًا أو تطرفًا حتى أطلّت ثورة الخميني برأسها عام ١٩٧٩.

لقد رفضت إيران مبادرات حسن الجوار التي قدمتها دولنا بحسن نية واستبدلت ذلك بالأطماع التوسعية والممارسات الإجرامية والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى ضاربة بالقانون الدولي عرض الحائط ومخالفة مبادئ حسن الجوار والعيش المشترك والاحترام المتبادل.

وقد ظن النظام في إيران أن صمتنا ضعف، وحكمتنا تراجع حتى فاض بنا الكيل من ممارساته العدوانية وتدخلاته كما شاهدنا في اليمن وغيرها من دول المنطقة.

نقول ذلك ونحن نؤكد في الوقت ذاته على ما يحظى به الشعب الإيراني لدينا من التقدير والاحترام، فنحن لا نأخذ شعبًا بجريرة نظامه.

لقد عانت المملكة العربية السعودية طويلًا، وكانت هدفًا للإرهاب، لأنها مركز الإسلام وقبلة المسلمين، ويسعى الفكر الإرهابي لتحقيق شرعيته الزائفة وانتشاره من خلال استهداف قبلة المسلمين ومركز ثقلهم.

ولقد نجحنا ولله الحمد في التصدي للأعمال الإرهابية وأحبطنا محاولاتٍ إرهابية كثيرة، وساعدنا الأشقاء والأصدقاء في دول العالم على تجنّب مخططات تستهدف نسف أمنهم وتدمير استقرارهم.

أيها الإخوة والأصدقاء الأعزاء

امتدادًا للجهود المبذولة في محاربة الإرهاب أبرمت دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية اليوم اتفاقًا تاريخيًا مع الولايات المتحدة الأميركية على اتخاذ إجراءاتٍ صارمة لاستهداف تمويل الإرهاب وذلك بتأسيس مركز في مدينة الرياض لاستهداف تمويل الإرهاب، ونتطلع إلى انضمام المزيد من الدول إلى المركز مستقبلًا، وسيكون هذا الاتفاق أنموذجًا يحتذى به، وهو مبني على جهودنا القائمة في هذا الصدد، وإنني أؤكد باسم إخواني قادة الدول الإسلامية المجتمعين بأننا لن نتهاون أبدًا في محاكمة كل من يموّل أو يدعم الإرهاب، بأي صورة أو شكل، وستطبق أحكام العدالة كاملة عليه.

فخامة الرئيس الصديق؛

أيها الأخوة والأصدقاء الأعزاء

استمرارًا في حربنا ضد الإرهاب نؤكد عزمنا على القضاء على تنظيم داعش، وغيره من التنظيمات الإرهابية، أيًا كان دينها أو مذهبها أو فكرها، وهو ما دعانا جميعًا إلى تشكيل (التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب) في خطوة رائدة لمحاصرة الإرهاب.

إن الإرهاب نتيجة للتطرف، وفي ظل الحاجة لمواجهته نعلن اليوم إطلاق (المركز العالمي لمكافحة التطرف)، الذي يهدف لنشر مبادئ الوسطية والاعتدال ومواجهة التغرير بالصغار وتحصين الأسر والمجتمعات ومقارعة حجج الإرهابيين الواهية بالتعاون مع الدول المحبة للسلام والمنظمات الدولية.

أيها الإخوة والأصدقاء الأعزاء

إن القضاء على الإرهاب لا يكون بالمواجهة المباشرة فقط بل إن التنمية المستدامة هي جرعة التحصين الناجح بإذنه تعالى وهو ما تجسده رؤية المملكة العربية السعودية في جوانبها المختلفة من الحرص على استثمار الشباب وتمكين المرأة وتنويع الاقتصاد وتطوير التعليم، وبدون شك فإن المملكة العربية السعودية تدعم وتشجع كل توجه لدى الدول الشقيقة والصديقة يهدف إلى تفعيل التنمية المستدامة في بلدانهم.

كما أننا نشدد على أن تحقيق السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين مطلب عادل وضروري ويتطلب تضحياتٍ مشتركة وعزيمة صادقة من أجل مصلحة الجميع، كما أنه يتعين على المجتمع الدولي تكثيف الجهود لحل الأزمة السورية بما يحقق تطلعات الشعب السوري ويحفظ وحدة سوريا وسيادتها.

أصحاب الجلالة والفخامة والسمو

إن آمال شعوبنا وطموحاتهم كبيرة ومسؤولياتنا لتحقيق هذه الطموحات جسيمة، لكن همتكم وحرصكم واهتمامكم سيجعلنا نواجه هذه المهام بعزم وحزم، ونحن عازمون - بإذن الله - على التمسك بالتنمية كهدفٍ إستراتيجي لمواجهة التطرف والإرهاب وتوفير الحياة الرغيدة.

وفقنا الله جميعًا وسددنا بما فيه الخير لشعوبنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خاتمة

إن خلاصة ما تقدم من بحث عن البراغماتية وعلاقتها بالفلسفات التي سبقتها وبمنهج تحليل الخطاب، تؤكد أن هذا المنهج يقدم لنا، وخصوصًا في جانبه المتعلق بـ«أفعال الخطاب»، نموذجًا مهمًا ومفيدًا جدًا لرصد مقاصد الخطاب السِّياسي. فمن خلال هذا المنهج البراغماتي الذي كان الفضل في إطلاقه لفلاسفة لسانيين أميركيين وبريطانيين ثم فرنسيين وغيرهم (جون أوستن، جون سيرل، هبرت غرايس، كاترين كربرا أوريكيوني، فرانسيس جاك... الخ) نستطيع رصد ثوابت وتحولات أي خطاب سياسي أو إعلامي أو غيرهما كما يشكل سبيلًا مهمًا لمعرفة المسكوت عنه في الخطاب، ولا يستند فقط إلى الملفوظات أو المنطوق في كلام السياسي أو الإعلامي.

إنّ المنهج التحليلي البراغماتي المعتمد على أفعال الكلام أو الخطاب، يوضح ما يبقى غامضًا في التحليلين الكمي والنوعي حين يكون «المسكوت عنه» في الخطاب بقوة المصرَّح به.

- إنَّ تطبيق المنهج البراغماتي وأفعال الكلام لتحليل الخطاب السّياسي في أوقات السلم أو زمن الحرب، كان

مفقودًا في الجامعات اللبنانية والأجنبية في لبنان، لذلك سعينا إلى الغوص في شرحه والوقوف على أبرز مدارسه وربط ذلك بمدارس تحليل الخطاب السّياسي وتفكيكه، ولنا أمل كبير بأن يكون هذا النموذج من التحليل الذي طبّقناه على خطاب الرئيس السّوري صالحًا للتطبيق على أيّ خطاب سياسي في أيّ وقت، وأن يكون مشجّعًا للزملاء الباحثين في تطويره ليصبح جزءًا من البرنامج الأكاديمي في لبنان والدول العربية على غرار ما هو قائم في الغرب.

المصادر والمراجع

المصادر باللغة العربية:

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

إنجيل متّى.

إنجيل مرقص.

II. المراجع باللغة العربية:

ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار القلم، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

العربي، محمد، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٢.

بودرع عبد الرحمن، أفعال الكلام، عرض وترجمة منصور العجالي، العرب أونلاين، ٢٠٠٣.

الحاج عبد الرحمن، الخطاب السّياسي في القرآن، السلطة والجماعة ومنظومة القيم، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٢.

حجاب محمد منير، الدعاية السّياسية وتطبيقاتها قديمًا وحديثًا، دار الفجر للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠١٢.

الحميري عبد الواسع، ما الخطاب وكيف نحلّله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩.

الزواوي بعوره، الخطاب: بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو، كراسة ومعجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠١٥.
السّكاكي (أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
سهيل الحبيب، المفاهيم الإيديولوجية في مجرى حراك الثورات العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر ٢٠١٤.
السّيد نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، ١٩٩٧.
سيف أديب في: Pragmatique et contexte, ouvrage collectif, wafa berry hajj et Ghassan Mourad, Distribution D.P.U.L. Beyrouth, 2009.
الشهري عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية. الكتاب الجديد، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، ٢٠٠٤.
صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠١٤.
صفدي وفاء، غياب الرؤية الحضارية في الحراك الثوري العربي، منتدى المعارف، بيروت، ٢٠١٤.
عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت. الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.
عبيد حاتم، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر، عمان ٢٠١٣.
العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، لبنان، ١٩٨٦.

عكاشة محمود، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، مكتبة الآداب، القاهرة ، ٢٠١٣.

العمري محمد، في بلاغة الخطاب الاقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٠.

غفيري خديجة، سلطة اللّغة بين فعلي التأليف والتلقي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٢.

كاظم مرتضى جبار، اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، منشورات الاختلاف ، الجزائر،٢٠١٥.

لهويمل باديس، نظرية أفعال الكلام في مفتاح العلوم للسّكاكي. قانون الخبر نموذجًا. جامعة بسكرة. الجزائر.

مشبال محمد، بلاغة الخطاب الديني، منشورات ضفاف- دار الأمان، الرباط، ٢٠١٤.

النورج حمدي، تحليل الخطاب السّياسي، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠١٤.

هماني عبد النبي، جمالية تحليل الخطاب، إفريقيا الشّرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٣.

مراجع مترجمة

أوستين جون لانكشو، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٦.

بافو ماري آن، وسرفاتي جورج إليا، النظريات اللسانية الكبرى، ترجمة محمد الراضي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٢.

طاليس أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، حققه وعلق عليه د.عبد الرحمن بدوي، دار ومكتبة بيبلون، باريس، ٢٠١١.

عبد الرحمن بودرع، أفعال الكلام، عرض وترجمة منصور العجالي، العرب اونلاين، ٢٠٠٣.

فوكو ميشال، إرادة المعرفة، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة وتقديم مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠.

فولفانغ إيزر، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب، ترجمة حميد الحمداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، الدار البيضاء المغرب، لا. ت.

كيسيديس ثيوكاريس، سقراط، مسألة الجدل، ترجمة طلال السهيل، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦.

ميرشماير جون جي، لماذا يكذب القادة والزعماء، حقيقة الكذب في السّياسة الدولية، ترجمة د. عبد الفتاح عمورة، دار الفرقد، دمشق ٢٠١٦.

فاركلوف نورمان، تحليل الخطاب، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.

ودورد بوب، خطة الهجوم، تعريب فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، رياض، السعودية.

باللغة الأجنبية

Alexandre Dorna, *Les effets langagiers du discours politique,* CEP-SP. Université de Caen.

Almond Gabriel and G. Binghal Powell, *comparative politics: a developmental approach,* Little, Brown. U.S.A. 1966.

Amossy Ruth, *La présentation de soi,* PUF, Paris, 2010.

Ansart pierre, *Idéologies, conflits et pouvoir,* Paris, presses universitaires de France, 1977.

Armengaud Françoise, La pragmatique, Puf. 5ème éditions, Paris, 2007.

Armengaud Françoise, *La pragmatique. Que sais-je,* PUF. 5ème édition, Paris, 2007, emplacement Kindle 992.

Ascomber, Duccrot, 1976. (Le nom du livre?).

Austin, John Langshaw, *Quand dire c'est faire,* Paris, 1962. trad. fr. rééd., Seuil, coll. "points essais", Paris 1991.

Austin, J. L., *Quand dire c'est faire,* Seuil, Paris, 1994.

Beau Nicolas, Dominique Lagarde, *L'exception tunisienne*, Paris, seuil, 2014

Benveniste Emile, *Problèmes de linguistique, Générale,* Gallimard, Paris, 1974.

Boussa Felix, *Devenir Mentaliste*, L'Institut Pandore, 2014. Paris.

Charaudeau Patrick, Maingueneau Dominique, *Dictionnaire d'analyse du discours,* le Seuil, Paris, 2002.

Charaudeau Patrick, *L'art de mentir en politique,* Focus, N° 256, Paris, Février, 2014.

Charaudeau Patrick, *La Conquête du pouvoir,* L'Harmattan, Paris, 2013.

Chomsky Noam et Herman Edward, *La Fabrication du consentement,* Agone, Marseille, 2008.

Chomsky Noam et Herman Edward, *La fabrication du consentement. De la propagande médiatique en démocratie,* Agone, Emplacement Kindle 221.

Chomsky Noam, *Dominer le monde ou sauver la planète,* Traduit par Paul Chemla, Fayard, Paris, 2005. Emplacement Kindle 110.

Coby Franck, *Analyse du discours,* 2009.(Qel ed?)

Danblon Emmanuelle, *La fonction persuasive,* Armand Colin, Paris, 2005.

Danblon Emmanuelle. Rhétorique et vérité. Dans *Argumentation, manipulation, persuation,* sous la direction de Christian Boix, L'Harmattan, Paris 2007.

Della Luna Marco et Cioni Paolo, *Neuro-Esclaves,* Marco Edition, Rome, 2011. traduit en français par Françoise Vital, Nicoletta Forcheri, Marylène Di Stefano.

Delporte Chrisitan, *Une histoire de la langue de bois,* Flammarion, Paris, 2009.

Dorna Alexandre, Quellien Jean, Simonnet Stéphane, *La propagande, paroles et manipulation,* L'Harmattan, Paris, 2008.

Duez Danielle, *La pause dans la parole de l'homme politique,* Editions CNRS, Paris, 1991.

Dumas Roland, *Coups et blessures,* Cherche midi, Paris ,2011.

Ellul Jacques, *Propagandes,* Economica, Paris, 1990.

Foucault Michel, *La volonté de savoir,* Gallimard, Paris,1976.

Foucault Michel, *l'archéologie du savoir,* Gallimard, Paris, 1969.

Garric Nathalie et Calas Frédéric, *Introduction à la pragmatique,* Hachette, Paris, 2007. Emplacement Kindle.

Grawitz Madeleine.*Méthodes des sciences sociales,* Dalloz, paris,1996.

Grinschpoun Marie-France, *L'analyse de discours,* Enrick Editions, Paris, 2013.

Grize Jean-Blaise, *logique et langue,* Paris,Ophrys, 1997.

Huyghe François-Bernard, *La désinformation, les armes du faux,* Armand Colin, Paris, 2016.

Huyghe François-Bernard, *Les armes du faux,* Armand Colin, Paris, 2016. Emplacement sur Kindle 1401.

Johannes Angermuller, «L'analyse du discours en Europe», in Bonnafous S. & Temmar M. (éds), *L'analyse du discours en sciences humaines,* Paris, Ophrys, 2007.

Joos Martin, *The five Clocks*, Bloomington Ind: Indiana University, Indiana, USA, 1962.

Kerbrat-Orecchioni Catherine, *L'implicite,* Armand Colin, 2ème edition, Paris, 1998.

Kerbrat-Orecchioni Catherine, *L'analyse du discours en interaction: quelques principes méthodologiques,*Université de Lyon, 2007.

Kerbrat-Orecchioni, Catherine, *Les actes de langages dans le discours,* Armand Colin, Paris, 2014.

Lakehal Mokhtar, *Dictionnaire de science politique,* 4ème édition, L'Harmattan, Paris, 2009.

Leech Geoffrey, *Principles of pragmatics,* longman, New York, 1983.

Le Bart Christian, *Le discours politique,* Puf, Paris, 1998.

Maingueneau Dominique, *Les termes clés de l'analyse du discours,* Seuil, Paris, 2009.

Marcel Gabriel, *Le Journal métaphysique,* Gallimard, Paris, 1927.

Martin Denis-Constant, *Comment dit-on «nous» en politique,* Presse de la F.N.S.P., Paris, 1994.

Mills Sara, *Discourse*, Routledge, London, Edition 2004.

Mounin Georges,*Dictionnaire de la linguistique,* Puf, Paris, 1974.

Mucchielli Roger, *L'analyse de contenu,* Esf, collection formation permanante, Paris, 1974.

Nicolas Sarkozy, *Libre,* Robert Laffon, Paris.

Pierre Péan, *Carnages,* Fayard, 2010

Plane Jean-Michel, *Physiologie, ou l'Art de connaître les hommes sur leur physionomie,* Demoilly, Meudon, 1797.

Printemps arabs le souffle et les mots, Riveneuve, Paris 2012,

Quivy Raymond et Campenhoudt Luc Van, *Manuel de recherche en sciences sociales,* Dunod, Paris, 1997.

Reboul Anne, Jacques Moeschler, *La pragmatique aujourd'hui,* Editions du seuil, Paris 1998.

Reboul Olivier,*Le slogan,* Editions Complexe, Bruxelles, 1975.

Schopenhauer. Poètique. N° 5.

Searle John, *An Essay in the philosophy of language,* Cambridge University Press, 1969.

Thierry Bulot, *Genèse et champ de l'analyse du discours,* CREA/ CIM - Université Rennes 2, 2011.

REVUES et autres imprimés

Le petit Robert, Edition 2016. Paul Robert. Le Robert. Paris.

Le Petit Robert, Nouvelle édition millésime, 2016, Paris.

Le Petit Robert, Paris. 1982.

Cahiers de Linguistique FrançaiseN° 17, Université de Genève, Suisse, Charaudeau Patrick, «Le dialogue dans un modèle de discours ».

Communication, Paris, 1979. Volume 30. Numero1. Deirdre Wilson et Dan Sperber

Focus, mensuel, N° 256, fevrier 2014, Charaudeau Patrick, L'art de mentir.

L'OBS. Mars 2013, Colin Powell, comment la CIA m'a trompé,

La pragmatique, 1267.

Langage et société 2000/1, Niels Helsloot, Tony Hak, la contribution de Michel Pêcheux à l'analyse de discours.

Langages, 4ème année, n°.13, 1969, L'analyse du discours, sous la direction de Jean Dubois et Joseph Sumpf.

Langages, N° 117, 19 Maingueneau Dominique, Présentation, 95.

Langages, N° 13, Analyswe du Discours, Mars 1969, Dubois J.

languages, vol. 11, N° 1987, Johnstone Barbara: Paratactic in Arabic; Modification as a Model for Persuation.

Le Journal des psychologues, 2007. N° 274, Dorna Alexandre et Georget Patrice, Quand le contexte surdétermine le discours politique.

Libération, Valls veut démontrer, 7 Avril 2016.

Linx, Revue linguistique, Emile Benveniste, Vingt ans après, Université Paris Ouest Nanterre La Defense, 1997.

Locutionry act, illocutionary act, perlocutionary act.

Mots, ENS Edition, Lyon, 2015, N° 107, discours d'autorité: des discours sans éclats?

Mots, ENS Editions, Lyon, 2013, N° 103 Le silence en politique.
Mots, Présentation de l'analyse automatique du discours, Michel Pêcheux Volume 4. N° 1.
Persée, 1998, Vol 20, N° 1, Larcher Pierre, Une Pragmatique avant la pragmatique: médiévale, arabe et islamique.
Revue de Métaphysique et de Morale, Paris, 2004, N° 42, Laugier Sandra, Acte de langage ou pragmatique.
Sciences Humaines, Janvier-Février 2001, N° 30, Dortier Jean-François, Le Pragmatisme, une philosophie venue d'Amérique.
Speech Acts, ed. by Peter Cole and Jerry L. Morgan, New York: Academic Press 1975.
Syntax and Semantics, Vol 3, Grice Paul Herbert, Logic and conversation.
The Philosophical Review, Vol 66, N° 3, Jul. 1957, Grice Hubert.



سامي كليب إعلامي وكاتب يحمل الجنسيتين اللبنانية والفرنسية.

- حاصل على المركز الأول في معرض بيروت العربي الدولي للكتاب العام ٢٠١٦ عن كتابه «الأسد بين الرحيل والتدمير الممنهج - الحرب السورية بالوثائق السرية» الصادر عن دار الفارابي.
- دكتوراه في علوم الإعلام والاتصال من الجامعة اللبنانية.
- دراسات عليا في الإعلام وفلسفة اللغة وتحليل الخطاب السياسي والإعلامي من جامعة السوربون في باريس.
- تولى مناصب إعلامية عديدة في فرنسا بين ١٩٩٠ و٢٠٠٩ كان أبرزها رئيس تحرير في إذاعتي فرنسا الدولية، ومونت كارلو الدولية، ومستشار رئاسي للهولدينغ الإعلامي الفرنسي الموجه إلى العالم العربي.
- مقدم برنامَجي «زيارة خاصة» و«الملف» عبر قناة الجزيرة لأكثر من ١٠ سنوات، وأحد مؤسسي قناة «الميادين» التي تولّى إدارة الأخبار فيها، ويقدم عبرها حالياً برنامج «لعبة الامم»، وقبلهما كان مراسلاً لفضائية LBC اللبنانية في باريس وإفريقيا.
- كاتب لسنوات طويلة في صحف ودوريات عربية وأجنبية من بينها «السفير» و«الرأي العام» الكويتية، و«الانوار» و«الاخبار» اللبنانيتان.
- مذيع ومقدم برامج ومراسل حربي وسياسي لأكثر من ٢٥ عاماً بين فرنسا والوطن العربي غطى خلالها أبرز حروب العالم وأحداثه.
- مدرّب محترف لفنون الإعلام والصحافة والتقديم الإذاعي والتلفزيوني، ساهم في تدريب وتأسيس العديد من الإذاعات والتلفزات في الوطن العربي.

samikleib@hotmail.com
Twitter:@samykleyb
Facebook:Sami kleib


ISBN-13: 978-614-432-775-3
9 786144 327753